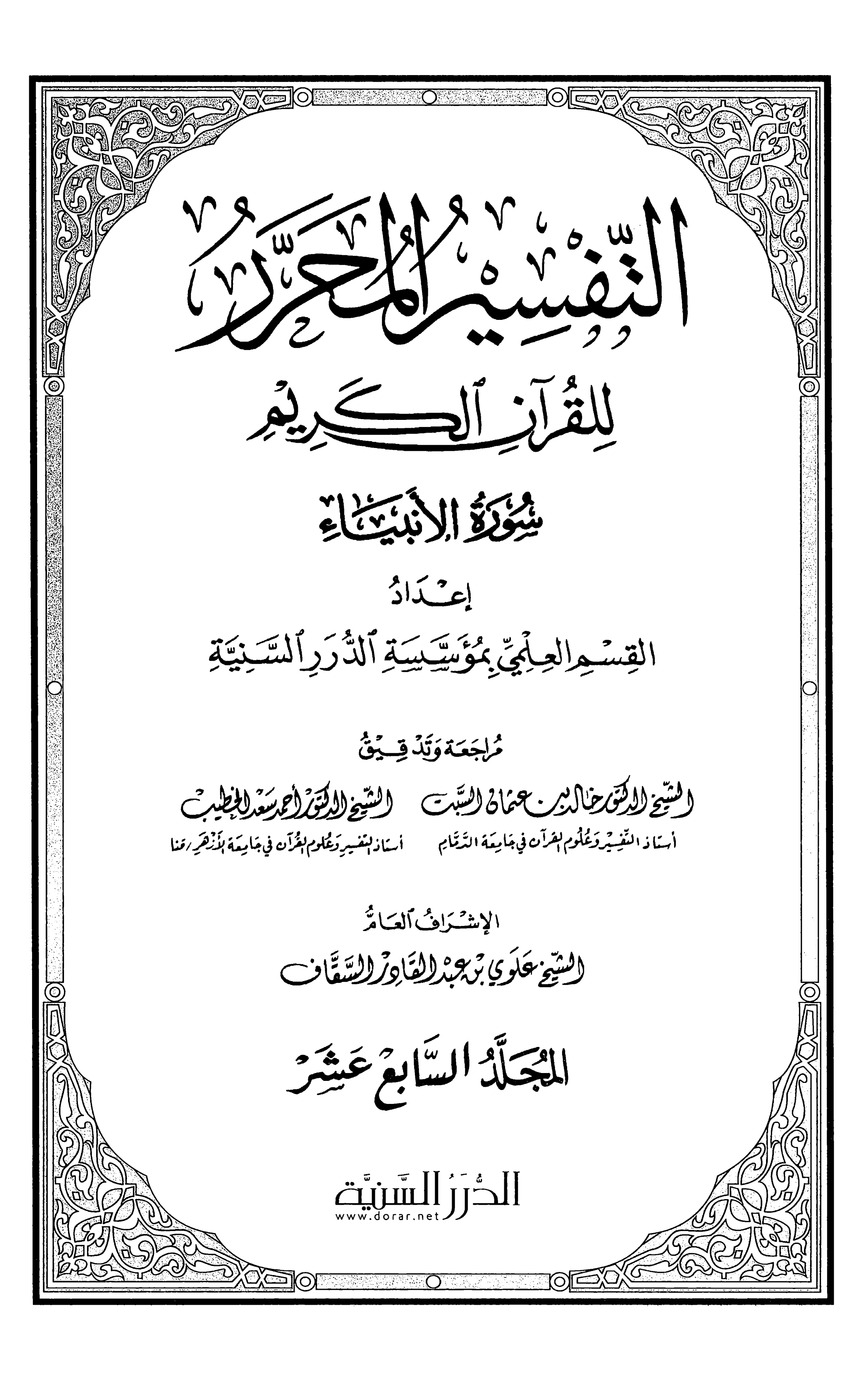


التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الأنبياء

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر/ طنطا

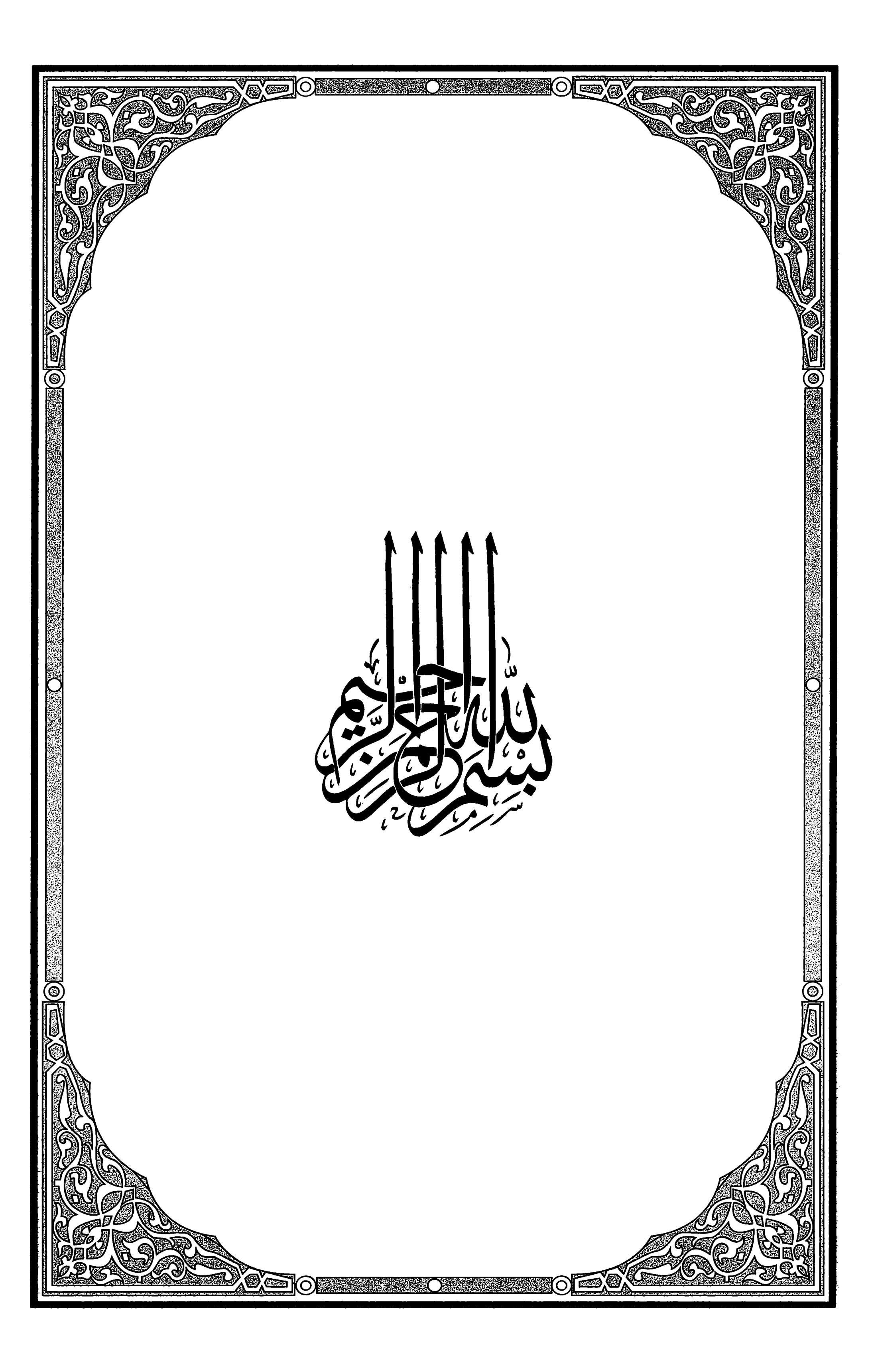
الإشراف العام

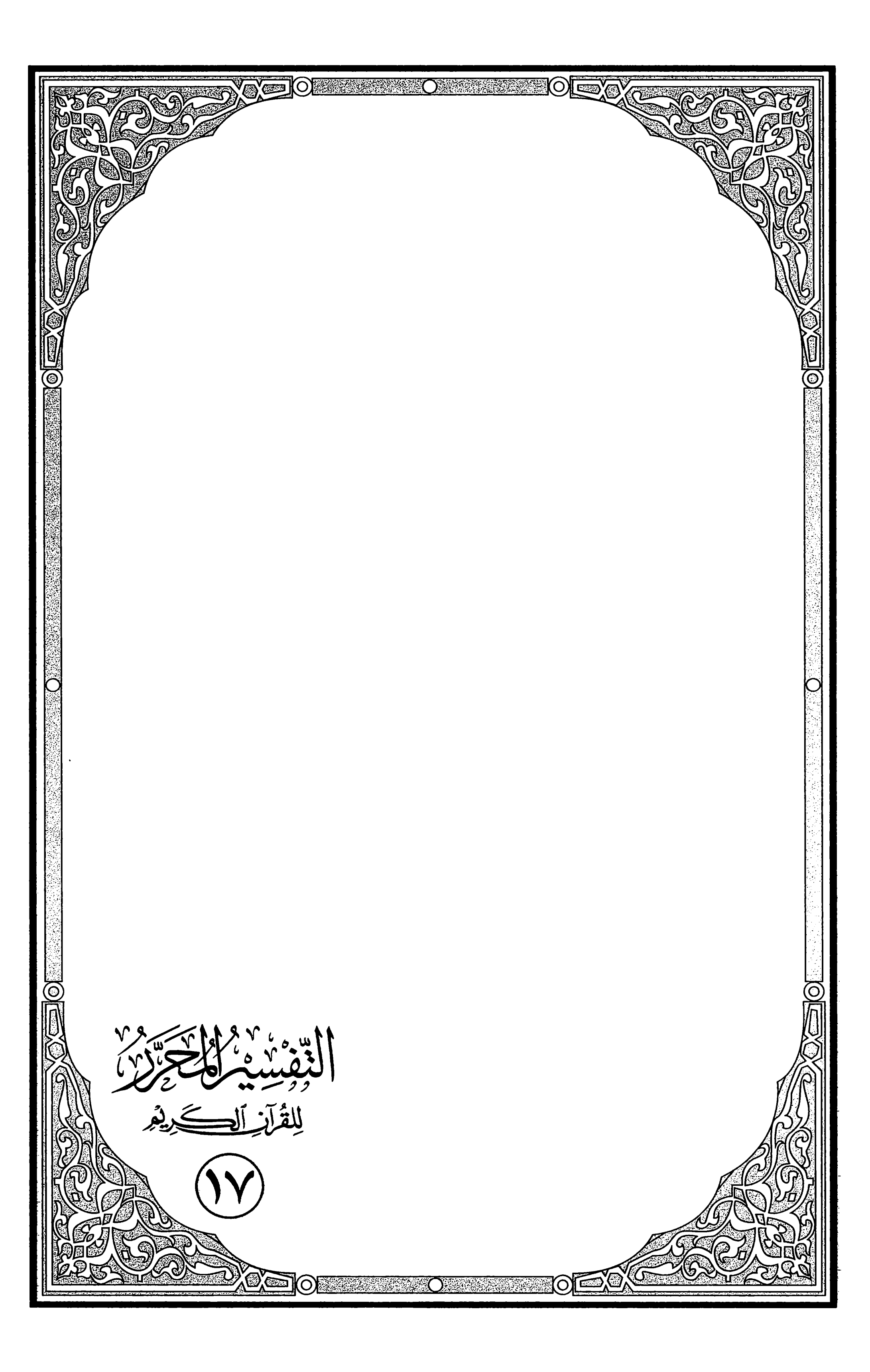
الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

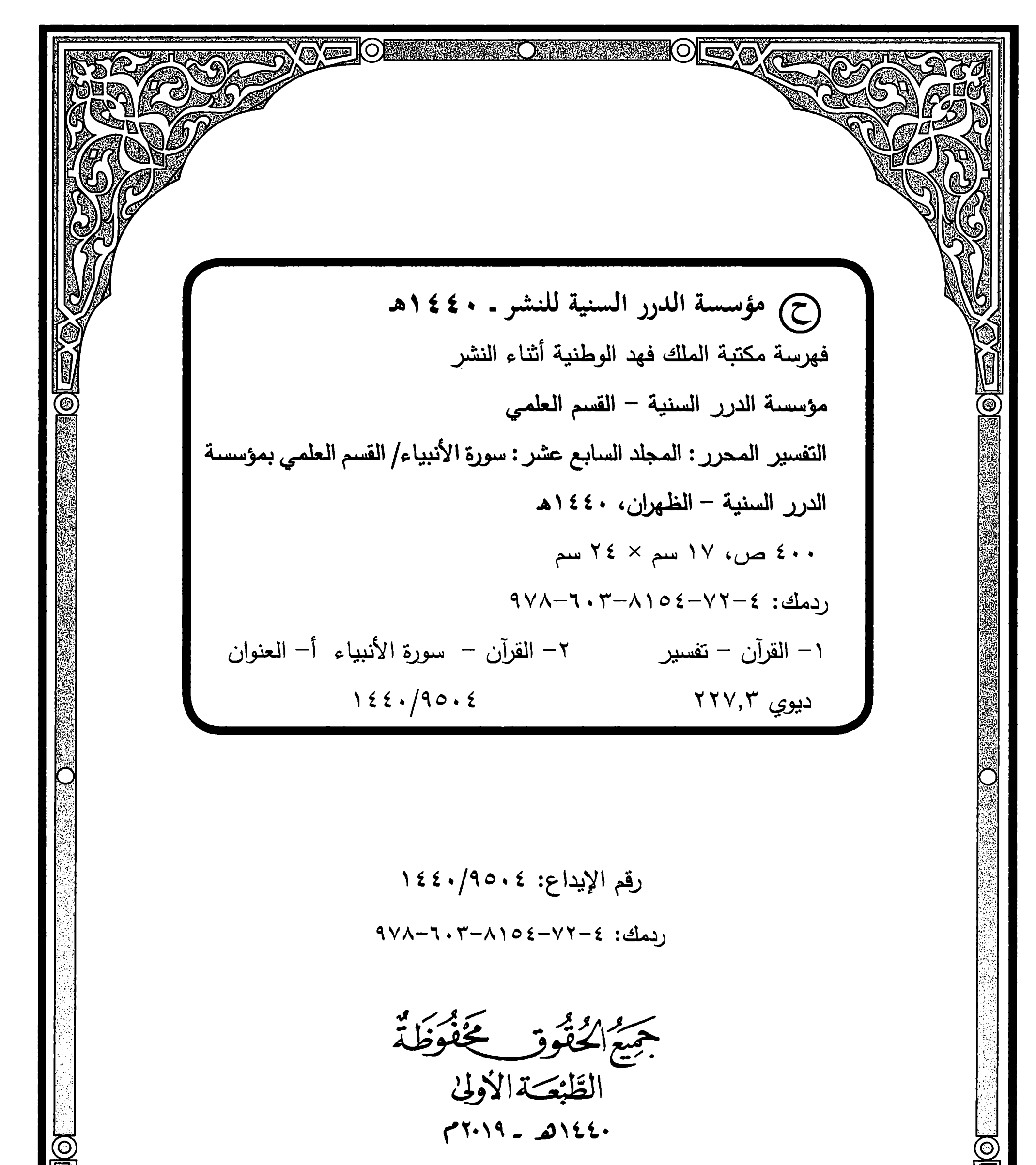
المجلد السابع عشر

الدرر السنية

www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم


التفسير المحرر
للقرآن الكريم
١٧



ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر: المجلد السابع عشر: سورة الأنبياء/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٠هـ

٤٠٠ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٧٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير ٢- القرآن – سورة الأنبياء أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٠/٩٥٠٤

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٩٥٠٤

ردمك: ٤-٧٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م

الدرر السنية
www.dorar.net

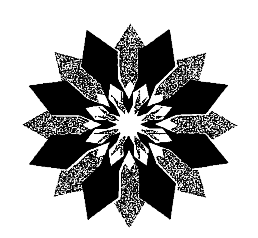
مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية

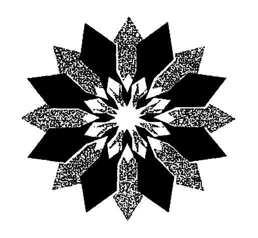
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

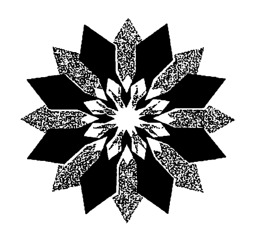
ت:٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس:٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ –بريدإلكتروني nashr@dorar.net

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الأَنْبِياءِ







سورةُ الأنْبياءِ

أسماءُ السُّورة:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الأنبياءِ)[١].

فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: (سورةُ «بني إسرائيلَ» و«الكَهفِ» و«مَريمَ» و«طه» و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ[٢]، وهُنَّ مِن تِلادي[٣])[٤].

فَضائِلُ السُّورة وخَصائِصُها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه:

كما دلَّ عليه أثرُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه المتقدِّمُ.

---

(١) سُمِّيَت هذه السورةُ سورةَ الأنبياءِ؛ لاشتِمالِها على قَصَصِهم. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٧).

قال الطِّيبي: (هذه السورةُ مِن مفتتحِها واردةٌ في أمرِ النبوةِ وما يتَّصِلُ بها، ومِن ثَمَّ سُمِّيتْ بسورةِ الأنبياءِ). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٠٧).

وقال ابن تيمية: (سورةُ «الأنبياءِ» سورةُ «الذِّكرِ»، وسورةُ الأنبياءِ الَّذين عليهم نزل الذِّكرُ، افْتَتَحها بقولِه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ٢]، وقوله: ﴿فَسْأَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقوله: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٦٥).

(٢) العِتاق: جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقولِه: (العِتَاق الأُوَل): السُّوَر الَّتِي أُنْزِلت أوَّلًا بِمَكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٣) تِلادي: أي: مما حُفِظ قديمًا، والتِّلادُ: قديمُ المِلكِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٤) رواه البخاري (٤٧٣٩).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الأنبياءِ مَكِّيَّةٌ(١)، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غَيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ(٢).

مَقاصِدُ السُّورة:

من أهَمِّ مقاصِدِ السُّورة:

١- بَيانُ مَعالمِ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وما لقِي الأنبياءُ في سبيلِ الدعوةِ إليه(٣).

٢- إثباتُ المعادِ، وبيانُ الأدلَّةِ على وُقوعِه(٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- الإنذارُ بالبَعثِ، وتحقيقُ وُقوعِه.

٢- ذِكرُ عَدَدٍ مِن الشُّبُهاتِ التي أثارها المُشرِكونَ حولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ودَعوتِه، والرَّدُّ عليها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٠).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وأبو حيان، ومجدُ الدين الفيروزابادي، والبِقَاعيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٢٨٥).

وقيل: السورةُ مكيةٌ، ويُستثني منها: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ...﴾ الآيةَ [الأنبياء: ٤٤]، فهي مدنيَّةٌ. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٩/ ٤٨٢٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبِقَاعي (١٢/ ٣٧٨).

٣- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا قاله المُشرِكونَ في شأنِه.

٤- التَّذكيرُ بما أصاب الأُمَمَ السَّالِفةَ مِن جرَّاءِ تكذيبِهم رُسُلَهم.

٥- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى شُمولِ قُدرتِه.

٦- ذِكْرُ أخبارِ بَعضِ الأنبياءِ، ومنهم موسى وهارونُ، وإبراهيمُ ولُوطٌ، وإسحاقُ ويَعقوبُ، ونوحٌ، وأيُّوبُ، وداودُ، وسُلَيمانُ، وإسماعيلُ، وإدريسُ، ويُونُسُ، وزكريَّا -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٧- تعقيبُ أخبارِ الأنبياءِ بالمقصودِ الأساسيِّ مِن رِسالتِهم، وهو دَعوةُ النَّاسِ جميعًا إلى إخلاصِ العبادةِ لله.

٨- ذِكرُ بَعضِ أشراطِ السَّاعةِ، وشَيءٍ من أهوالِها، وأحوالِ النَّاسِ فيها.

٩- خُتِمَت السُّورةُ بالحَديثِ عن سُنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ التي لا تتخَلَّفُ، وهي أنَّ العاقِبةَ للمُؤمِنينَ؛ والحديثِ عن رِسالةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن مَوقِفِه من أعدائِه.



الآيات (١-٥)

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ (٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّحْدَثٍ﴾: أي: مُجَدَّدٍ إنزالُه، والمُحدَثُ: ما أُوجِدَ بعدَ أنْ لم يكُنْ، وذلك إمَّا في ذاتِه، أو إحداثِه عندَ مَن حَصَلَ عندَه، وأصلُ (حدث): يدلُّ على كَونِ الشَّيءِ لم يكُنْ(١).

﴿لَاهِيَةً﴾: أي: غافِلةً وساهيةً، وأصل (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ(٢).

﴿ٱلنَّجْوَى﴾: أي: السِّرارَ والمُناجاةَ، وأصلُ (نجو) هنا: يدلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ(٣).

﴿أَضْغَٰثُ﴾: أي: أخلاطُ، وأضغاثُ الأحلامِ: هي ما لا تأويلَ له مِنَ الرُّؤيا، كأنَّه جماعاتٌ تُجمَعُ مِن الرُّؤيا كما يُجمَعُ الحَشيشُ، وأصلُ (ضغث): يدُلُّ على التباسِ الشَّيءِ بَعضِه ببَعضٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣١٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، =

مُشكِلُ الإعراب:

قولُه تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

في محلِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أوجهٌ، منها:

الوجهُ الأول: الرفعُ، وذلك على أنَّه بدلٌ مِن واوِ (أَسَرُّوا). أو أن يكونَ (الذين) مبتدأً، و(أَسَرُّوا) جملةَ الخبرِ، قُدِّمَتْ على المبتدأ. أو أنَّه خبرُ مبتدأٍ مضمَرٍ، تقديرُه: هم الذين ظلموا.

الوجهُ الثاني: النَّصبُ على الذمِّ. أو على إضمارِ (أعني). وقيل غير ذلك.

قولُه: ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾ جملةٌ في محلِّ نصبٍ بدَلٌ من ﴿ٱلنَّجْوَى﴾؛ لأنَّه في الواقِعِ هو الكلامُ الذي تناجَوا به. أو في محلِّ نصبٍ بإضمار القَولِ. أو في محلِّ نصبٍ على أنها محكيَّةٌ بالنجوى؛ لأنَّها في معنى القَولِ، أو لا محلَّ لها تفسيريَّةٌ للنَّجوى[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: قَرُبَ وَقتُ حِسابِ النَّاسِ على ما قدَّموا مِن عَمَلٍ، والحالُ أنَّهم لاهُونَ غافِلونَ مُعرِضونَ عن هذا الإنذارِ؛ وذلك أنَّهم ما مِن شَيءٍ يُستحدَثُ نُزولُه مِن القُرآنِ إلَّا كان سَماعُهم له سَماعَ لَعِبٍ واستِهزاءٍ، وقلوبُهم غافِلةٌ عن القُرآنِ الكريمِ، مَشغولةٌ بالدُّنيا وشَهواتِها. وأسَرَّ مُشرِكو قُريشٍ المناجاةَ فيما بينهم، قائلًا بعضُهم لبعضٍ: هل هذا الذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ إليكم إلَّا

= ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٤٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين (٨/ ١٣٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (١٧/ ٤).

بَشَرٌ مِثْلُكم، وما القُرآنُ الذي جاء به إلَّا سِحرٌ، فكيف تجيئونَ إليه وتتَّبِعونَه مع عِلمِكم وإدراكِكم أنَّه سِحرٌ؟!

فردَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الكُفَّارِ المكَذِّبينَ، فقال: ربِّي يعلَمُ كلَّ قَولٍ في السَّماءِ والأرضِ، ويعلَمُ ما أسرَرْتُموه وما أعلَنتُموه، وهو السَّميعُ العَليمُ.

بل جحَدَ الكُفَّارُ القُرآنَ، وقالوا: إنَّه أخلاطُ أحلامٍ لا حَقيقةَ لها، بل هو اختِلاقٌ وكَذِبٌ مفترًى، بل إنَّ مُحمَّدًا شاعرٌ، جاءَكم بشِعرٍ، فلْيَجِئْنا بمُعجِزةٍ مَحسوسةٍ -كناقةِ صالحٍ، وعصا موسى- إنْ أراد منَّا أن نُصَدِّقَه ونؤمِنَ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١)﴾.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

أي: قَرُبَ[1] وقتُ حِسابِ النَّاسِ[2] يومَ القيامةِ على أعمالِهم التي عَمِلوها

---

(١) قال الواحدي: (معنى الاقترابِ هاهنا: قِصَرُ المدَّةِ التي بينَهم وبينَ الحسابِ). ((البسيط)) (١٥/ ٧).

(٢) ممن اختار أنَّ المرادَ بالنَّاسِ: العمومُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ جزي، وابنُ كثير، والبقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٨). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٨).

قال ابن عطية: (وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ عامٌّ في جميعِ الناسِ، وإن كان المشارُ إليه في ذلك الوقتِ كفارَ قريشٍ، ويدلُّ على ذلك ما بعدُ مِن الآياتِ. وقولُه: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ يريدُ: الكفارَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٣).

وقيل: المرادُ بالناسِ: كُفَّارُ مَكَّةَ. وممن اختار هذا القولَ: الواحدي، وأبو حيان. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص ٧١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٦). =

في دُنياهم[١].

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم[٢] في غفلةٍ في الدُّنيا عن اقترابِ حِسابِهم، وعمَّا يَفعَلُ اللهُ بهم في ذلك اليومِ، وقد أعرَضوا عن التفكُّرِ في الآخرةِ، وما ينتظرُهم فيها مِن الحسابِ، ولم يستعِدُّوا لها بالأعمالِ الصَّالحةِ[٣]!

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه عن غَفلةِ الكافرينَ وإعراضِهم، عَلَّلَ ذلك بقَولِه[٤]:

= وقيل: المرادُ بالناسِ: المشركونَ مطلقًا، دونَ المؤمنينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦٧). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٨).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بالنَّاسِ المشركونَ؛ لأنَّهم المقصودُ بهذا الكلامِ كما يَدُلُّ عليه ما بعدَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٨).

قال السعدي: (وفي معنى قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قولان: أحدُهما: أنَّ هذه الأمَّةَ هي آخِرُ الأُمَمِ، ورسولُها آخِرُ الرسُلِ، وعلى أمَّتِه تقومُ الساعةُ، فقد قَرُب الحسابُ منها بالنسبةِ لِما قبلَها من الأمَمِ...

والقولُ الثاني: أنَّ المرادَ بقُربِ الحِسابِ: الموتُ، وأنَّ مَن مات قامَت قيامتُه، ودخَل في دارِ الجزاءِ على الأعمالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٨).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يريدُ الكُفَّارَ، ويتَّجِهُ من هذه الألفاظِ على العُصاةِ من المؤمنينَ قِسطُهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٢).

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾.

أي: ما يأتيهم[١] مِن وَحيٍ من اللهِ حَديثِ النُّزولِ[٢] -لِتَذكيرِهم ومَوعِظتِهم- إلَّا استَمَعوه سَماعَ لَعِبٍ واستِهزاءٍ به، فلا يَعتَبِرونَ، ولا يتَّعظُونَ به[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١].

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: غارِقةً قُلوبُهم في اللَّهوِ والغَفلةِ عن القرآنِ، مُتشاغِلةً بدُنياها وشَهَواتِها عن التأمُّلِ والتفهُّمِ لِمَعانيه، فلا يتدبَّرونَ حِكَمَه، ولا يتفكَّرونَ فيما أودَعَ اللهُ فيه مِن الحُجَجِ والبراهينِ[٤].

---

(١) قال ابن كثير: (والخطابُ مع قُرَيشٍ ومَن شابَهَهم مِن الكفَّارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢).

(٢) قال ابن تيميَّة: (لَمَّا قالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ عُلِم أنَّ الذِّكْرَ منه مُحْدَثٌ ومنه ما ليسَ بِمُحْدَثٍ؛ لأنَّ النَّكرةَ إذا وُصِفَتْ مُيِّز بها بينَ الموصوفِ وغيرِه، كما لو قالَ: ما يأتيني مِن رجلٍ مسلمٍ إلَّا أكْرَمتُه، وما آكُلُ إلَّا طعامًا حلالًا ونحوَ ذلك، ويُعلَمُ أنَّ المحدَثَ في الآيةِ ليسَ هو المخلوقَ الَّذي يقولُه الجهميُّ، ولكنَّه الَّذي أُنزِل جديدًا، فإنَّ الله كان يُنَزِّلُ القرآنَ شيئًا بعدَ شيءٍ، فالمنزَّلُ أوَّلًا هو قديمٌ بالنِّسبةِ إلى المنزَّلِ آخِرًا. وكلُّ ما تقدَّم على غيرِه فهو قديمٌ في لُغةِ العربِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٢/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٢/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٢).

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

أي: وبالَغ مُشرِكو قُرَيشٍ في إخفاءِ المناجاةِ[1] فيما بيْنَهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: هل هذا الذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ من اللهِ إليكم إلَّا إنسانٌ مِثلُكم في صُوَرِكم وخَلْقِكم، واحتياجِه للطعامِ والشَّرابِ وغَيرِ ذلك[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

أي: أفتَقبَلونَ مِن محمَّدٍ القُرآنَ، وتصَدِّقونَ به وتتَّبِعونَه، وأنتم تَعلَمونَ وتُدرِكون أنَّه سِحرٌ[3]؟!

---

(١) وممَّن ذهَب إلى أنَّ الإسرارَ هنا بمعنى الإخفاءِ: تاج القراء الكرماني، وابنُ عطية، والرسعني، وابنُ كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((غرائب التفسير)) للكرماني (٢/ ٧٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٣).

قال الرسعني: (والصَّحيحُ عندي: ما هو المتبادِرُ إلى الأفهامِ. فإن قيل: النَّجوى لا تكونُ إلَّا خُفْيةً، فما معنى قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾؟ قُلتُ: المبالغةُ في إخفاءِ ما تناجَوا به. فإنْ قيلَ: ما الذي حمَلَهم على المبالغةِ في إخفائِه، وهم أشَدُّ شَكيمةً وأحدُّ شَوكةً؟ قلتُ: حمَلَهم عليه الخَوفُ مِن نَقضِ ما أبرَموه من المكايِدِ لهَدمِ الإسلامِ، وإطفاءِ نورِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، على تقديرِ اطِّلاعِه عليه، على ما أُلِفَ وعُرِفَ من شأنِ ذوي الشَّأنِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٩٠).

وقيل: الإسرارُ هنا بمعنى الإظهارِ، فهو مِن الأضدادِ. وممن ذهب إلى ذلك: أبو عبيدةَ، وابنُ جريرٍ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤). =

كما قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٧، ٤٨].

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لما أورَدَ هذا الكلامَ عَقِيبَ ما حكَى عن الكافرينَ؛ وجَب أن يكونَ كالجوابِ لِما قالوه، فكأنَّه قال: إنَّكم وإنْ أخفيتُم قَولَكم وطَعْنَكم، فإنَّ ربِّي عالمٌ بذلك، وإنَّه مِن وَراءِ عقوبتِه، فتُوُعِّدوا بذلك؛ لكي لا يعودوا إلى مِثلِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان اللهُ تعالى لا يُقِرُّ مَن كَذَبَ عليه، فضلًا عن أن يصَدِّقَه ويؤيِّدَه، ولا يخفَى عليه كيدٌ حتى يلزَمَ منه نَقصُ ما أرادَه؛ قال دالًّا لهم على صِدقِه، منبِّهًا على مَوضِعِ الحجَّةِ في أمرِه[2]:

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿ قَالَ ﴾ على الخبرِ، أي: أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أجاب

= وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ بالإتيانِ هنا حُضورُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِسَماعِ دَعوتِه، فجعلوه إتيانًا؛ لأنَّ غالِبَ حُضورِ المجالِسِ أن يكونَ بإتيانٍ إليها، وجعلوا كلامَه سِحرًا، فنهَوا مَن ناجَوهم عن الاستِماعِ إليه. وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]. ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٤).

الكُفَّارَ بهذا القَولِ[١].

٢- قراءةُ: ﴿قُلْ﴾ على الأمرِ، أي: أنَّ اللهَ أمرَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُجيبَ الكُفَّارَ بهذا القَولِ[٢].

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: قال محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للكفَّارِ الذين يكذِّبونَه: ربِّي يعلَمُ كلَّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ سِرًّا كان أو جَهرًا، لا يخفَى عليه شَيءٌ ممَّا يُقالُ فيهما، وهو الذي أنزَل هذا القُرآنَ المُشتَمِلَ على خبَرِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، الذي لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمِثلِه إلَّا الذي يعلَمُ السرَّ في السَّمواتِ والأرضِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٤ - ٦].

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لكلِّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ، العليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن

(١) قرأ بها حفصٌ عن عاصمٍ، وحمزةُ، والكسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٥).

ذلك عِلمُه بأحوالِنا وما في قُلوبنا، وبالصَّادِقِ والكاذِبِ منَّا[1].

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكر اللهُ تعالى عن الكافرينَ أنَّهم قالوا: إنَّ ما أتَى به سِحرٌ؛ ذكَرَ اضطرابَهم في مقالاتِهم، فذكَر أنَّهم أضرَبوا عن نسبةِ السِّحرِ إليه، وقالوا: ما يأتي به إنَّما هو ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ﴾، ثمَّ أضرَبوا عن هذا فقالوا: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أي: اختَلَقَه وليس مِن عندِ الله، ثمَّ أضرَبوا عن هذا فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾، وهكذا المبطِلُ لا يَثبُتُ على قَولٍ، بل يبقى متحَيِّرًا[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان وَصْفُهم له بأنَّه سِحرٌ مِمَّا يَهولُ السَّامِعَ، ويَعلَمُ منه أنَّه مُعجِزٌ، فرُبَّما أدَّى إلى الاستِبصارِ في أمرِه؛ أخبَرَ أنَّهم نزَلوا به عن رُتبةِ السِّحرِ على سَبيلِ الإضرابِ، فقال[3]:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾.

أي: بل[4] قال الكافِرونَ: القرآنُ أشياءُ مُختَلِطةٌ رآها محمَّدٌ في منامِه ولا حقيقةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٦).

(٤) قيل: (بل) هنا للإضرابِ الانتقاليِّ وليس الإبطاليَّ؛ فمرةً يقولونَ كذا، ومرةً يقولونَ كذا، متحيرينَ لا يستقِرُّونَ على رأيٍ. وممن قال بذلك: الواحدي، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٥). =

لها، بل هو كذِبٌ افتراه محمَّدٌ مِن قِبَلِ نفْسِه، بل محمَّدٌ شاعِرٌ جاءكم بشِعرٍ، وزعم أنَّه مِن عندِ ربِّه[1]!

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

أي: قال الكافرونَ: فَلْيَأْتِنَا محمَّدٌ بمُعجِزةٍ حِسِّيَّةٍ تدُلُّ على صِدقِه، كما أيَّدَ اللهُ رُسُلَه السَّابقينَ بالمُعجِزاتِ؛ كناقةِ صالحٍ، وعصا موسى، ومعجزاتِ عيسى، وغيرِ ذلك من المعجزاتِ التي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ، ولا يأتي بها إلَّا الأنبياءُ والرُّسُلُ عليهم السَّلامُ[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ذكَرَ تعالى هذا الاقترابَ؛ لِما فيه مِن المصلحةِ للمُكَلَّفينَ، فيكونُ أقرَبَ إلى تلافي الذُّنوبِ، والتحَرُّزِ عنها خوفًا من ذلك[3]، فمَن عَلِمَ اقترابَ الساعةِ قَصُرَ أمَلُه، وطابت نفسُه بالتَّوبةِ، ولم يركَنْ إلى الدُّنيا، فكأنَّ ما كان لم يكُنْ إذا ذهب، وكلُّ آتٍ قَريبٌ، والموتُ لا محالةَ آتٍ، وموتُ كلِّ إنسانٍ قِيامُ ساعتِه، والقيامةُ أيضًا قريبةٌ بالإضافةِ إلى ما مضَى من الزَّمانِ، فما بقِي مِن الدُّنيا أقلُّ مِمَّا مضَى[4].

= وقيل: بل قال بعضُهم بكذا، وقال بعضهم بكذا، فكلُّ فريقٍ منهم يقولُ بشيءٍ من ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٧).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ ذلك ذَمٌّ للكُفَّارِ، وزَجرٌ لِغَيرِهم عن مِثلِه؛ لأنَّ الانتفاعَ بما يُسمَعُ لا يكونُ إلَّا بما يَرجِعُ إلى القَلبِ مِن تدَبُّرٍ وتفَكُّرٍ، وإذا كانوا عندَ استماعِه لاعبينَ حَصَلوا على مجَرَّدِ الاستِماعِ الذي قد تُشارِكُ البهيمةُ فيه الإنسانَ[1]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ إن قيل: ما وجهُ وصفِه بالاقتراب وقد مضَى لهذا الوعيدِ مئاتُ السنينَ ولم يقَعْ؟

فالجوابُ عنه بعدةِ أجوبةٍ:

أحدها: لقلةِ ما بقيَ بالإضافةِ إلى ما مضَى.

الثاني: لأنَّه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ، وإنْ طالَتْ مُدَّتُه.

الثالث: أنَّه قريبٌ عندَ الله، وإن كان بعيدًا بالنسبةِ إلى غيرِه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[2] [المعارج:٦، ٧].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ لم يعَيِّنِ الوقتَ؛ لأجْلِ أنَّ كِتمانَه أصلَحُ، كما أنَّ كِتمانَ وَقتِ المَوتِ أصلَحُ[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ الفائِدةُ في تَسميةِ يَومِ القيامةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٩).

بـ (يوم الحساب): أنَّ الحِسابَ هو الكاشِفُ عن حالِ المرءِ؛ فالخَوفُ مِن ذِكرِه أعظَمُ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ استدلَّ المعتزلةُ بوَصْفِ الذِّكْرِ بكونِه مُحْدَثًا على أَنَّ القرآنَ مُحْدَثٌ أي: مخلوقٌ؛ لأَنَّ الذِّكْرَ هنا هو القرآنُ.

والجواب: أنَّ المرادَ محدَثٌ تنزيلُه، والحدوثُ في لغةِ العربِ العامَّةِ ليس هو الحدوثَ في اصطلاحِ أهلِ الكلامِ؛ فإنَّ العربَ يُسمُّون ما تجدَّد حادِثًا[٢].

٥- وفي قولِه: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ أخبَرَ عنهم بخَبرينِ ظاهِرُهما التَّنافي؛ لأنَّ الغفلةَ عن الشَّيءِ والإعراضَ عنه مُتنافيانِ، لكنْ يُجْمَعُ بينَهما باختلافِ حالينِ: أخبَرَ عنهم أوَّلًا أنَّهم لا يتفكَّرونَ في عاقبةٍ، بل هم غافِلونَ عمَّا يَؤُولُ إليه أمْرُهم، ثمَّ أخبَرَ عنهم ثانيًا أنَّهم إذا نُبِّهوا من سِنَةِ الغفلةِ، وذُكِّروا بما يَؤُولُ إليه أمْرُ المُحسِنِ والمُسيءِ، أعْرَضوا عنه، ولم يُبالوا بذلك[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ لَمَّا كان المُشرِكونَ يَصِفونَ القُرآنَ بجَميعِ هذه الأوصافِ جُملةً، يقولونَ لكُلِّ شَخصٍ ما رأَوه أنسَبَ له منها؛ نَبَّه اللهُ سُبحانَه كلَّ مَن له لُبٌّ على بُطلانِها كُلِّها بتناقُضِها بحَرفِ الإضرابِ؛ إشارةً إلى أنَّه كان يجِبُ على مَن قالها على قِلَّةِ عَقْلِه وعَدَمِ حَيائِه ألَّا ينتَقِلَ إلى قَولٍ منها إلَّا بعد الإعراضِ عن الذي قَبلَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦٧). ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (١/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٧).

وأنَّه مِمَّا يُضرَبُ عنه؛ لِكَونِه غَلَطًا، ما قيل إلَّا عن سَبْقِ لِسانٍ وعَدَمِ تأمُّلٍ؛ سَترًا لعِنادِه، وتَدليسًا لِفُجورِه! ولو فعل ذلك لكانت جَديرةً بانكشافِ بُطلانِها بمُجَرَّدِ الانتِقالِ، فكيف عند اجتِماعِها؟ ولَمَّا كانت نِسبتُه إلى الشِّعرِ أضعَفَها شأنًا، وأوضَحَها بُطلانًا؛ لم يحتَجْ إلى إضرابٍ عنه[1].

٧- في قولِهم: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ دَلالةٌ على مَعرفتِهم بإتيانِ الرُّسلِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أُسلوبٌ بديعٌ في الافتتاحِ؛ لِمَا فيه من غَرابةِ الأسلوبِ، وإدخالِ الرَّوعِ على المُنذَرينَ؛ فإنَّ المُرادَ بالنَّاسِ مُشْرِكو مكَّةَ -على قولٍ في التفسيرِ-، و﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ فيه مُبالَغةٌ في القُرْبِ، فصِيغَةُ الافتعالِ الموضوعةُ للمُطاوَعةِ مُستعمَلةٌ في تَحقُّقِ الفعلِ، أي: اشتَدَّ قُرْبُ وُقوعِه بهم[3].

- وفي قولِه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أسنَدَ الاقترابَ إلى الحسابِ لا إلى السَّاعةِ، مع استتباعِها له ولسائرِ ما فيها من الأحوالِ والأهوالِ الفظيعةِ؛ لانسياقِ الكلامِ إلى بَيانِ غفْلتِهم عنه، وإعراضِهم عمَّا يُذكِّرُهم ذلك. واللَّامُ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُتعلِّقةٌ بالفعْلِ، وتَقديمُها على الفاعلِ؛ للمُسارَعةِ إلى إدخالِ الرَّوعةِ؛ فإنَّ نِسْبةَ الاقترابِ إليهم مِن أوَّلِ الأمْرِ ممَّا يَسوؤُهم ويُورِثُهم رَهْبةً وانزِعاجًا من المُقترِبِ. وفي إسنادِ الاقترابِ المُنْبِئِ عن التَّوجُّهِ نحْوَهم إلى

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨).

الحسابِ -مع إمكانِ العكْسِ بأنْ يُعتبرَ التَّوجُّهُ والإقبالُ من جِهَتِهم نحْوَه- من تَفخيمِ شأْنِه، وتَهويلِ أمْرِه ما لا يَخْفى؛ لِمَا فيه من تَصويرِه بصُورةِ شَيءٍ مُقبِلٍ عليهم، لا يَزالُ يُطالِبُهم ويُصيبُهم لا مَحالةَ[١].

- قولُه: ﴿لِلنَّاسِ﴾ المُرادُ به المُشرِكونَ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فيكونُ هذا من إطلاقِ اسمِ الجنْسِ على بعْضِه للدَّليلِ القائمِ، وهو ما يَتْلوه من صِفاتِ المُشرِكين[٢].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿حِسَابُهُمْ﴾ عائدٌ إلى النَّاسِ؛ فصار قولُه: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُساوِيًا للضَّميرِ الَّذي أُضِيفَ إليه (حِساب)، فكأنَّه قيل: اقترَبَ حِسابٌ للنَّاسِ لهم؛ فكان تأْكيدًا لفظيًّا، وأصْلُ النَّظمِ: اقترَبَ للنَّاسِ الحسابُ. وإنَّما نُظِمَ التَّركيبُ على هذا النَّظمِ بأنْ قُدِّمَ ما يدُلُّ على المُضافِ إليه، وعُرِّفَ النَّاسُ تَعريفَ الجنْسِ؛ ليَحصُلَ ضَرْبٌ من الإبهامِ، ثمَّ يقَعَ بعْدَه التَّبيينُ. ولِمَا في تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ من الاهتمامِ بأنَّ الاقترابَ للنَّاسِ؛ لِيَعْلَمَ السَّامِعُ أنَّ المُرادَ تَهديدُ المُشرِكينَ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ لأنَّهم الَّذين يُكنى عنهم بالنَّاسِ كثيرًا في القُرآنِ، وعند التَّقديمِ احتِيجَ إلى تَقديرِ مُضافٍ، فصار مِثْلَ: اقترَبَ حِسابٌ للنَّاسِ الحساب، وحُذِفَ المُضافُ؛ لدَلالةِ مُفسِّرِه عليه، ولمَّا كان الحِسابُ حِسابَ النَّاسِ المذكورينَ، جِيءَ بضَميرِ النَّاسِ؛ ليَعودَ إلى لفْظِ النَّاسِ، فيَحْصُلَ تأكيدٌ آخرُ، وهذا نمَطٌ بديعٌ من نسْجِ الكلامِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢٨٢، ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩، ١٠).

- ودلَّتْ (في) في قولِه: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ على الظَّرفيَّةِ الَّتي هي شِدَّةُ تَمكُّنِ الوصْفِ منهم، أي: وهم غافِلونَ أشَدَّ الغَفْلةِ، حتَّى كأنَّهم مُنْغمِسون فيها، أو مَظْروفونَ في مُحيطِها؛ ذلك أنَّ غفْلَتَهم عن يومِ الحسابِ مُتأصِّلةٌ فيهم؛ بسَببِ سابِقِ كُفْرِهم[1].

٢- قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾

- جُملةُ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم...﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾؛ لبَيانِ تَمكُّنِ الغَفْلةِ منهم وإعراضِهم، بأنَّهم إذا سَمِعوا في القُرآنِ تَذكيرًا لهم بالنَّظرِ والاستِدلالِ، اشْتَغلوا عنه باللَّعبِ واللَّهوِ، فلمْ يَفْقهوا معانِيَه، وكان حَظُّهم منه سَماعَ ألْفاظِه[2].

- والذِّكرُ: القُرآنُ؛ أُطْلِقَ عليه اسْمُ الذِّكرِ الَّذي هو مصدرٌ؛ لإفادةِ قُوَّةِ وصْفِه بالتَّذكيرِ[3].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ لابتداءِ الغايةِ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿يَأْتِيهِم﴾، أو بمَحذوفٍ هو صِفَةٌ لـ ﴿ذِكْرٍ﴾، وفي ذلك دَلالةٌ على فضْلِه وشَرفِه، وكَمالِ شَناعةِ ما فَعَلوا به. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ؛ لتَشديدِ التَّشنيعِ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾، وقال في (الشُّعراءِ): ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥]، فخُصَّتْ هذه السُّورة بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ بالإضافةِ؛ ووجْهُه: أنَّ هذينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤).

الاسمينِ العَظيمينِ -(الرَّب) و(الرَّحمن)- تواردَا في الكتابِ العزيزِ كثيرًا، ثمَّ إنَّ اسْمَه سُبحانه (الرَّحمنَ) يَغلِبُ وُرودُه حيث يُرادُ الإشارةُ إلى العفْوِ والإحسانِ والرِّفقِ بالعبادِ والتَّلطُّفِ والتَّأنيسِ. وأمَّا اسْمُه (الرَّبُّ) فيَعُمُّ وُرودُه طَرفَيِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ أمَّا التَّرغيبُ فبَيِّنٌ، وأمَّا التَّرهيبُ فحيث يَرِدُ معنى مِلْكيَّتِه سُبحانه لهم، وانفرادِه بإيجادِهم، وإدرارِ أرزاقِهم، وبَيانِ انفرادِه تعالى بذلك وهم على كُفرِهم. ولمَّا تقدَّمَ قبْلَ آيةِ (الأنبياءِ) مِن الأخبارِ ما طَيُّه وعيدٌ وترهيبٌ معَ تَلطُّفِه سُبحانه بهم بتَذكيرِهم، لم يكُنْ لِيُناسِبَ ذلك وُرودُ اسْمِه (الرَّحمنِ). أمَّا آيةُ (الشُّعراءِ) فمَبْنيَّةٌ على تأْنيسِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإعلامِه أنَّ توقُّفَ قومِه عن الإيمانِ إنَّما هو بقُدرتِه تعالى عليهم، ولو شاء لأراهم آيةً تُبْهِرُهم، ثمَّ رجَعَ الكلامُ إلى تَعنيفِ المُكذِّبينَ، فلمَّا كان بِناءُ الآيةِ على التَّأنيسِ والتَّلطُّفِ بِنَبيِّنا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإعلامِه بأنَّ تأْخيرَ العذابِ عنهم إنَّما هو إبقاءٌ منه تعالى؛ لِيَسْتجيبَ مَن قُدِّرَ له الإيمانُ منهم، فأشار إلى هذا، وناسبَهُ اسْمُه (الرَّحمنُ)؛ فوضَحَ وُرودُ كلٍّ من الآيتينِ في مَوضعِه على يُناسِبُ[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

- قولُه: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ فيه كِنايةٌ عن عدَمِ انتفاعِهم بالذِّكْرِ كلَّما جاءهم، بحيث لا يَزالونَ بحاجةٍ إلى إعادةِ التَّذكيرِ وإحداثِه، مع قطْعِ مَعذرتِهم؛ لأنَّه لو كانوا سَمِعوا ذِكْرًا واحدًا، فلم يَعْبؤوا به، لَانتَحَلوا لأنفُسِهم عُذرًا أنَّهم كانوا ساعتَئِذٍ في غَفلةٍ، فلمَّا تكرَّرَ حَدثانُ إتيانِه تبيَّنَ لكلِّ مُنصِفٍ أنَّهم مُعرِضون

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٦، ١٧٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٢).

عنه صَدًّا[1].

- وجُملةُ: ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾ حالٌ من ضَميرِ النَّصبِ في ﴿يَأْتِيهِم﴾، وجُملةُ ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حالٌ لازمةٌ من ضَميرِ الرَّفعِ في ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾ مُقيِّدةٌ لجُملةِ ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾ حالٌ باعتبارِ أنَّها مُقيَّدةٌ بحالٍ أُخرى هي المقصودةُ من التَّقييدِ، وإلَّا لصارَ الكلامُ ثَناءً عليهم. وفائدةُ هذا التَّرتيبِ بين الجُملتينِ الحاليَّتينِ: الزِّيادةُ لقطْعِ مَعذرتِهم المُستفادِ من قولِه: ﴿مُّحْدَثٍ﴾[2].

- وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ذُكِرَ (اللَّعِبُ) مُقَدَّمًا على (اللَّهوِ) في قوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [مُحمَّد: ٣٦]؛ تنبيهًا على أنَّ اشتِغالَهم باللَّعِبِ -الذي معناه السُّخريةُ والاستِهزاءُ- معلَّلٌ باللَّهوِ، الذي معناه الذُّهولُ والغَفلةُ؛ فإنَّهم أقدَموا على اللَّعِبِ لِلَهْوِهم وُذهولِهم عن الحقِّ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ احتراسٌ لجُملةِ ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾، أي: استماعًا لا وعْيَ معه[4]، وأفاد قولُه: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّهم ذاهِلونَ غافِلونَ عن ذلك؛ فنَفى آخِرُ الكلامِ ما أثبَتَهُ أوَّلًا على سَبيلِ التَّوكيدِ؛ ليُؤْذِنَ بأنَّهم لمَّا لم يَنْتفِعوا بذلك الاستِماعِ والتَّفطُّنِ، حيث اسْتَهزؤوا بالذِّكْرِ، كأنَّهم لم يَفْطَنوا أصْلًا، وثَبَتوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢).

على رأسِ غَفلتِهم[١].

- قولُه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ...﴾ كَلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ جِناياتِهم خاصَّةً إثْرَ حِكايةِ جِناياتِهم المُعتادةِ[٢]، ويجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على جُملةِ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾؛ لأنَّ كِلْتا الجُملتينِ مَسوقةٌ لذِكْرِ أحوالِ تلقِّي المُشركينَ لدَعوةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّكذيبِ والبُهتانِ والتَّآمُرِ على رفْضِها[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ عبَّرَ بقولِه: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾، مع أنَّ النَّجوى الَّتي هي التَّناجي لا تكونُ إلَّا خُفْيةً ومُسارَّةً؛ وذلك لأنَّهم بالَغوا في إخفاءِ المُسارَّةِ، أو جَعَلوها بحيث لا يَفْطَنُ أحدٌ لتَناجِيهم، ولا يعلَمُ أنَّهم مُتناجُونَ. وعلى وجهِ إبدالِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من واوِ ﴿وَأَسَرُّواْ﴾؛ فيكونُ ذلك إشْعارًا بأنَّهم المَوسومونَ بالظُّلمِ الفاحشِ فيما أسَرُّوا به، ولزيادةِ تَقريرِ أنَّهم المقصودُ من النَّجوى، ولِمَا في الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من الإيماءِ إلى سبَبِ تَناجيهم بما ذُكِرَ، وأنَّ سببَ ذلك كُفْرُهم وظُلْمُهم أنفُسَهم، وللنِّداءِ على قُبْحِ ما هم مُتَّصِفون به. وعلى وجْهِ أنَّه مُبتدأٌ خبَرُه ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ فيكونُ قُدِّمَ عليه اهْتِمامًا به، أي: وهؤلاء أسَرُّوا النَّجوى؛ فوضَعَ المُظْهَرَ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ تَسجيلًا على فِعْلِهم بأنَّه ظُلْمٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣).

- قولُه: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مفعولٌ لقولٍ مُضْمَرٍ هو جوابٌ عن سُؤالٍ نشَأَ عمَّا قبْلَه؛ كأنَّه قِيلَ: ماذا قالوا في نَجْواهم؟ فقيل: قالوا: ﴿هَلۡ هَٰذَآ...﴾[1]، وهو استفهامٌ معناهُ التَّعجُّبُ والإنكارُ يَقْتضي أنَّهم خاطَبوا مَن قارَبَ أنْ يُصدِّقَ بنُبوَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فكيفَ تُؤمِنون بنُبوَّتِه وهو أحدٌ منكم؟! وإنكارُهم وتَعجُّبُهم مِن حيثُ كانوا يَرَون أنَّ اللهَ لا يُرسِلُ إلَّا مَلَكًا[2].

- قولُه: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ﴾ استفهامٌ معناه الإنكارُ والتَّوبيخُ، والفاءُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المَقامُ[3].

- قولُه: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ أي: تأْتونَ السِّحرَ وبصَرُكم سليمٌ، وأرادوا به العِلْمَ البَديهيَّ، فعبَّروا عنه بالبصَرِ؛ لأنَّ المُبْصَراتِ لا يَحتاجُ إدراكُها إلى تَفكيرٍ[4]. وهذه الجُملةُ حالٌ من فاعلِ (تَأْتُونَ)، مُقرِّرةٌ للإنكارِ، ومُؤكِّدةٌ للاستبعادِ[5].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- في قولِه: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ لم يقُلْ: (يَعلَمُ السِّرَّ) مُوافقةً لقولِه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾، وإنَّما أُوثِرَ القولُ المُنتظِمُ للسِّرِّ والجهْرِ على السِّرِّ؛ لإثباتِ عِلْمِه تعالى بالسِّرِّ على النَّهجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٤).

البُرهانيِّ، مع ما فيه مِن الإيذانِ بأنَّ عِلْمَه تعالى بالسِّرِّ والجهْرِ على وَتيرةٍ واحدةٍ، لا تفاوُتَ بينهما بالجَلاءِ والخفاءِ قطْعًا كما في عُلومِ الخلْقِ، ولأنَّ القولَ عامٌّ يَشمَلُ السِّرَّ والجهْرَ، فكانَ في الإخبارِ بعلمِه القولَ عِلمُ السِّرِّ وزيادةٌ، وكان آكَدَ في الاطِّلاعِ على نَجواهُم مِن أنْ يقولَ: (يعلَمُ سِرَّهم)، ثمَّ بيَّنَ ذلك بأنَّه السَّميعُ العليمُ؛ فكيف تَخفى عليه خافيةٌ؟! وقد تُرِكَ هذا الآكَدُ في سُورةِ (الفُرقانِ) في قولِه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]؛ لأنَّه ليس بواجبٍ أنْ يَجِيءَ بالآكَدِ في كلِّ مَوضِعٍ، ولكنْ يَجِيءُ بالوكيدِ تارَةً وبالآكَدِ أُخْرى، كما يَجِيءُ بالحسَنِ في مَوضعٍ وبالأحْسنِ في غيرِه؛ لِيَفْتَنَّ في الكلامِ افْتِنانًا، وتُجْمَعَ الغايةُ وما دُونَها، على أنَّ أُسلوبَ تلك الآيةِ خِلافُ أُسلوبِ هذه، مِن قِبَلِ أنَّه قدَّمَ هاهنا أنَّهم أَسَرُّوا النَّجوى، فكأنَّه أراد أنْ يقولَ: إنَّ ربِّي يَعلَمُ ما أَسَرُّوهُ، فوضَعَ القولَ مَوضِعَ ذلك للمُبالَغةِ، وهناك في (الفُرقانِ) قصَدَ وصْفَ ذاتِه بأنْ أنزَلَه الَّذي يعلَمُ السِّرَّ في السَّمواتِ والأرضِ، فهو كقولِه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾[1] [سبأ: ٣]. وقيل: لم يقُلْ: (يعلمُ السِّرَّ)؛ لمراعاةِ العِلمِ بأنَّ الذي قالوه مِن قَبيلِ السِّرِّ، وأنَّ إثباتَ عِلمِه بكلِّ قَولٍ يقتضي إثباتَ عِلمِه بالسِّرِّ وغَيرِه، بناءً على متعارَفِ النَّاسِ، وأمَّا قَولُه في سورة (الفرقان): ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] فلم يتقدَّمْ قَبلَه ذِكرٌ للإسرارِ، وكان قَولُ الذين كفروا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤] صادِرًا منهم تارةً جهرًا وتارةً سِرًّا، فأعلمهم اللهُ باطِّلاعِه على سِرِّهم، ويُعلَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥).

منه أنَّه مطَّلِعٌ على جَهرِهم بطريقةِ الفَحوى(١).

- و(أل) في ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ للاستغراقِ، أي: يَعلَمُ كلَّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ من جَهْرٍ أو سِرٍّ؛ وبذلك كان هذا تَذييلًا(٢).

- وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، مُتضمِّنٌ للوعيدِ(٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ جوابُ شَرْطٍ مَحذوفٍ، يُفصِحُ عنه السِّياقُ؛ كأنَّه قيلَ: وإنْ لم يكُنْ كما قُلْنا، بل كان رَسولًا مِنَ اللهِ تعالى، فلْيأتِنا بآيةٍ. ودخلَتْ لامُ الأمرِ على فِعْلِ الغائبِ؛ لمَعْنى إبلاغِ الأمْرِ إليه، أي: فقُولوا له: ائتِنَا بآيةٍ(٤).

- والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في مَوضعِ الحالِ من ضَميرِ ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾، أي: حالةُ كونِ هذا البشَرِ حين يأْتي بالآيةِ يُشبِهُ رِسالتُه رِسالةَ الأوَّلينَ، والمُشبَّهُ ذاتٌ والمُشبَّهُ به معنى الرِّسالةِ، وذلك واسعٌ في كَلامِ العربِ، وصِحَّةُ التشبيهِ مِن حيثُ إنَّ الإرسالَ يَتضمَّنُ الإتيانَ بالآيةِ. ويجوزُ أنْ يُحمَلَ النَّظمُ الكريمُ على أنَّه أُرِيدَ كلُّ واحدٍ من الإتيانِ والإرسالِ في كلِّ واحدٍ من طَرفَيِ التَّشبيهِ، لكنَّه تُرِكَ في جانبِ المُشبَّهِ ذِكْرُ الإرسالِ، وتُرِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥).

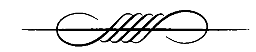
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في جانبِ المُشبَّهِ به ذِكْرُ الإتيانِ؛ اكتفاءً بما ذُكِرَ في كلِّ مَوطنٍ عمَّا تُرِكَ في الموطنِ الآخَرِ[١].

- وقيل: التعبيرُ في حقِّه بالإتيانِ، والعدولُ عن الظاهرِ فيما بعدَه إيماءٌ إلى أنَّ ما أتَى به مِن عندِه، وما أتَى به الأوَّلونَ مِن الله؛ ففيه تعريضٌ مناسبٌ لِما قبلَه مِن الافتراءِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٦/ ٢٤٢).

الآيات (٦-١٠)

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: ما آمَنَ قبلَ كُفَّارِ مكَّةَ مِن أهلِ قَريةٍ اقترَحوا على رسُلِهم الآياتِ، ثمَّ كذَّبوا بها لَما جاءتهم، فأهلَكْناهم، أفيُؤمِنُ كُفَّارُ مكَّةَ إذا تحقَّقَت المُعجِزاتُ التي طَلَبوها؟

ثمَّ أجابَ اللهُ عن استِنكارِهم أن يكونَ الرَّسولُ بَشَرًا مِثلَهم، بأنَّ هذا هو العَهدُ دائِمًا مع الرُّسُلِ السَّابِقينَ، فقال: وما أرسَلْنا قَبلَك -يا محمَّدُ- إلَّا رِجالًا مِن البشَرِ لا مِن الملائكةِ، نُوحي إليهم. فاسألوا -يا كُفَّارَ مكَّةَ- أهلَ العِلمِ بالكُتُبِ المنَزَّلةِ السَّابِقةِ، إنْ كنتُم لا تعلَمونَ ذلك.

ثمَّ أكَّد الله تعالى حقيقةَ كونِ الرُّسلِ مِن البشرِ، فقال: وما جعَلْنا أولئك المُرسَلينَ قَبلَك أجسادًا لا يأكُلونَ الطَّعامَ، وما كانوا خالدينَ لا يموتونَ! ثمَّ صَدَقْنا الأنبياءَ وأتباعَهم ما وعَدْناهم به مِن النَّصرِ والنَّجاةِ، وإهلاكِ أعدائِهم المُسرِفينَ على أنفُسِهم بالكفرِ بالله وتكذيبِ رسلِه.

ثم بيَّن الله سبحانه أنَّ ما أنزَله على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم هو خيرُ الآياتِ، فقال: لقد أنزَلْنا إليكم هذا القُرآنَ فيه تذكيرٌ لكم بما فيه صلاحُكم، وفيه عزُّكم وشَرَفُكم في الدُّنيا والآخرةِ إنْ عَمِلتُم بما فيه، أفلا تَعقِلونَ أنَّ في القُرآنِ هدايتَكم لِما فيه صلاحُكم، وأنَّ فيه شَرَفَكم وعِزَّكم فتُؤمِنوا به وتتدبَّروه؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أجاب عن قَولِ الكافرينَ: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ﴾ بِقَولِه[1]:

﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾.

أي: ما آمنَ قَبلَ كفَّارِ قُرَيشٍ أهلُ القُرى مِن الأُمَمِ الماضيةِ الذين اقترَحوا على رسُلِهم الآياتِ ثمَّ كذَّبوا بها لَمَّا جاءَتْهم، فأهلَكْنا تلك القُرى وجميعَ أهلِها، أفيُؤمِنُ كفَّارُ قُرَيشٍ إذا أتَتْهم مُعجِزةٌ ممَّا يَقترِحونَ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أجاب عن سؤالِ الكافرينَ الأوَّلِ، وهو قولُهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الأنبياء: ٣]، بقولِه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/٣٨٨، ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)). ((ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/١٧، ١٨).

فبيَّنَ أن هذه عادةُ الله تعالى في الرسُلِ مِن قَبلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يمنَعْ ذلك من كونِهم رسلًا؛ للآياتِ التي أتَوْا بها، فإذا صَحَّ ذلك فيهم، فقد أتَى محمَّدٌ بمثلِ آياتِهم، فلا مقالَ عليه في كونِه بَشَرًا[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أوَّلًا أنَّ الآياتِ تكونُ سَبَبًا للهلاكِ، فلا فائدةَ في الإجابةِ إلى ما اقترَحه الكافِرونَ منها بعد بُطلانِ ما قَدَحوا به في القُرآنِ؛ بيَّن ثانيًا بُطلانَ ما قَدَحوا به في الرَّسولِ بكَونِه بَشَرًا، بأنَّ الرُّسُلَ الذين كانوا مِن قَبلِه كانوا -بإقرارِهم- مِن جِنسِه، فما لهم أن يُنكِروا رِسالَتَه وهو مِثلُهم؟! بل عليهم أن يَعتَرِفوا له عندما أظهَرَ مِن المُعجِزِ كما اعترَفوا لأولئك[2].

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾.

أي: وما أرسَلْنا قبلك -يا محمَّدُ- من الأنبياءِ لأُمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا رِجالًا مِن البَشَرِ مِثلَهم، لا مِن الملائكةِ، فنُوحي إليهم ما نريدُ، فلماذا أنكَروا إرسالَنا لك إليهم، وأنت رجلٌ كسائِرِ الرسُلِ الذين أُرسِلوا قَبْلَك إلى أُمَمِهم[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

أي: فاسألوا أهلَ العِلمِ بالكُتُبِ المنزَّلةِ مِن قبْلُ إنْ كنتُم لا تعلمونَ أنَّ كلَّ الأنبياءِ مِنَ البَشَرِ؛ لِيُخبِروكم بما يَعلَمونَه مِن كَونِ جَميعِ الأنبياءِ بَشَرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٠،٣٨٩).

لا ملائكةً[١].

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم على سُنَّةِ مَن مضى مِنَ الرُّسُلِ في كَونِه رَجُلًا؛ بيَّن أنَّه على سُنَّتِهم في جميعِ الأوصافِ التي حكَمَ بها على البَشَرِ مِنَ العَيشِ والمَوتِ، فقال[٢]:

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾.

أي: وما جعَلْنا الأنبياءَ أجسادًا لا يأكُلونَ الطَّعامَ، بل كانوا بشرًا مِثلَك يأكلونَ الطَّعامَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ١١)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٦٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨).

قال القرطبي: (وسماهم أهلَ الذكرِ؛ لأنهم كانوا يذكُرونَ خبَرَ الأنبياء ممَّا لم تعرِفْه العرب، وكان كفَّارُ قُريش يراجِعونَ أهلَ الكتابِ في أمرِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٠، ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٤).

وقال ابن عاشور: (الجسدُ: الجسمُ الذي لا حياةَ فيه، وهو يُرادِفُ الجثةَ... وهذا ردٌّ لما يقولونَه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] مع قولِهم هنا: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩).

وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾.

أي: وما كان الأنبياءُ السَّابقونَ خالدينَ في الدُّنيا لا يموتونَ، بل كانوا بشرًا عاشُوا ثمَّ ماتوا، وإنَّما تميَّزوا عن النَّاس بما يأتيهم عن الله سُبحانَه مِن الوحيِ[1].

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ ﴾.

أي: ثمَّ صدَقْنا رسُلَنا ما وعَدْناهم من إهلاكِ أعدائِهم الكافرينَ المكذِّبينَ، ونَصْرِهم عليهم، فأنجَينا أولئك الرسُلَ وأتباعَهم الذين آمَنوا بهم مِن أممِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾.

أي: وأهلَكْنا جميعَ الذين أسرَفوا على أنفُسِهم بالكُفرِ باللهِ، والإصرارِ على تكذيبِ رُسُلِ الله، فأبَدْناهم، ومحَوْنا ذِكْرَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٧).=

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن حَقَّق اللهُ رسالتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببَيانِ أنَّه كسائِرِ الرُّسُلِ الكِرامِ، شَرَع يحَقِّقُ فَضلَ القُرآنِ الكريمِ ويُبَيِّنُ نَفْعَه للنَّاسِ، بعد أن ذَكَر في صَدرِ السُّورةِ إعراضَ النَّاسِ عمَّا يأتيهم مِن آياتِه، واضطرابَهم في شأنِه[1].

وأيضًا لَمَّا تَوَعَّدَهم في الآيةِ السابقةِ؛ أعقبَ ذلك بوعدِه بنعمتِه عليهم، فقالَ[2]:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.

أي: لقد أنزَلْنا إليكم قرآنًا فيه تذكيرٌ لكم بما فيه صلاحُكم، وفيه شَرَفُكم وعِزُّكم[3].

= قال ابن عطية: (المُسرِفونَ: الكُفَّارُ المُفرِطونَ في غَيِّهم وكُفرِهم، وكُلُّ مَن ترك الإيمانَ: مُفْرِطٌ مُسرِفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢، ٢٣).

وممن اختار أنَّ الذِّكرَ هنا بمعنى الشَّرَف: ابنُ جرير، والسمرقندي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن اختاره أيضًا: مقاتل بن سليمان، ويحيى بن سلام، والفراء، وابن قتيبة، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن جزي، والخازن، والثعالبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٠١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٠٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن جزي)) =

= (٢/ ١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٢).

ونَسَبه الرسعني للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٩٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٦).

قال السعدي: (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفُكم وفخرُكم وارتفاعُكم، إن تذكَّرْتُم به ما فيه مِن الأخبارِ الصادقةِ فاعتقدتموها، وامتثَلْتُم ما فيه مِن الأوامرِ، واجتَنَبْتُم ما فيه مِن النواهي، ارتفَع قدرُكم، وعظُم أمرُكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٢).

وقال ابن عاشور: (ومجيئُه بِلُغَتِهم، وفي قومِهم، وبواسِطةِ واحِدٍ منهم، سُمْعَةٌ عظيمةٌ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢).

وقيل: المرادُ: فيه تذْكِرةٌ لكم بما تلقونَه مِن رحمةٍ أو عذابٍ. قاله الزجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٨٥).

قال أبو السعود بعد أن ذكَر القولَ بأنَّ ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ معناه: موعظتُكم: (وهو الأنسبُ بسباقِ النظمِ الكريمِ وسياقِه؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنكارٌ توبيخيٌّ فيه بعثٌ لهم على التدبرِ في أمرِ الكتابِ، والتأمُّلِ فيما في تضاعيفِه مِن فنونِ المواعظِ والزواجرِ التي مِن جملتِها القوارعُ السابقةُ واللاحقةُ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّ الذِّكرَ يُطلَقُ على التَّذكيرِ بما فيه الصَّلاحُ، ويُطلقُ على السُّمعةِ والصِّيتِ. وأنَّه يصِحُّ هنا قَصدُ هذين المَعنيَينِ معًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢، ٢٣).

وقال العُليمي: (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: شرفُكم وما تحتاجونَ إليه مِن مصالحِ دينِكم ودنياكم). ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٤٤).

وقال البقاعي: (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ طَوالَ الدَّهرِ بالخَيرِ إن أطعتُمْ، والشَّرِّ إن عصَيتُم، وبه شَرَفُكم على سائِرِ الأُمَمِ بشَرَفِ ما فيه مِن مكارِمِ الأخلاقِ التي كنتم تتفاخَرونَ بها، وبشَرَفِ نبيِّكم الذي تقولونَ عليه الأباطيلَ، وتُكثِرونَ فيه القالَ والقِيلَ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٩٣).

وقال الرازي: (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ: أحدُها: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ شَرَفُكم وصِيتُكم... وثانيها: المرادُ: فيه تذكرةٌ لكم؛ لتَحْذَروا ما لا يَحِلُّ، وتَرغبوا فيما يجبُ، ويكونُ المرادُ بالذِّكرِ الوعدَ والوعيدَ... وثالثُها: المرادُ: ذكرُ دينِكم، ما يلزمُ وما لا يلزمُ؛ لتَفوزوا بالجنَّةِ إذا تَمَسَّكْتُم به. وكلُّ ذلك مُحتملٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٣). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٥)، =

كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٌ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

أي: أفلا تَعقِلونَ أنَّ في القُرآنِ شَرَفَكم، وهدايتَكم إلى ما فيه صلاحُكم، فتُؤمِنوا به، وتتدبَّروه وتَعمَلوا بما فيه[١]؟

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ عامٌّ في كلِّ مَسألةٍ مِن مَسائِلِ الدِّينِ -أصولِه وفُروعِه- إذا لم يكُنْ عندَ الإنسانِ عِلمٌ منها أن يسألَ مَن يَعلَمُها؛ ففيه الأمرُ بالتعَلُّمِ والسؤالِ لأهلِ العِلمِ، ولم يؤمَرْ بسُؤالِهم إلَّا لأنَّه يجِبُ عليهم التعليمُ والإجابةُ عمَّا عَلِموه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ في تخصيصِ السُّؤالِ بأهلِ الذِّكرِ والعِلمِ نَهيٌ عن سؤالِ المعروفِ بالجَهلِ وعَدَمِ العلمِ، ونهيٌ له أن يتصَدَّى لذلك[٣].

= ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٣٩).

قال القرطبي: (المرادُ بالذِّكرِ هنا: الشَّرَفُ، أَي: فِيهِ شرفُكم؛ مثل: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٌ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]... وقالَ مجاهدٌ: ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ أي: حديثُكم. وقِيل: مكارِمُ أخلاقِكم، ومحاسِنُ أعمالِكم. وقال سهلُ بنُ عبدِ اللهِ: العملُ بما فيه حياتُكم. قُلْتُ: وهذه الأقوالُ بمعنًى، والأوَّلُ يَعُمُّها؛ إذْ هي شَرَفٌ كلُّها، والكتابُ شرفٌ لنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه معجزتُه، وهو شَرَفٌ لنا إنْ عمِلْنا بما فيه). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسر السعدي)) (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الآيةُ مِصداقُها ما وقع للمُؤمِنينَ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فالذين تذَكَّروا بالقُرآنِ مِن الصَّحابةِ فمَن بَعدَهم حصل لهم مِن الرِّفعةِ والعُلُوِّ الباهِرِ، والصِّيتِ العَظيمِ، والشَّرَفِ على الملوكِ- ما هو أمرٌ معلومٌ لكلِّ أحَدٍ، كما أنَّه معلومٌ ما حصل لِمَن لم يرفَعْ بهذا القرآنِ رأسًا، ولم يهتدِ به ويتزكَّ به، مِن المقتِ والضَّعَةِ، والتَّدسِيةِ والشَّقاوة؛ فلا سبيلَ إلى سَعادةِ الدُّنيا والآخرةِ إلَّا بالتذَكُّرِ بهذا الكِتابِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إنَّما أمسَكَ اللهُ الآياتِ الخوارِقَ عن مُشرِكي مكَّةَ؛ لأنَّه أراد استبقاءَهم؛ ليكونَ منهم مؤمِنونَ، وتكونَ ذرِّيَّاتُهم حملةَ هذا الدِّينِ في العالَمِ، ولو أُرسِلَت عليهم الآياتُ البَيِّنةُ لكانت سُنَّةُ الله أن يَعقُبَها عذابُ الاستئصالِ للَّذينَ لا يُؤمِنونَ بها[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ النِّساءَ ليس منهنَّ نبيَّةٌ، لا مريمَ ولا غيرَها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حجَّةٌ في تثبيتِ خَبَرِ الواحِدِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن المسؤولينَ مُخْبِرٌ عن ذلك على الانفرادِ، والحجَّةُ لازمةٌ على المُخْبَرِ بقَولِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسر السعدي)) (ص:٥١٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٠٦).

٤- ما يُطلَبُ فيه الجَزمُ يُكتَفَى فيه بالجَزمِ، سواءٌ عن طريقِ الدَّليلِ أو عن طريقِ التَّقليدِ؛ فالإيمانُ باللهِ ومَلائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، هذا ممَّا يجِبُ فيه الجَزمُ، ولكِنَّ العامِّيَّ لا يُدرِكُ ذلك بدَليلِه، ومع ذلك نُصَحِّحُ إيمانَه، ونقولُ: إنَّه مُؤمِنٌ، وإن كان لا يُدرِكُ ذلك بدَليلِه، والدَّليلُ قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ فإنَّ اللهَ تعالى أحال على سُؤالِ أهلِ العِلْمِ في مسألةٍ مِن مسائِلِ الدِّينِ التي يجبُ فيها الجَزمُ، وواضِحٌ أنَّنا نسألُهم لنأخُذَ بقَولِهم، ومعلومٌ أنَّ الإيمانَ بأنَّ الرسُلَ رِجالٌ هو مِن العَقيدةِ، ومعَ ذلك أحالَنا اللهُ فيه إلى أهلِ العِلْمِ[1]، ولأنَّ العامِّيَّ لا يتمَكَّنُ مِن مَعرفةِ الحَقِّ بأدلَّتِه، فإذا تعذَّرَ عليه مَعرِفةُ الحَقِّ بنَفْسِه، لم يبقَ إلَّا التقليدُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[2] [التغابن: ١٦].

٥- قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ فأُمِروا أن يَسْألوا أهلَ الكتابِ؛ إمَّا للإلْزامِ؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانوا يُشاوِرونَهم في أمْرِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويَثِقونَ بقولِهم، أو لأنَّ إخبارَ الجَمِّ الغفيرِ يُوجِبُ العِلْمَ، وإنْ كانوا كُفَّارًا؛ ففيه مِنَ الدَّلالةِ على كَمالِ وُضوحِ الأمْرِ، وقُوَّةِ شأْنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما لا يَخْفَى[3].

٦- لله تعالى حِكَمٌ في إبقاءِ أهلِ الكِتابَينِ بينَ أظهُرِنا؛ فإنَّهم مع كُفرِهم شاهِدونَ بأصلِ النبُوَّاتِ، والتوحيدِ، واليومِ الآخِرِ، والجنَّةِ والنَّارِ، وفي كُتُبِهم من البِشاراتِ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وذِكرِ نُعوتِه وصفاتِه وصفاتِ أُمَّتِه-

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

ما هو مِن آياتِ نبُوَّتِه وبراهينِ رِسالتِه، وما يشهَدُ بصِدقِ الأوَّلِ والآخِرِ، وهذه الحِكمةُ تختَصُّ بأهلِ الكِتابِ دونَ عَبَدةِ الأوثانِ؛ فبقاؤُهم مِن أقوى الحُجَجِ على مُنكِرِ النبُوَّاتِ والمعادِ والتوحيدِ، وقد قال تعالى لمنكري ذلك: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ذكَرَ هذا عَقِبَ قَولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: سلُوا أهلَ الكِتابِ: هل أرسَلْنا قبل محمَّدٍ رِجالًا يُوحَى إليهم، أمْ كان محمَّدٌ بِدْعًا من الرسُلِ لم يتقَدَّمْه رسولٌ، حتى يكون إرسالُه أمرًا مُنكَرًا لم يَطرُقِ العالَمَ رَسولٌ قبلَه[1]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذه الآيةُ ترشِدُنا إلى أن نَرجِعَ في كلِّ شَيءٍ إلى أهلِه الذين هم أهلُ الذِّكْرِ به[2].

٨- التقليدُ لا يُذَمُّ مُطلقًا، بل إنَّ التقليدَ في مَوضِعِه هو الواجبُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

٩- الاجتهادُ واجبٌ على مَن كان قادرًا عليه؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، والقادِرُ على الاجتهادِ يُمكِنُه مَعرِفةُ الحَقِّ بنَفسِه[4].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ هذه سيرتُه تعالى مع أنبيائِه، فكذلك يَصدُقُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه ما وعَدَهم به من

---

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٤٢٦).

النَّصرِ وظُهورِ الكَلِمةِ؛ فهذه عِدَةٌ للمُؤمِنينَ، ووعيدٌ للكافرينَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ كَلامٌ مُستأنفٌ مَسوقٌ لتَكذيبِهم فيما تُنْبِئُ عنه خاتِمةُ مقالِهم مِن الوعْدِ الضِّمنيِّ بالإيمانِ، وبَيانِ أنَّهم في اقتِراحِ تلك الآياتِ كالباحثِ عن حَتْفِه بظِلْفِه[٢]، وأنَّ في تَرْكِ الإجابةِ إليه إبقاءً عليهم. ومُتعلَّقُ ﴿ءَامَنَتْ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه السِّياقُ، أي: ما آمنَتْ بالآياتِ قَرْيةٌ. و(مِن) في قولِه: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ مَزيدةٌ؛ لتأْكيدِ العُمومِ، ولتأْكيدِ النَّفيِ المُستفادِ مِن حرْفِ (ما) في ﴿ مَآ ءَامَنَتْ ﴾[٣].

- ولفظةُ: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ وردَتْ مُستطردةً؛ للتَّعريضِ بالوعيدِ بأنَّ المُشرِكينَ أيضًا يترقَّبونَ الإهلاكَ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث ذُكِرَتِ القريةُ هنا مُرادًا بها أهْلُها؛ ليُبْنَى عليها الوصْفُ بإهلاكِها؛ لأنَّ الإهلاكَ أصاب أهْلَ القُرى وقُراهم؛ فلذلك قيلَ: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ دون (أهْلَكْناهم) كما في قولِه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾[٥] [الكهف: ٥٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١١).

(٢) أي: السَّاعي إلى مَوتِه بقَدَمِه. وهو مَثَلٌ يُضرَبُ في طَلَبِ الشَّيءِ يُؤدِّي صاحِبَه إلى تَلَفِ نَفْسِه. والظِّلْفُ: للبَقَرةِ والشَّاةِ والظَّبيِ وشِبهِها بمنزلةِ القَدَمِ لنا، وهو مُستعارٌ هنا للإنسان. يُنظر: ((الأمثال)) للهاشمي (١/ ١٩٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٨).

- والهمزةُ في قولِه: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لإنكارِ الوُقوعِ، والفاءُ للعطْفِ: إمَّا على مُقدَّرٍ دخلَتْه الهمزةُ؛ فأفادَتْ إنكارَ وُقوعِ إيمانِهم ونَفْيَه عَقِيبَ عدَمِ إيمانِ الأوَّلينَ، أي: إنَّه لم تُؤْمِنْ أُمَّةٌ مِن الأُمَمِ المُهلَكةِ عندَ إعطاءِ ما اقترَحوهُ مِن الآياتِ؛ أفهؤلاءِ يُؤمِنونَ لو أُجِيبُوا إلى ما سَألوا، وأُعْطوا ما اقترَحوا، مع كونِهم أعْتى منهم وأطْغَى؟! وإمَّا على ﴿مَآ ءَامَنَتْ﴾ على أنَّ الفاءَ مُتقدِّمةٌ على الهمزةِ في الاعتبارِ، مُفيدةٌ لتَرتيبِ إنكارِ وُقوعِ إيمانِهم على عدَمِ إيمانِ الأوَّلينَ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ...﴾ جَوابٌ لقولِهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، مُتضمِّنٌ لردِّ ما دَسُّوا تحتَ قولِهم: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ مِن التَّعرُّضِ بعدَمِ كونِه عليه السَّلامُ مثْلَ أولئك الرُّسلِ صَلواتُ اللهِ تعالَى عليهم أجمعينَ؛ ولذلك قُدِّمَ عليه جَوابُ قولِهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾، ولأنَّهم قالوا ذلك بطَريقِ التَّعجيزِ؛ فلا بُدَّ من المُسارَعةِ إلى رَدِّهِ وإبطالِه، ولأنَّ في هذا الجوابِ نَوعَ بسْطٍ يُخِلُّ تَقديمُه بتَجاوُبِ أطْرافِ النَّظْمِ الكريمِ[2].

- قولُه: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكَيفيَّةِ الإرسالِ، وصِيغةُ المُضارِعِ لِحكايةِ الحالِ الماضيةِ المُستمِرَّةِ، وحُذِفَ المفعولُ؛ لعدَمِ القصْدِ إلى خُصوصِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٦).

- قولُه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بينَ الجُمَلِ المُتعاطِفَةِ. وتَوجيهُ الخِطابِ لهم بعْدَ أُسلوبِ الغَيبةِ الْتِفاتٌ، ونُكتَتُه: أنَّ الكلامَ لمَّا كان في بَيانِ الحقائقِ الواقعةِ؛ أعرَضَ عنهم في تَقريرِه، وجُعِلَ مِن الكلامِ المُوجَّهِ إلى كلِّ سامعٍ، وجُعِلوا فيه مُعبَّرًا عنهم بضَمائرِ الغَيبةِ، ولمَّا أُرِيدَ تَجْهيلُهم وإلْجاؤُهم إلى الحُجَّةِ عليهم غُيِّرَ الكلامُ إلى الخِطابِ؛ تَسجيلًا عليهم، وتَقريعًا لهم بتَجهيلِهم[1]؛ ففي قولِه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تلْوينٌ للخِطابِ وتَوجيهٌ له إلى الكَفرةِ؛ لتَبكيتِهم واستِنْزالِهم عن رُتْبةِ الاستبعادِ والنَّكيرِ إثْرَ تَحقيقِ الحقِّ على طَريقةِ الخِطابِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه الحَقيقُ بالخطابِ في أمْثالِ تلك الحقائقِ الأنيقةِ، والفاءُ في ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها[2].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ؛ ثِقةً بدَلالةِ المذكورِ عليهِ، أي: إنْ كُنتُم لا تَعلَمونَ ما ذُكِرَ، فاسْألوا -أيُّها الجَهلةُ- أهلَ الكتابِ الواقفينَ على أحوالِ الرُّسلِ السَّالفةِ عليهم الصَّلواتُ؛ لِتَزولَ شُبْهتُكم[3].

- وأمْرُهم أنْ يَسْألوا أهْلَ الذِّكْرِ فيه تَعريضٌ بجَهْلِهم، وفضْحُ خَطَئِهم[4].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾

- في قولِه: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ وحَّدَ الجسَدَ؛ لإرادةِ الجنْسِ. وقيل: بتَقديرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨).

المُضافِ، أي: ذَوِي جسَدٍ[1]، وذِكْرُه يُفِيدُ التَّهكُّمَ بالمُشرِكينَ؛ لأنَّهم لمَّا قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧]، وسألوا أنْ يأتِيَ بما أُرْسِلَ به الأوَّلونَ، كان مُقْتضَى أقوالِهم أنَّ الرُّسلَ الأوَّلينَ كانوا في صُوَرِ الآدميِّينَ، لكنَّهم لا يأْكُلون الطَّعامَ -وأكْلُ الطَّعامِ مِن لَوازمِ الحياةِ- فلَزِمَهم لمَّا قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ أنْ يَكونوا قائلينَ بأنَّ شأْنَ الرُّسلِ أنْ يكونوا أجسادًا بلا أرواحٍ، وهذا من السَّخافةِ بمَكانةٍ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ تأكيدٌ وتَقريرٌ لِمَا قبْلَه؛ فإنَّ التَّعيُّشَ بالطَّعامِ مِن تَوابعِ التَّحليلِ المُؤدِّي إلى الفَناءِ[3]، وهو زِيادةُ استدلالٍ لتَحقيقِ بشَرِيَّتِهم؛ استدلالًا بما هو واقِعٌ مِن عدَمِ كَفاءةِ أولئك الرُّسلِ كما هو معلومٌ بالمُشاهَدةِ لقطْعِ مَعاذيرِ الضَّالِّينَ، فإنْ زَعَموا أنْ قد كان الرُّسلُ الأوَّلونَ مُخالِفينَ للبشَرِ؛ فماذا يَصْنعون في لَحاقِ الفَناءِ إيَّاهم؟ فهذا وجْهُ زِيادةِ ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾[4].

- وأُتِيَ في نفْيِ الخُلودِ عنهم بصِيغَةِ (ما كانوا)؛ تَحقيقًا لِتَمكُّنِ عدَمِ الخُلودِ منهم[5]. وفي إيثارِ(مَا كَانُوا) على (ما جَعَلْناهم) تَنبيهٌ على أنَّ عدَمَ الخُلودِ مُقْتضى جِبلَّتِهم الَّتي أُشِيرَ إليها بقولِه تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ ...﴾، لا بالجَعْلِ المُستأنَفِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

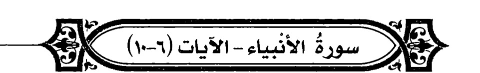
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور))، (١٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩، ٢٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).



٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ الكلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّنويهِ بالرُّسلِ الأوَّلينَ، وهو تَعريضٌ بوَعيدِ الَّذين قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، وفي هذا تَقريعٌ للمُشرِكينَ، أي: إنْ كان أعجَبَكم ما أتَى به الأوَّلونَ، فسألْتُم مِن رَسولِكم مثْلَه، فإنَّ حالَكم كحالِ الَّذين أُرْسِلوا إليهم، فترَقَّبوا مثْلَ ما نزَلَ بهم، ويترقَّبُ رسولُكم مثْلَ ما لقِيَ سلَفُه[1].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ...﴾ عطْفٌ على ما يُفْهَمُ من حِكايةِ وَحْيِه تعالى إليهم على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ؛ كأنَّه قيل: أوحَيْنا إليهم ما أوحَيْنا، ثمَّ صَدَقْناهم في الوعْدِ الَّذي وعَدْناهم في تَضاعيفِ الوحْيِ بإهلاكِ أعدائِهم[2]. أو مَعطوفةٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ، و(ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ، والمعنى: وأهَمُّ ممَّا ذُكِرَ أنَّا صَدَقْناهم الوعْدَ، فأنْجَيناهم وأهلَكْنا الَّذين كذَّبُوهم. ومَضمونُ هذا أهَمُّ في الغرضينِ: التَّبشيرِ والإنذارِ؛ فالتَّبشيرُ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ بأنَّ اللهَ صادِقُه وعْدَه من النَّصرِ، والإنذارُ لمَن ماثَلَ أقوامَ الرُّسلِ الأوَّلينَ[3]. وقيل: أشارَ بأداةِ التَّراخِي (ثُمَّ) إلى أنَّهم طالَ بلاؤُهم بهم، وصبرُهم عليهم، ثم أحلَّ بهم سطوتَه، وأراهم عظَمتَه[4].

- والإتيانُ بصِيغةِ المُستقبَلِ في قولِه: ﴿نَّشَاءُ﴾ احتباكٌ[5]، والتَّقديرُ: فأنْجَيْناهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٩٨).

(٥) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).



ومَن شِئْنَا، ونُنَجِّي رَسولَنا ومَن نشاءُ منكم، وهو تأميلٌ لهم أنْ يُؤْمِنوا؛ لأنَّ مِن المُكذِّبينَ يومَ نُزولِ هذه الآيةِ مَن آمَنوا فيما بعْدُ إلى يومِ فتْحِ مكَّةَ. وهذا من لُطْفِ اللهِ بعِبادِه في تَرغيبِهم في الإيمانِ، ولم يَقُلْ: (ونُهْلِكُ المُسرِفينَ)، بل عاد إلى صِيغَةِ المُضِيِّ الَّذي هو حِكايةٌ لِما حَلَّ بالأُمَمِ السَّالفةِ، وبقِيَ المقصودُ مِن ذِكْرِ الَّذين أُهْلِكوا، وهو التَّعريضُ بالتَّهديدِ والتَّحذيرِ أنْ يُصِيبَهم مِثْلُ ما أصابَ أولئك مع عدَمِ التَّصريحِ بالوعيدِ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَحقيقِ حَقِّيَّةِ القُرآنِ العظيمِ، وبَيانِ عُلوِّ رُتْبتِه، إثْرَ تَحقيقِ رِسالتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقد صُدِّرَ بالتَّوكيدِ القسَميِّ؛ إظهارًا لمَزيدِ الاعتناءِ بمَضمونِه، وإيذانًا بكونِ المُخاطَبينَ في أقْصَى مَراتبِ النَّكيرِ[٢]. وقيل: استئنافُ جَوابٍ عن قولِهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، بإيقاظِهم إلى أنَّ الآيةَ الَّتي جاءتْهم هي أعْظَمُ مِن الآياتِ الَّتي أُرْسِلَ بها الأوَّلونَ، وتجْهيلًا لألْبابِهم، ولقصْدِ هذا الإيقاظِ صُدِّرتِ الجُملةُ بما يُفِيدُ التَّحقيقَ من لامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ ﴿لَقَدْ﴾، وجَعْلِ إنزالِ الكتابِ إليهم، كما اقتضَتْه تَعْديةُ فِعْلِ ﴿أَنزَلْنَآ﴾ بحرْفِ (إلى) شأْنَ تَعديةِ فِعْلِ الإنزالِ أنْ يكونَ المجرورُ بـ (إلى) هو المُنزَّلُ إليه؛ فجَعْلُ الإنزالِ إليهم؛ لكونِهم بمَنزلةِ مَن أُنْزِلَ إليه؛ نظَرًا إلى أنَّ الإنزالَ كان لأجْلِهم ودَعوتِهم، وذلك أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: (لقد أنزَلْنا لكم)[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١، ٢٢).

- وقولُه: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ فيه تَحريضٌ، ثمَّ أكَّدَ التَّحريضَ بقولِه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، وحرَّكَهم بذلك إلى النَّظرِ[1].

- ونكَّرَ ﴿كِتَٰبٗا﴾ للتَّعظيمِ؛ إيماءً إلى أنَّه جمَعَ خَصلتينِ عَظيمتينِ: كونَه كِتابَ هُدًى، وكونَه آيةً ومُعجزةً للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لا يَستطيعُ أحَدٌ أنْ يأتِيَ بمثْلِه أو مُدانِيه[2].

- وجُملةُ: ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ صِفَةٌ لـ ﴿كِتَٰبٗا﴾ مُؤكِّدةٌ لِما أفادَهُ التَّنكيرُ التَّفخيميُّ من كونِه جليلَ المِقدارِ، بأنَّه جَميلُ الآثارِ، مُستجلِبٌ لهم منافعَ جليلةً، أي: فيه شرَفُكم وَصِيتُكم[3].

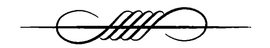
- وقولُه: ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ الذِّكْرُ يُطْلَقُ على التَّذكيرِ بما فيه الصَّلاحُ، ويُطْلَقُ على السُّمعةِ والصِّيتِ. وقد أُوثِرَ هذا المصدَرُ هنا، وجُعِلَ مُعرَّفًا بالإضافةِ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ؛ ليكونَ كَلامًا مُوجَّهًا، فيَصِحَّ قصْدُ المَعنيينِ معًا من كَلمةِ (الذِّكْرِ) بأنَّ مَجِيءَ القُرآنِ مُشتمِلًا على أعظَمِ الهُدى؛ هو تَذكيرٌ لهم بما به نِهايةُ إصلاحِهم، ومَجيئُه بلُغَتِهم، وفي قومِهم، وبواسطةِ واحدٍ منهم؛ سُمْعةٌ عظيمةٌ لهم، وعلى المعنيينِ يكونُ لتَفريعِ قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أحسَنُ مَوقعٍ؛ لأنَّ الاستفهامَ الإنكاريَّ لنفْيِ عَقْلِهم مُتَّجِهٌ على كِلا المعنيينِ؛ فإنَّ مَن جاءَهُ ما به هدْيُه، فلم يَهتَدِ، يُنْكَرُ عليه سُوءُ عقْلِه، ومَن جاءَهُ ما به مَجْدُه وسُمْعَتُه، فلم يَعبَأْ به، يُنْكَرُ عليه سُوءُ قَدْرِه للأمورِ حَقَّ قدْرِها، كما يكونُ الفضْلُ في مثْلِه مُضاعَفًا. وأيضًا فهو مُتفرِّعٌ على الإقناعِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

بإنزالِ القُرآنِ آيةً تفوقُ الآياتِ الَّتي سَأَلوا مثْلَها، وهو المُفادُ من الاستئنافِ، ومِن تأْكيدِ الجُملةِ بالقسَمِ وحرْفِ التحقيقِ (قد)[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢).

الآيات (١١-١٨)

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَصَمْنَا﴾: أي: أهلَكْنا وكَسرْنا، وأصلُ القَصْمِ: الكَسرُ[١].

﴿يَرْكُضُونَ﴾: أي: يَفِرُّونَ، ويَهرُبونَ مُسرِعينَ، وأصلُ (ركض): يدُلُّ على تَحريكِ الرِّجلَينِ[٢].

﴿مَآ أُتْرِفْتُمْ﴾: أي: نُعِّمْتُم وبَقيتُم في المُلكِ، وأصلُ (ترف): يدلُّ على توسُّعٍ في النِّعمةِ[٣].

﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: الويلُ: الهلاكُ والعذابُ، ويُطلَقُ كذلك على حُلولِ الشرِّ، وقد يُستعمَلُ في التَّحسُّرِ. وقيلَ: الوَيلُ: وادٍ في جَهَنَّمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، =

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾: أي: دُعاؤُهم، وقولُهم، وكلامُهم؛ فالدَّعوى تُطلَقُ على: الادِّعاءِ والدُّعاءِ والقَولِ كذلِك، وأصلُ (دعو): أنْ يُمِيلَ الشَّخصُ الشَّيءَ إليه بصَوتٍ وكَلامٍ يكونُ منه[1].

﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾: أي: هالكينَ لم تبقَ منهم بقيَّةٌ، وأصلُ (حصد): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيءِ، وأصلُ (خمد): يَدُلُّ على سُكونِ الحركةِ[2].

﴿لَّدُنَّآ﴾: أي: عندِنا، وقيل: (لَدُنْ) أخصُّ مِن (عند) وأبلغُ[3].

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾: أي: يُذهِبُه، ويُبطِلُه، وأصلُ هذا إصابةُ الرأسِ والدِّماغِ بالضَّربِ، وهو مَقتَلٌ[4].

= ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٤).

قال الراغب: (ومَن قال: «ويلٌ»: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويلًا» في اللغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد مَن قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مقرًّا مِن النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٧، ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١، ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦).

﴿زَاهِقٌ﴾: أي: زائلٌ، ذاهِبٌ، هَالِكٌ، وأصلُ (زهق): يدُلُّ على مُضِيٍّ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وكثيرٌ من القرَى كان أهلُها ظالِمينَ لكُفرِهم باللهِ وبما جاءَتْهم به رسُلُهم، فأهلَكْناهم، وأوجَدْنا بَعدَهم قومًا آخرينَ سِواهم، فلمَّا رأى هؤلاء الظَّالِمونَ عَذابَنا نازِلًا بهم، وشاهَدوا بوادِرَه؛ إذا هم يُسرِعونَ هاربينَ مِن قَريتِهم. فنُودوا في هذه الحالِ: لا تَهرَبوا وارجِعوا إلى النِّعَمِ التي كُنتم فيها ومَساكِنِكم المشيَّدةِ؛ لعلَّكم تُسألونَ. فقالوا مُعترِفين بجُرمِهم: يا وَيْلَنا! إنَّا ظَلَمْنا أنفُسَنا بكُفرِنا بالله، وتكذيبِنا رُسُلَه. فما زالت تلك المقالةُ -وهي الدُّعاءُ على أنفُسِهم بالويلِ والهلاكِ، والاعترافُ بالظُّلمِ- دَعوَتَهم يرَدِّدونَها حين نزلَ بهم العذابُ، حتى جَعَلْناهم موتى كالزَّرعِ المحصودِ، خامِدينَ لا حياةَ فيهم؛ فاحذَروا -أيُّها المُخاطَبونَ- أن تستَمِرُّوا على تكذيبِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَحِلَّ بكم ما حَلَّ بالأُمَمِ قَبْلَكم!

ثمَّ ذكَر الله سبحانَه ما يدُلُّ على قدرتِه ووحدانيَّتِه، فقال: وما خلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بينهما عَبَثًا وباطِلًا، بل لإقامةِ الحُجَّةِ عليكم، ولِتَعتَبِروا بذلك كُلِّه، فتَعلَموا أنَّ الذي خلَقَ ذلك لا تَصلُحُ العبادةُ إلَّا له.

لو أرَدْنا -على سبيلِ الفرضِ المحالِ- أن نتَّخِذَ زوجةً وولدًا، لاتَّخَذْناه مِن عِندِنا لا مِن عِندِكم، إنْ كُنَّا فاعلينَ ذلك، ولكِنْ لا يليقُ بنا فِعلُه ولا ينبغي.

بل نُلقي بحُجَجِ القرآنِ على الباطِلِ، فيَدحَضُه فإذا هو ذاهِبٌ مُضمَحِلٌّ. ولكم العذابُ والهَلاكُ -أيُّها المُشرِكونَ- بسببِ كذبِكم وافترائِكم على الله تعالى.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا رَدَّ اللَّهُ تعالَى عليهم ما قالوه؛ بالَغ تعالى في زَجْرِهم بذِكرِ ما أهلَك مِن القُرَى[1]، فقال:

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن القُرى الماضيةِ أهلَكْناها وأهلَها المُشرِكينَ؛ لكُفرِهم باللهِ، وتكذيبِهم رُسُلَه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا * فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾.

أي: وأوجَدْنا بعدَ إهلاكِهم أُمَّةً أُخرَى سِواهم[3].

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٧، ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥).

أي: فلمَّا رأى هؤلاءِ الظَّالِمونَ عَذابَنا نازِلًا بهم ووجَدوا مسَّه، إذا هم يَهرُبونَ مِن قَريتِهم مُسرعينَ(١).

﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ١٣﴾.

أي: لا تَرْكُضوا هاربينَ مِن العذابِ، وارجِعوا إلى النِّعَمِ التي كُنتم فيها وبُيوتِكم التي سَكَنْتُم فيها؛ لعلَّكم تُسألُونَ(٢).

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٤، ٣٩٥).

قال البقاعي: (﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أي: أدرك أهلُها بحواسِّهم). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥).

قال أبو السعود: (قيل لهم بلِسانِ الحال أو بلِسانِ المقالِ مِن الملَكِ أو ممَّن ثمَّةَ من المؤمنينَ بطريق الاستهزاءِ والتوبيخِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

وفي معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أقوالٌ:

فقيل: المعنى: لعلَّكم تُسألونَ شَيئًا من دنياكم؛ استهزاءً بهم. وممن قال بهذا المعنى: يحيى بنُ سلَّامٍ، والواحدي، والسمعاني، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والخازنُ، والعليمي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٠١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٤٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٦).

وقيل: المعنى: لعلَّكم تُسألون عمَّا كنتم فيه مِن أداءِ شُكرِ النِّعمةِ. وممن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥).

وقيل: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: تُقصَدونَ للسُّؤالِ والتشاوُرِ والتدبير في المهمَّات، وهذا على طريقةِ التهكُّم بهم والتوبيخِ لهم. وممن قال بذلك: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٣).

أي: قال أولئك الكفَّارُ حينَ نزَل بهم العَذابُ مُعترِفينَ بذُنوبِهم نادِمينَ: يا وَيْلَنا! إنَّا كنَّا ظالمينَ لأنفُسِنا بكُفرِنا بالله، وتكذيبِنا رُسُلَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤، ٥].

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: فما زال الكفَّارُ حينَ نزَل بهم العذابُ يُكَرِّرونَ قولَهم: يا وَيلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمينَ، حتى أهلَكْناهم واستَأصَلْناهم، فجَعَلْناهم موتَى كالزَّرعِ الذي استُؤصِلَ، قد خَمَدت منهم الحَرَكاتُ، وسَكَنَت منهم الأصواتُ كما تُخمَدُ النَّارُ فتُطفَأُ؛ فاحذَروا -أيُّها المُخاطَبونَ- أن تَستَمِرُّوا على تكذيبِ رَسولِكم فيَحِلَّ بكم مِثلُ ما حلَّ بأولئك القَومِ[2].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

في تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قبلَها وجهان:

الأولُ: أنه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى إهلاكَ أهلِ القَريةِ لأجْلِ تكذيبِهم؛ أتبَعَه بما يدُلُّ على أنَّه فَعَل ذلك عَدلًا منه، ومجازاةً على ما فَعَلوا.

الثاني: أنَّ الغَرَضَ منه تقريرُ نبُوَّةِ محمَّدٍ صَلَّى الله عليه وسلم، والردُّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨).

مُنكِريه؛ لأنَّه أظهَرَ المُعجِزةَ عليه، فإنْ كان محمَّدٌ كاذِبًا كان إظهارُ المعجزةِ عليه مِن بابِ اللَّعِبِ، وذلك منفيٌّ عنه، وإنْ كان صادِقًا فهو المطلوبُ، وحينئذ يفسُدُ كُلُّ ما ذَكَروه مِن المطاعِنِ(١).

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: وما خلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بينَهما مِن المخلوقاتِ عَبَثًا وباطِلًا، بل خلَقْناها ليتفَكَّرَ النَّاسُ فيها، فيَستَدِلُّوا بها على عَظيمِ صِفاتِ خالِقِها، واستِحقاقِه للعبادةِ، فيَعلَموا أنَّ الذي دبَّرَها وخَلَقَها لا يُشبِهُه شَيءٌ، وأنَّه لا تكونُ الألوهيَّةُ إلَّا له، ولا تصلُحُ العبادةُ لِشَيءٍ سِواه، وأنَّ القادِرَ على خَلقِها مع سَعَتِها وعِظَمِها قادِرٌ على إعادةِ الأجسادِ بعدَ مَوتِها؛ ليجازيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨- ٣٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٤، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا نفَى عن نَفْسِه اللَّعِبَ؛ أتبَعَه دَليلَه، فقال تعالى[1]:

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾.

أي: لو أرَدْنا -على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ المُحالِ- أن نتَّخِذَ زوجةً وولدًا، لاتَّخَذْنا ذلك مِن عِندِنا، إنْ كُنَّا فاعلينَ ذلك، ولكِنْ لا يليقُ بنا فِعلُه ولا ينبغي[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٥)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

قال الماوردي: (قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ: أحدُها: ولدًا، قاله الحسنُ. الثاني: أنَّ اللهوَ النساءُ، قاله مجاهدٌ. وقال قتادةُ: اللهوُ بلغةِ أهلِ اليمنِ: المرأةُ. قال ابنُ جريج: لأنَّهم قالوا: مريمُ صاحبتُه، وعيسى ولدُه! الثالث: أنَّه اللهوُ الذي هو داعي الهوى، ونازعُ الشهوةِ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٤٠).

وممن اختار أنَّ المرادَ باللهوِ الولدُ: مقاتلُ بنُ سليمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣).

وممن قال مِن السلفِ بهذا القولِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، وعكرمةُ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٧).

وقال ابن جزي: (و﴿مِن لَّدُنَّآ﴾: أي: مِن الملائكةِ، فالمعنَى على هذا: لو أرَدْنا أن نتَّخِذَ ولدًا لاتَّخَذْناه مِن الملائكةِ، لا مِن بني آدمَ، فهو ردٌّ على مَن قال: إنَّ المسيحَ ابنُ الله، وعُزَيرًا ابنُ الله). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩).

وممن اختار أنَّ المرادَ باللهوِ النساءُ: الواحدي، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٥).

وقال البغوي: (وهو في المرأةِ أظهرُ؛ لأنَّ الوطءَ يُسمَّى لهوًا في اللغةِ، والمرأةُ محلُّ الوطءِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٥). =

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾.

أي: ولكِنَّنا نُلقي بحُجَجِ القرآنِ على الباطِلِ، فيَذهَبُ ويَضمَحِلُّ، فلا نعمَلُ عَمَلًا يكونُ باطِلًا ولَعِبًا ولَهوًا(١).

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٨- ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا

= وممن جمَع بينَ القولينِ: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، والعُليمي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٤٦).

وذكر ابنُ كثيرٍ أنَّ القولينِ متلازمانِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٥).

قال ابن قتيبة: (قال قتادة والحَسَنُ: اللَّهوُ: المرأةُ، وقال ابنُ عبَّاسٍ: هو الولَدُ. والتفسيرانِ مُتقاربان؛ لأنَّ امرأةَ الرجُلِ لَهوُه، وولَده لَهوُه... وتأويل الآية: أنَّ النَّصارى لَمَّا قالت في المَسيحِ وأمِّه ما قالت؛ قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا ﴾، أي: صاحِبةً وولَدًا، كما يقولونَ، لاتَّخَذْنا ذلك من لدُنَّا). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٠٤). واستحسنه الواحديُّ في ((الوسيط)) (٣/ ٢٣٢).

وقال ابن تيميَّة: (أي: لاتخَذْنا ذلك عندَنا لا عِندَكم؛ لأنَّ زوجةَ الرجُلِ وولدَه يكونانِ عندَه بحَضرتِه، لا عندَ غيرِه). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٤٠٥).

وممن قال به من السَّلَفِ: ابنُ جُريجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٣٩).

وقيل: المعنى: لو أرَدْنا أن نَتَّخِذَ ما يُتَلهَّى به ويُلعَبُ. وممن اختاره: البيضاوي، والطِّيبي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٩، ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣، ٣٤).

ﵟالزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَﵞ [الرعد: ١٧].

ﵟوَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَﵞ.

أي: ولكم العَذابُ والهَلاكُ -أيُّها المُشرِكونَ- بسَبَبِ ما تكذِبونَ وتفترونَ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ عَقَّب به ذِكرَ القَومِ المُهلَكينَ، والمقصودُ مِن ذلك إيقاظُ العُقولِ إلى الاستِدلالِ بما في خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينهما مِن دقائِقِ المُناسَباتِ، وإعطاءِ كُلِّ مَخلوقٍ ما به قِوامُه، فإذا كانت تلك سُنَّةَ الله في خَلقِ العوالِمِ ظَرفِها ومَظروفِها، استُدِلَّ بذلك على أنَّ تلك السُّنَّةَ لا تتخلَّفُ في ترتُّبِ المسَبَّباتِ على أسبابِها فيما يأتيه جِنسُ المكَلَّفينَ مِن الأعمالِ، فإذا ما لاحَ لهم تخَلُّفُ سَبَبٍ عن سَبَبِه، أيقَنوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

قال ابن جرير: (ولكُمُ الوَيلُ مِن وَصفِكم ربَّكم بغيرِ صِفَتِه، وقيلِكم: إنَّه اتخَذَ زَوجةً ووَلَدًا، وفِريَتِكم عليه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهلُ التأويل، إلَّا أنَّ بَعضَهم قال: معنى ﴿تَصِفُونَ﴾: تَكذِبونَ. وقال آخرون: معنى ذلك: تُشرِكون. وذلك وإن اختَلَفت به الألفاظُ فمُتَّفِقةٌ معانيه؛ لأنَّ مَن وصف اللهَ تعالى بأنَّ له صاحبةً، فقد كذَبَ في وصفِه إيَّاه بذلك، وأشرَكَ به، ووصَفَه بغير صِفَتِه. غيرَ أنَّ أَولى العبارات أن يعبَّرَ بها عن معاني القرآنِ أقرَبُها إلى فَهمِ سامعيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤١).

وقال البِقاعي: (﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: مِن وَصْفِكم لكُلِّ شَيءٍ بما تهوى أنفسُكم، من غيرِ إذنٍ مِنَّا لكم؛ لأنَّكم لا تَقِفونَ على حقائِقِ الأمور، فإن وصفتُم القرآنَ بشَيءٍ مِمَّا تقدَّمَ، ثمَّ قَذَفْنا عليه بما يبَيِّنُ بُطلانَه، بانَ لكلِّ عاقلٍ أنَّه يجِبُ عليكم أن تُنادِمُوا الويلَ بمَيلِكم كلَّ المَيلِ، وإنْ وَصفتُم اللهَ أو الدنيا أو غيرهما، فكذلك إنما أنتم متعَلِّقونَ بقُشورٍ وظواهِرَ لا يرضاها إلَّا بعيدٌ عن العقلِ، مَحجوبٌ عن الإدراكِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٠٠).

أنَّه تخلُّفٌ مُؤَقَّتٌ، فإذا عَلَّمَهم اللهُ على لسانِ شرائِعِه بأنَّه ادَّخَر الجَزاءَ الكامِلَ على الأعمالِ إلى يومٍ آخِرٍ؛ آمَنوا به، وإذا عَلَّمهم أنَّهم لا يفوتونَ ذلك بالموتِ، بل إنَّ لهم حياةً آخِرةً، وأنَّ اللهَ باعِثُهم بعد الموتِ؛ أيقنوا بها، وإذا عَلَّمَهم أنَّه رُبَّما عَجَّلَ لهم بعضَ الجزاءِ في الحياةِ الدُّنيا؛ أيقَنوا به؛ ولذلك كَثُرَ تَعقيبُ ذِكرِ نِظامِ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ بذِكرِ الجَزاءِ الآجِلِ والبَعثِ، وإهلاكِ بَعضِ الأُمَمِ الظَّالِمةِ، أو تعقيبُ ذِكرِ البَعثِ والجزاءِ الآجِلِ والعاجِلِ بذِكرِ نِظامِ خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ[1].

٢- ينبغي للإنسانِ أنْ يَعرِفَ شُبَهَ المُخالِفينَ -التي يَدَّعونَها حُجَجًا- لِيَنقَضَّ عليهم منها فيُبطِلَها؛ قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[2].

٣- قال بَعضُ أهلِ العِلمِ: (كيف لا يَخشَى الكَذِبَ على اللهِ ورَسولِه مَن يَحمِلُ كَلامَه على التَّأويلاتِ المُستنكَرةِ والمجازاتِ المُستكرَهةِ التي هي بالألغازِ والأحاجيِّ أَولى منها بالبَيانِ والهِدايةِ؟! وهل يأمَنُ على نَفْسِه أن يكونَ مِمَّن قال اللهُ فيهم: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾؟!). قال الحَسَنُ: (هي واللهِ لكُلِّ واصِفٍ كَذِبًا إلى يَومِ القيامةِ)[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ سُمِّيَ ذلك القَولُ (دعوى)؛ لأنَّ المقصودَ منه هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ١٩١).

الدُّعاءُ على أنفُسِهم بالوَيلِ، والدُّعاءُ يُسمَّى دَعوى، كما في قَولِه تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾(1) [يونس: ١٠].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يَنصِبُ (جعَلَ) ثلاثةَ مَفاعِيلَ؟

الجوابُ: أنَّ حُكمَ الاثنينِ الآخَرينِ ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ حُكمُ الواحِدِ، فـ ﴿خَٰمِدِينَ ﴾ مع ﴿حَصِيدًا ﴾ في حَيِّزِ المَفعولِ الثَّاني للجَعْلِ، والمعنى: جعَلْناهم جامِعِينَ لهذينِ الوَصفَينِ، والمرادُ أنَّهم أُهلِكوا بذلك العَذابِ حتى لم يبقَ لهم حِسٌّ ولا حَرَكةٌ، وجَفُّوا كما يجِفُّ الحَصيدُ، وخَمَدوا كما تَخمُدُ النَّارُ(2).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ دَلالةٌ على كَمالِ حِكمتِه سُبحانه وتعالى(3).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ فيه أنَّه تعالى تكَفَّل بإحقاقِ الحَقِّ وإبطالِ الباطِلِ، وأنَّ كُلَّ باطِلٍ قيلَ وجُودِلَ به، فإنَّ اللهَ يُنزِلُ مِن الحَقِّ والعِلمِ والبيانِ ما يَدمَغُه، فيَضمَحِلُّ ويتبيَّنُ لكُلِّ أحدٍ بُطلانُه، وهذا عامٌّ في جميعِ المسائِلِ الدِّينيَّةِ؛ لا يُورِدُ مُبطِلٌ شُبهةً عَقليَّةً ولا نقليَّةً في إحقاقِ باطلٍ أو رَدِّ حَقٍّ، إلَّا وفي أدِلَّةِ اللهِ مِن القواطعِ العَقليَّةِ والنَّقليَّةِ ما يُذهِبُ ذلك القَولَ الباطِلَ ويَقمَعُه، فإذا هو مُتبيِّنٌ بُطلانُه لكُلِّ أحدٍ(4).

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨).

(2) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٤).

(3) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧).

(4) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا ...﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾[الأنبياء: ٦]، أو على قولِه: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وهو تَعريضٌ بالتَّهديدِ، وفيه تَعريضٌ بنصْرِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعريضٌ بإنذارِ المُشرِكينَ بالانقراضِ بقاعدةِ قياسِ المُساواةِ[١]، وأنَّ اللهَ يُنشِئُ بعْدَهم أُمَّةً مُؤمِنةً[٢]. أو استئنافٌ مَسوقٌ للتَّمثيلِ بالأُمَمِ الَّتي هلَكَتْ قبْلَهم[٣].

- وفيه نوعُ تَفصيلٍ لإجمالِ قولِه تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وبَيانٌ لكَيفيَّةِ إهلاكِهم وسبَبِه، وتَنبيهٌ على كثرَتِهم[٤].

- و(كمْ) في قولِه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ تَقْتضي التَّكثيرَ، وفي لفْظِ القصْمِ الَّذي هو عبارةٌ عن أفظَعِ الكسْرِ بإبانةِ أجزاءِ المكسورةِ، وإزالةِ تأْليفِها بالكُلِّيَّةِ، مِن الدَّلالةِ على قُوَّةِ الغضبِ وشدَّةِ السَّخَطِ ما لا يَخْفى[٥]. وفي (كم) الدَّالَّةِ على كثرةِ العدَدِ إيماءٌ إلى أنَّ هذه الكثرةَ تَستلزِمُ عدَمَ تخلُّفِ إهلاكِ هذه القُرى،

---

(١) قياسُ المساواةِ، نحو: (أ) مساوٍ (ب)، و(ب) مساوٍ لـ (ج)، فيلزم: (أ) مساوٍ لـ (ج)، بواسطةِ مقدمةٍ أجنبيةٍ، وهو: كلُّ ما هو مساوٍ لـ (ب) مساوٍ لـ (ج). يُنظر: ((أصول الفقه)) لابن مفلح (١/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣، ٢٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

وبَضميمةِ وَصْفِ تلك الأُمَمِ بالظُّلْمِ، أي: الشِّرْكِ، إيماءٌ إلى سبَبِ الإهلاكِ؛ فحصَلَ منه ومِن اسْمِ الكثرةِ معنى العُمومِ، فيَعلَمُ المُشرِكونَ التَّهديدَ بأنَّ ذلك حالٌّ بهم لا مَحالةَ بحُكمِ العُمومِ، وأنَّ هذا ليس مُرادًا به قريةٌ مُعيَّنةٌ[1].

- قولُه: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾ ﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾ المرادُ: أهلُها؛ إذْ لا تُوصَفُ القريةُ بالظُّلْمِ، كَقَوْلِهِ: ﴿مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾[2] [النساء: ٧٥].

- قولُه: ﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ فيه تَنبيهٌ على استئصالِ الأوَّلينَ، وقطْعِ دابِرِهم بالكُلِّيَّةِ، وهو السِّرُّ في تَقديمِ حِكايةِ إنشاءِ هؤلاء على حِكايةِ مبادئِ إهْلاكِ أولئك بقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ ...﴾، فضميرُ الجمعِ فِي ﴿أَحَسُّواْ﴾ عائدٌ على (أهلِ) المحذوفِ مِن قولِه: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾، ولا يعودُ على قولِه: ﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾؛ إذ لا ذنبَ لهم يَقتضي ما تضمَّنه هذا الكلامُ[3].

- قولُه: ﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ و﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ إلخ، فجُملةُ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ إلخ، تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾[4].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾

- قولُه: ﴿مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ الرَّكضُ: ضَرْبُ الدَّابَّةِ بالرِّجْلِ، ويجوزُ أنْ يَرْكبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥).

دوابِّهم يَرْكُضونها هاربينَ مُنهزِمينَ مِن قَريتِهم لمَّا أدرَكَتْهم مُقدِّمةُ العذابِ، ويجوزُ أنْ يُشَبَّهوا في سُرعةِ عَدْوِهم على أرجُلِهم بالرَّاكبينَ الرَّاكضينَ لدوابِّهم، فقيل لهم: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾، والقولُ مَحذوفٌ، فهو على إرادةِ القولِ، أي: قيل لهم استهزاءً: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾؛ إمَّا بلسانِ الحالِ، أو المقالِ[1].

- وحَرْفُ (مِن) في قولِه: ﴿مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للابتداءِ، أي: خارجينَ منها، ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّعليلِ، أي: من البأْسِ الَّذي أحسُّوا به؛ فلا بُدَّ من تَقديرِ مُضافٍ، أي: مِن بأْسِنا[2].

- وفي دُخولِ (إذا) الفُجائيَّةِ في جوابِ (لَمَّا): دَلالةٌ على أنَّهم ابْتَدَروا الهُروبَ من شِدَّةِ الإحساسِ بالبأْسِ؛ تَصويرًا لشِدَّةِ الفزَعِ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾

- وجُملةُ: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ ...﴾ مُعترِضةٌ بين ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ و﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وهي خِطابٌ للرَّاكضينَ بتَخيُّلِ كونِهم الحاضرينَ المُشاهِدينَ في وقْتِ حكايةِ قِصَّتِهم، تَهيئةً وتأهيلًا لِما اقْتَضى اجتلابَ حَرْفِ المُفاجأةِ. والكلامُ تَهكُّمٌ بهم[4].

- ولَمَّا كان التَّأسيفُ إنَّما هو على العَيشِ الرَّافِهِ، لا على كَونِه مِن مُعطٍ مُعَيَّنٍ، بُنِيَ للمفعولِ قَولُه: ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾. ويجوزُ أن يكونَ بُنِيَ للمفعولِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إشارةً إلى غَفْلَتِهم عن العِلمِ لِمَن أترَفَهم، أو إلى أنَّهم كانوا يَنسُبونَ نِعمَتَهم إلى قُواهم، ولو عَدُّوها منَ اللهِ لشَكَروه فنفَعَهم[(١)].

- قولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: ارْجِعوا إلى نَعيمِكم ومَساكنِكم لعلَّكم تُسْألون غدًا عمَّا جَرى عليكم؛ ففيه تَوبيخٌ وتَهكُّمٌ بهم، أو: يَسْألُكم الوافدونَ نوالَكم، إمَّا لأنَّهم كانوا أسخياءَ يُنفقونَ أموالَهم رئاءَ الناسِ وطلبَ الثناءِ، أو كانوا بُخلاءَ، فقيل لهم ذلك تَهكُّمًا إلى تَهكُّمٍ، وتَوبيخًا إلى تَوبيخٍ[(٢)].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إنْ جُعِلَتْ جُملةُ ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ مُعترِضةً، تكونُ جُملةُ ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ﴾ مُستأنفةً استئنافًا بَيانيًّا عن ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾؛ كأنَّ سائِلًا سأَلَ عمَّا يقولونَه حين يُسْرِعونَ هاربينَ؛ لأنَّ شأْنَ الهاربِ الفزِعِ أنْ تَصدُرَ منه أقوالٌ تدُلُّ على الفزَعِ أو النَّدمِ عن الأسبابِ الَّتي أحلَّتْ به المخاوِفَ، فيُجابُ بأنَّهم أيْقَنوا حينَ يرَونَ العذابَ أنَّهم كانوا ظالِمينَ. وإنْ جُعِلَتْ جُملةُ ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ مقولَ قولٍ مَحذوفٍ، كانت جُملةُ ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ جوابًا لقولِ مَن قال لهم: ﴿لَا تَرْكُضُواْ ...﴾[(٣)].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ كِنايةٌ عن مَوتِهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٠٥).

- وفي قولِه: ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ تَشبيهٌ بليغٌ؛ فقد شبَّهَهم بعْدَ حُلولِ العذابِ بهم بالحصيدِ أوَّلًا، وهو الزَّرعُ المحصودُ، ووجْهُ الشَّبهِ بين المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به هو الاستئصالُ من المنابتِ، ثمَّ شبَّهَهم ثانيًا بالنَّارِ المُنطفِئةِ ولم يبْقَ منها إلَّا جمْرٌ مُنطفِئٌ لا نفْعَ فيه، ولا قابليَّةَ لشَيءٍ من النَّفعِ منه، فلا تُرى إلَّا أشْلاءٌ مُتناثِرةٌ وأجزاءٌ مُتفرِّقةٌ قد تَمدَّدتْ، وقد رانَ عليها البِلَى[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ إشارةٌ إجماليَّةٌ إلى أنَّ تكوينَ العالَمِ وإبداعَ بني آدَمَ مُؤسَّسٌ على قواعدِ الحِكَمِ البالغةِ المُسْتتبِعةِ للغاياتِ الجليلةِ، وتَنبيهٌ على أنَّ ما حُكِيَ من العذابِ الهائلِ والعقابِ النَّازلِ بأهْلِ القُرى مِن مُقتضياتِ تلك الحِكَمِ ومُتفرِّعاتِها حسَبَ اقتضاءِ أعمالِهم إيَّاهُ، وأنَّ للمُخاطَبينَ المُقتدينَ بآثارِهم ذَنوبًا مثْلَ ذَنوبِهم[2].

- وتَخصيصُ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بالذِّكْرِ يدُلُّ على الاهتمامِ به؛ لأنَّ أشرَفَه هو نوعُ الإنسانِ المقصودِ بالعِبْرةِ والاستدلالِ، وهو مَناطُ التَّكليفِ[3].

- وعبَّرَ بقولِه: ﴿لَٰعِبِينَ﴾ لبَيانِ كَمالِ تَنزُّهِه تعالى عن الخلْقِ الخالي عن الحِكْمةِ، بتَصويرِه بصُورةِ ما لا يَرتابُ أحدٌ في استحالةِ صُدورِه عنه سُبحانه[4].

٧- قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨، ٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩).

- قولُه: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ جُملةٌ مُستأْنَفةٌ مُقرِّرةٌ لمعنى جُملةِ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ تَقريرًا بالاستدلالِ على مَضمونِ الجُملةِ، وتَعليلًا لنفْيِ أنْ يكونَ خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ لَعِبًا[1].

- وقولُه: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ عَقِيبَ قولِه: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ من بابِ وضْعِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضْمرِ من غيرِ لفْظِه السَّابقِ؛ لأنَّ اللَّهْوَ: ما يُتلهَّى به ويُلْعَبُ[2]، وهذا على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ في إضافةِ (لَدُنْ) إلى ضَميرِ الجَلالةِ دَلالةٌ على الرِّفْعةِ والتَّفضيلِ[3].

- قولُه: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ فيه مَحذوفٌ؛ ثِقةً بدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: إنْ كُنَّا فاعلينَ لاتَّخذناه. وإنْ جُعِلَتْ (إنْ) شَرطيَّةً كان تكريرًا للتَّلازُمِ، وإنْ جُعِلَتْ (إنْ) حَرْفَ نفْيٍ كانت الجُملةُ مُستأْنفةً؛ بيانًا لتَقريرِ الامتناعِ المُستفادِ مِن (لو)، أي: ما كنَّا فاعلينَ لَهْوًا[4].

٨- قولُه تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ (بل) للإضرابِ عن اتِّخاذِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢).

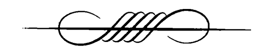
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣).

اللَّهوِ، وعن أنْ يكونَ الخلْقُ لَعِبًا، إضرابَ إبطالٍ وارتقاءٍ[١]. أو إضرابٌ عن إرادتِه، وتَخصيصُ شأنِه هذا مِن بينِ سائرِ شُؤونه تعالى بالذِّكْرِ؛ للتَّخلُّصِ إلى ما سيأْتي من الوعيدِ[٢].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ في (إذا) الفُجائيَّةِ والجُملةِ الاسميَّةِ، من الدَّلالةِ على كَمالِ المُسارَعةِ في الذَّهابِ والبُطلانِ ما لا يَخْفى؛ فكأنَّه زاهِقٌ من الأصْلِ[٣]. أو دَلَّ على سُرعةِ مَحْقِ الحقِّ الباطلَ عندَ وُرودِه؛ لأنَّ للحقِّ صَولةً، فهو سريعُ المفعولِ إذا وَرَد ووَضَحَ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤).

الآيات (١٩-٢٣)

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾: أي: لا يَعْيَونَ، ولا يَنقَطِعونَ عن العِبادةِ، والحَسِيرُ: المنقَطِعُ إعياءً أو كَلالًا، وأصلُ (حسر): يدُلُّ على كَشفِ الشَّيءِ[1].

﴿يَفۡتُرُونَ﴾: أي: يَضعُفونَ ويَسأَمونَ، والفُتورُ: سكونٌ بعدَ حِدَّةٍ، ولينٌ بعدَ شِدَّةٍ، وأصلُ (فتر): يدُلُّ على ضَعفٍ في الشَّيءِ[2].

﴿يُنشِرُونَ﴾: أي: يُحيُونَ الموتى، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشعُّبِه[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾

قَولُه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: بالرَّفعِ صفةٌ للنكرةِ قبلَها ﴿ءَالِهَةٌ﴾. و﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤).

(غَيْر) ولا يَصحُّ الاستثناءُ بالنَّصبِ؛ لأنَّ المعنى حينئذٍ يصيرُ: (لو كان فيهما آلهةٌ ليس اللهُ فيهم، لفسَدتا)، وذلك يقتضي أنَّه لو كان فيهما آلهةٌ فيهم الله لم تفسُدا، وهذا ظاهِرُ الفَسادِ، وكذلك لا يصحُّ أن يُعرَبَ بدلًا مِن ﴿ءَالِهَةٌ﴾؛ لأنَّه لم يصِحَّ الاستثناءُ، فلا تصحُّ البدليَّةُ. وقيل: (إلَّا) هنا اسمٌ مبنيٌّ بمعنى «غير»، صِفةٌ لـ ﴿ءَالِهَةٌ﴾، انتقل إعرابُها وظهرَ فيما بعدَها ﴿ٱللَّهُ﴾، وعليه فـ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُضافٌ إليه مجرورٌ بكسرةٍ مُقدَّرةٍ على آخرِه منَعَ مِن ظهورها اشتغالُ المحلِّ بحركةِ إعرابِ ﴿إِلَّا﴾ الظاهرِ فيه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ الله تعالى: ولله سُبحانَه مُلكُ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ. والذين عندَه من الملائكةِ لا يتكبَّرونَ عن عِبادتِه ولا يَنقَطِعونَ عنها، يذكُرونَ اللهَ ويُنَزِّهونَه دائمًا، لا يَضْعُفونَ ولا يَسأَمونَ.

ثمَّ ذكَر الله تعالى الأدلةَ على وحدانيَّتِه، واستحالةِ أن يكونَ له شركاءُ في ألوهيتِه، فقال: أتَّخَذَ هؤلاء المشركونَ آلهةً مِن الأرضِ يُحيون الموتَى؟ كلا، لا يَقْدِرون على ذلك، فكيفَ عبَدوهم معَ اللهِ؟! لو كان في السَّمَواتِ والأرضِ آلهةٌ غيرُ اللهِ سُبحانَه وتعالى، لاختلَّ نظامُهما. فتنزَّه اللهُ رَبُّ العَرشِ، وتقدَّس عَمَّا يَصِفُه الجاحِدونَ الكافِرونَ، من الكَذِبِ والافتراءِ.

لا يُسألُ عن قَضائِه في خَلقِه، ولا أحدَ يَقدِرُ أن يُمانِعَه أو يُعارِضَه سُبحانَه، وجميعُ خَلقِه يُسأَلونَ عن أفعالِهم وأقوالِهم.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (١/ ١٢٣)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩١٤)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٤٢)، ((حاشية الصبان)) (٢/ ٢٢٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٧/ ١٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نفى اللَّعِبَ عن نَفْسِه، ونفيُ اللَّعِبِ لا يَصِحُّ إلَّا بنفيِ الحاجةِ، ونفيُ الحاجةِ لا يَصِحُّ إلا بالقُدرةِ التامَّةِ؛ لا جرَمَ عَقَّب تلك الآيةَ بقَولِه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لدَلالةِ ذلك على كَمالِ المُلكِ والقُدرةِ[١].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى كلامَ الطَّاعِنينَ في النبُوَّاتِ، وأجاب عنها، وبيَّنَ أنَّ غرَضَهم مِن تلك المطاعِنِ التمَرُّدُ وعَدَمُ الانقيادِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه تعالى مُنَزَّهٌ عن طاعتِهم؛ لأنَّه هو المالِكُ لجميعِ المُحْدَثاتِ والمخلوقاتِ، ولأجْلِ أنَّ الملائِكةَ مع جلالَتِهم مُطيعونَ له، خائِفونَ منه، فالبَشَرُ مع نهايةِ الضَّعفِ أَولى أن يُطيعوه[٢].

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولله وَحدَه مُلكُ مَن في السَّمواتِ والأرضِ مِن الخَلقِ، وكُلُّهم عَبيدٌ له[٣].

﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾.

أي: ومَن عِندَه مِنَ الملائِكةِ لا يتكبَّرونَ عن عبادتِه وطاعتِه والتذَلُّلِ له، ولا يتعَبونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مِلكًا وخَلقًا، فكيف يجوزُ أن يُشرَكَ به ما هو عَبدُه وخَلْقُه؟!). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧).

من عبادتِه، ولا يَنقَطِعونَ عنها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾.

أي: يُسبِّحونَ اللهَ ليلًا ونهارًا، لا يَضعُفُ نَشاطُهم عن تَسبيحِه في كلِّ وَقتٍ[٢].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ الله تعالى كمالَ اقتدارِه وعَظَمتِه، وخضوعَ كُلِّ شَيءٍ له؛ أنكَرَ على المُشرِكينَ الَّذينَ اتَّخذوا مِن دونِ اللهِ آلِهةً مِن الأرضِ في غايةِ العَجزِ وعَدَمِ القُدرةِ[٣].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾.

أي: هل اتَّخَذ أولئك المُشرِكونَ مَعبوداتٍ مِن الأرضِ يُحْيونَ الأمواتَ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٠).

قال أبو حيَّان: (هم الملائكةُ بإجماعِ الأمَّةِ، وصَفَهم بتسبيحٍ دائمٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٧).

وقال البِقَاعي: (﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: يُنزِّهونَ المُستَحِقَّ للتنزيه بأنواعِ التَّنزيهِ مِن الأقوالِ والأفعالِ التي هي عبادةٌ، فهي مُقتَضيةٌ مع نفيِ النَّقائِصِ إثباتَ الكَمالِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٥٢١).

كلا، لا يَقدِرونَ على ذلك، فكيف جَعَلوهم لله أندادًا، وعَبَدوهم معه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

أي: لو كان في السَّمَواتِ والأرضِ مَعبوداتٌ تَستَحِقُّ العبادةَ غيرُ اللهِ، لَخَرِبَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، واختلَّ نظامُهما، وبطَل الانتفاعُ بما فيهما، وهلَك ما فيهما مِن الخَلقِ[2].

كما قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أي: فتنزَّه اللهُ ربُّ العَرشِ وتعالى عمَّا يَصِفُه به الواصِفونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ، ويَكذِبونَ عليه، كادِّعائِهم أنَّ له ولدًا وشَريكًا[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٨، ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

قال القرطبي: (﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزَّه نفْسَه، وأمَر العبادَ أن ينزِّهوه عن أن يكونَ له شريكٌ أو ولدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩).

كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٢].

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: لا سائلَ يَسألُ الله تعالى عمَّا يفعلُ، فيقولُ له: لِمَ فعَلْتَ؟ ولِمَ لَمْ تفعَلْ؟ ولا أحدَ يَقدِرُ أن يُمانِعَه أو يُعارِضَه سُبحانَه بقَولٍ أو بِفعلٍ فيما يشاءُ فِعلَه بخَلقِه، وأمَّا خَلقُه فيَسأَلُهم عن أفعالِهم وأقوالِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

قال ابنُ تيميَّةَ: (بيَّن سُبحانه أنَّه يفعَلُ ما يشاءُ فلا أحَدَ يُمكِنُه أن يُعارِضَه إذا شاء شيئًا، بل هو قادِرٌ على فِعلِ ما يشاءُ، بخلاف المخلوقِ الذي يشاءُ أشياءَ كثيرةً ولا يُمكِنُه أن يفعَلَها؛ ولهذا قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصحيحِ: «لا يقولَنَّ أحدُكم: اللهُمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئتَ، اللهمَّ ارحَمْني إنْ شئتَ؛ فإنَّ الله لا مُكرِهَ له، ولكِنْ لِيَعزِمِ المسألةَ» [البخاري «٦٣٣٩»، ومسلم «٢٦٧٩»]). ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٢٢٥).

وقال ابنُ القيِّم: (﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾؛ لكَمالِ حِكمَتِه وعِلْمِه، ووَضْعِه الأشياءَ مواضِعَها، وأنَّه ليس في أفعالِه خَلَلٌ ولا عَبَثٌ ولا فَسادٌ يُسألُ عنه كما يُسألُ المخلوقُ، وهو الفَعَّالُ لِما يريدُ، ولكِنْ لا يُريدُ أن يفعَلَ إلَّا ما هو خَيرٌ ومَصلحةٌ، ورَحمةٌ وحِكمةٌ، فلا يَفعَلُ الشَّرَّ ولا الفسادَ ولا الجَورَ، ولا خِلافَ مُقتضَى حِكمَتِه؛ لكَمالِ أسمائِه وصِفاتِه). ((طريق الهجرتين)) (ص: ٤١٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: إنَّ الله تعالى لا يُسألُ عمَّا يَحكُمُ في عبادِه مِن إعزازٍ وإذلالٍ، وهُدًى وضَلالٍ، وإسعادٍ وإشقاءٍ؛ لأنَّه الرَّبُّ مالِكُ الأعيانِ، والخَلقُ يُسأَلونَ سُؤالَ توبيخٍ؛ يقال لهم يومَ القيامةِ: لِمَ فعَلتُم كذا وكذا؛ لأنَّهم العبيدُ، وواجِبٌ عليهم امتِثالُ أمرِ مَولاهم، واللهُ تعالى ليس فوقَه أحدٌ يقولُ له لِشَيءٍ فَعَله: لِمَ فعَلْتَه؟!). ((البسيط)) (١٥/ ٥٠).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ فكُلُّ المكَلَّفينَ في السَّماءِ والأرضِ هم عَبيدُ اللهِ تعالى، وهو الخالِقُ لهم، والمُنعِمُ عليهم بأصنافِ النِّعَمِ، فيَجِبُ على الكُلِّ طاعَتُه، والانقيادُ لحُكمِه(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أي: أنَّهم مُستَغرِقونَ في العبادةِ والتَّسبيحِ في جميعِ أوقاتِهم؛ فليس في أوقاتِهم وَقتٌ فارغٌ ولا خالٍ منها، وهم على كَثرتِهم بهذه الصِّفةِ، وفي هذا مِن بيانِ عَظَمةِ اللهِ تعالى، وجَلالةِ سُلطانِه، وكَمالِ عِلمِه وحِكمَتِه ما يُوجِبُ ألَّا يُعبَدَ إلَّا هو، ولا تُصرَفَ العبادةُ لِغَيرِه(٢).

٣- قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ فعُلِمَ بذلك أنَّه لا صلاحَ للعالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ مَعًا حتى تكونَ حَرَكاتُ أهلِها كُلُّها للهِ، وحَرَكاتُ الجَسَدِ تابِعةٌ لحركةِ القَلبِ وإرادتِه؛ فإن كانت حركَتُه وإرادتُه لله وحْدَه، فقد صلَحَ وصَلَحت حَرَكاتُ الجَسَدِ كُلِّه، وإن كانت حركةُ القَلبِ وإراداتُه لغيرِ الله تعالى، فسَدَ وفسَدَت حَرَكاتُ الجَسَدِ بحَسَبِ فَسادِ حركةِ القلبِ(٣)، فكما أنَّ السَّمَواتِ والأرضَ لو كان فيهما إلهٌ غَيرُه سُبحانَه لفَسَدتا، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (١/ ٢١٢).

كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، فكذلك القَلبُ: إذا كان فيه مَعبودٌ غيرُ اللهِ فَسَد فَسادًا لا يُرجى صَلاحُه إلَّا بأن يُخرِجَ ذلك المعبودَ مِن قَلبِه، ويكونَ اللهُ وحْدَه إلهَه ومَعبودَه الذي يُحِبُّه ويَرجوه ويَخافُه، ويتوكَّلُ عليه ويُنيبُ إليه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن أدِلَّةِ عُلُوِّ اللهِ على خَلْقِه التَّصريحُ باختِصاصِ بَعضِ المخلوقاتِ بأنَّها عِندَه، وأنَّ بعضَها أقرَبُ إليه مِن بَعضٍ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، ففرَّق بينَ مَن له عمومًا، ومَن عندَه مِن مماليكِه وعَبيدِه خُصوصًا، وفيه ردٌّ على الجَهميَّةِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ فإنْ قيل: كيفَ أنكَرَ عليهم اتخاذَ آلهةٍ تُنشِرُ، وما كانوا يدَّعونَ ذلك لآلهَتِهم؟

والجوابُ: أنَّ الأمرَ وإن كان كما ذُكِرَ، إلَّا أنَّهم بادِّعائِهم لها الإلهيَّةَ، يَلزَمُهم أن يَدَّعوا لها الإنشارَ؛ لأنَّه لا يَستَحِقُّ هذا الاسمَ إلَّا القادِرُ على كُلِّ مَقدورٍ، والإنشارُ مِن جُملةِ المَقدوراتِ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ دَلالةٌ على أنَّ عِلْمَ اللهِ تعالى يتعلَّقُ أيضًا بالمُستَحيلِ؛ فهذا خبَرٌ يخبِرُ اللهُ فيه أنَّه لو كان في السَّماءِ والأرضِ آلهةٌ إلَّا اللهُ لفَسَدتا، وهذا خَبَرٌ عن شيءٍ مُستَحيلٍ[4].

٤- نبَّه الله سبحانَه خَلْقَه على أنَّه واحدٌ باتِّساقِ أفعالِه وتَرتيبِها، وأنَّه تعالى

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٢٦، ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٩٨).

لا شريكَ له فيها، بقولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١]، فإنَّ كُلَّ إلهٍ كان يَطلُبُ مُغالَبةَ الآخرِ، والعُلُوَّ عليه، وتفرُّدَه دونَه بإلهيَّتِه؛ إذ الشَّرِكةُ نَقصٌ في كَمالِ الإلهيَّةِ، والإلهُ لا يرضَى لنَفسِه أن يكونَ إلهًا ناقِصًا، فإنْ قهَرَ أحدُهما الآخَرَ كان هو الإلهَ وحْدَه، والمقهورُ ليس بإلهٍ، وإنْ لم يقهَرْ أحَدُهما الآخَرَ، لَزِمَ عَجزُ كُلٍّ منهما، ولم يكنْ تامَّ الإلهيَّةِ، فيَجِبُ أن يكونَ فوقَهما إلهٌ قاهِرٌ لهما، حاكِمٌ عليهما، وإلَّا ذهب كُلٌّ منهما بما خلَقَ، وطلَبَ كُلٌّ منهما العلوَّ على الآخرِ، وفي ذلك فسادُ أمرِ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيها[٢]؛ فلا يَصلُحُ الوجودُ إلَّا على إلهٍ واحدٍ، كما أنَّه لم يُوجَدْ إلَّا برَبٍّ واحدٍ؛ ولهذا قال سُبحانَه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي: في السَّمواتِ والأرضِ ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتِهما، وفسَدَ مَن فيهما مِن المخلوقاتِ. بيانُ ذلك: أنَّ العالَمَ العُلويَّ والسُّفليَّ -على ما يُرى- في أكمَلِ ما يكونُ مِن الصَّلاحِ والانتِظامِ الذي ما فيه خَلَلٌ ولا عَيبٌ، ولا مُمانعةٌ ولا مُعارضةٌ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ مُدبِّرَه واحِدٌ، ورَبَّه واحِدٌ، وإلهَه واحِدٌ -سُبحانَه وبِحَمدِه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّعليقَ بالشَّرطِ لا يَدُلُّ على إمكانِ المَشروطِ، بل قد يكونُ مُستَحيلًا غايةَ الاستِحالةِ، كما في الآيةِ[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ فيه سؤالٌ: لِقائلٍ أن

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤). وتُنظر: قاعدة (الشرطُ لا يقتضي جوازَ الوقوعِ) في ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٦٣٩).

يقولَ: إنَّ قَولَه: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ وإن كان متأكِّدًا بقَولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، وبقَولِه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] إلَّا أنَّه يُناقِضُه -ظاهِرًا- قَولُه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]!

والجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّل -وهو أوجَهُها؛ لدَلالةِ القُرآنِ عليه- هو: أنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتقريعٍ، وأداتُه غالبًا: (لِمَ)، وسؤالُ استخبارٍ واستعلامٍ، وأداتُه غالبًا: (هَل)، فالـمُثبَتُ هو سؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سُؤالُ الاستخبارِ والاستعلامِ. وجهُ دلالةِ القرآنِ على هذا: أنَّ سؤالَه لهم المنصوصَ في كُلِّه توبيخٌ وتقريعٌ، كقولِه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٤، ٢٥]، وقولِه: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، وكقولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الثاني: أنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألونَ، وفي بعضِها لا يُسألونَ.

الثالث: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عَنِ التَّوحيدِ، وتَصديقِ الرُّسلِ، وعدمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّينِ وفُروعِه[١].

وقيل غيرُ ذلك[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ بيَّنَ بهذا أنَّ مَن يُسأَلُ غدًا عن أعمالِه -كالمَسيحِ، والمَلائِكةِ- لا يَصلُحُ للإلهيَّةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠، ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩).

٨- قَولُه تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ فيه دليلٌ ظاهرٌ على القدريَّةِ في مسألةِ القَدَرِ[١]، فعن أبي الأسودِ الدِّيليِّ، قال: (قال لي عِمْرانُ بنُ الحُصَينِ: أرأيتَ ما يعملُ النَّاسُ اليومَ ويَكْدَحونَ فيه، أشيءٌ قُضيَ عليهم، ومضَى عليهم مِن قَدَرٍ ما سَبَق؟ أو فيما يُستقبَلونَ به مِمَّا أتاهم به نَبِيُّهم، وثَبَتت الحجَّةُ عليهم؟ فقُلْتُ: بل شيءٌ قُضِي عليهم، ومضَى عليهم. قال: فقال: أفلا يكونُ ظلمًا؟ قال: ففزِعْتُ مِن ذلك فَزَعًا شديدًا، وقلتُ: كلُّ شيءٍ خَلْقُ اللهِ ومِلْكُ يدِه، فلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. فقال لي: يرحمُك اللهُ، إنِّي لم أُرِدْ بما سألْتُك إلَّا لِأَحْزِرَ[٢] عقلَك)[٣]. وقال ابنُ جُرَيجٍ في هذه الآيةِ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾: (المعنى: لا يَسألُه الخَلقُ عن قَضائِه في خَلْقِه، وهو يسألُ الخَلقَ عن عَمَلِهم؛ لأنَّهم عَبيدٌ)[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، وإخبارٌ بأنَّ جميعَ العالَمِ ملْكُه[٥]، أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الأنبياء: ١٧]، مُبيِّنةٌ أنَّ كلَّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ عِبادٌ للهِ تعالى، مَخلوقونَ لقَبولِ تكليفِه، والقيامِ بما خُلِقوا لأجْلِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥١).

(٢) لأَحزِرَ: أي: لأمتَحِنَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٩٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥).

- وتَقديمُ المجرورِ في ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للاختصاصِ، أي: له مَن في السَّمواتِ والأرضِ لا لِغَيرِه، وهو قَصْرُ إفرادٍ[١]؛ رَدًّا على المُشرِكينَ الَّذين جعَلوا للهِ شُركاءَ في الإلهيَّةِ. و﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَعُمُّ العُقلاءَ وغيرَهم، وغلَّبَ اسمَ الموصولِ الغالبَ في العُقلاءِ؛ لأنَّهم المقصودُ الأوَّلُ[٢].

- وجمَعَ السَّماءَ هنا؛ لاقتضاءِ تَعميمِ المُلْكِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يعني: الملائكةَ، وخَصَّهم بالذِّكْرِ؛ لامتيازِهم بفضيلةِ القُرْبِ منه[٤]، وهو مَعطوفٌ على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ فيكونُ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ للاهتمامِ به. أو المُرادُ به نوعٌ مِن الملائكةِ مُتعالٍ عن التَّبوُّؤِ في السَّماءِ والأرضِ، أو لأنَّه أعَمُّ منه من وَجهٍ، أو مُبتدأٌ خبَرُه ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾[٥].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاح البلاغيِّين هو: تَخصيصُ شيءٍ بشيء وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأول: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. وينقسمُ إلى قَصرٍ حقيقي، وقَصرٍ إضافي، وادِّعائي، وقَصْرِ قَلْب. ويَنقسمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثَلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فقصرُ الإفرادِ: يُخاطَب به مَن يَعتقدُ الشركةَ، نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهية، ومنه الآيةُ المذكورةُ هنا كذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥، ٣٦).

- وفيه تَعريضٌ بالَّذينَ يَستكبِرونَ عن عِبادةِ اللهِ، ويَعْبُدونَ الأصنامَ، وهم المُشرِكونَ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ فيه قُوَّةُ اللَّفظِ لقُوَّةِ المعنى، وهو نقْلُ اللَّفظِ من وزْنٍ إلى وزْنٍ آخرَ أكثَرَ منه؛ لِيَتضمَّنَ من المعنى الدَّالِّ عليه أكثَرَ ممَّا تضمَّنَه أوَّلًا، وهذا الضَّرْبُ مِن الزِّيادةِ في الألفاظِ لا يُستعمَلُ إلَّا في مَقامِ المُبالَغةِ، وهو هنا في قولِه: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ فقد عدَلَ عن الثُّلاثيِّ وهو (حَسَرَ) إلى السُّداسيِّ وهو (اسْتحسَرَ)، وقد كان ظاهِرُ الكلامِ أنْ يُقالَ: (يَحْسِرون)، أي: يَكِلُّون ويَتْعبونَ؛ لأنَّ أقلَّ مَلَلٍ منهم أو كَلالٍ إزاءَ الملائكةِ وإزاءَ عِبادَتِهم للهِ سُبحانه لا يُتصوَّرُ منهم، ولكنَّه عدَلَ عن ذلك؛ للتنبيهِ على أنَّ عباداتِهم بثِقَلِها ودوامِها حقيقةٌ بأن يُستَحسَرَ منها، ومعَ ذلك لا يَستحسرونَ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا لسُؤالٍ نشَأَ ممَّا قبْلَه؛ كأنَّه قِيلَ: ماذا يَصْنعونَ في عِباداتِهم أو كيف يَعْبُدون؟ فقيل: ﴿يُسَبِّحُونَ ...﴾ إلخ[٣]. أو هو بَيانٌ لجُملةِ ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ لأنَّ مَن لا يتعَبُ مِن عمَلٍ لا يَترُكُه، فهو يُواظِبُ عليه ولا يَعْيا منه[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٦).

- قولُه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً ﴾ حِكايةٌ لجِنايةٍ أُخرى من جِناياتِهم بطَريقِ الإضرابِ والانتقالِ مِن فَنٍّ إلى فنٍّ آخَرَ من التَّوبيخِ، ومعنى الهمزةِ في (أَمْ) المُنقطعةِ إنكارُ الواقعِ[١]، وهذا الانتقالُ وقَعَ اعتراضًا بين جُملةِ ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ وجُملةِ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾[٢].

- وضَميرُ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى المُشرِكينَ المُتبادرينَ مِن المقامِ في مثْلِ هذه الضَّمائرِ، ويجوزُ جَعْلُه الْتِفاتًا عن ضَميرِ ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ويجوزُ أنْ يكونَ مُتناسِقًا مع ضَمائرِ ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ [الأنبياء: ٥] وما بعْدَه[٣].

- وفيه بابٌ من التَّهكُّمِ بهم والتَّوبيخِ والتَّجهيلِ، وإشعارٌ بأنَّ ما استَبْعدوهُ من اللهِ لا يصِحُّ استبعادُه؛ لأنَّ الإلهيَّةَ لمَّا صحَّتْ صَحَّ معها الاقتِدارُ على الإبداءِ والإعادةِ[٤].

- والمُرادُ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ هو التَّحقيرُ لا التَّخصيصُ، ووَصْفُ الآلهةِ بأنَّها مِن الأرضِ فيه تَهكُّمٌ بالمُشرِكينَ، وإظهارٌ لضَعْفِ رأْيِهم، أي: جَعَلوا لأنفُسِهم آلِهةً مِن عالَمِ الأرضِ، أو مأْخوذةً مِن أجزاءِ الأرضِ؛ تَعريضًا بأنَّ ما كان مثْلَ ذلك لا يَستحِقُّ أنْ يكونَ مَعبودًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٧).

- وقولُه أيضًا: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فيه مُقابَلةٌ لقولِه تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾؛ لأنَّ المُرادَ أهْلُ السَّماءِ[1].

- قولُه: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ النُّكتةُ في ذِكْرِ الضَّميرِ (هم): إفادةُ معنى الخُصوصيَّةِ، وهو الَّذي يَدورُ عليه الإنكارُ والتَّجهيلُ والتَّشنيعُ، ومعنى التَّخصيصِ في تَقديمِ الضَّميرِ: التَّنبيهُ على كَمالِ مُبايَنةِ حالِهم للإنشارِ المُوجبةِ لمَزيدِ الإنكارِ. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ ذلك مِن مُسْتتبعاتِ ادِّعائِهم الباطلَ؛ لأنَّ الأُلوهيَّةَ مُقْتضيةٌ للاستقلالِ بالإبداءِ والإعادةِ، فحيث ادَّعَوا للأصنامِ الإلهيَّةَ، فكأنَّهم ادَّعَوا لها الاستقلالَ بالإنشارِ[2]. وقيل: ﴿هُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ للدَّلالةِ على قُوَّةِ أمْرِهم فيما أُسْنِدَ إليهم، لا على الاختصاصِ[3]. وقيل: فائدةُ قولِه: ﴿هُمْ﴾ الإيذانُ بأنَّهم لم يَدَّعُوا لها الإنشارَ، وأنَّ قولَه: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ استئنافُ إلْزامٍ لهم، وكأنَّه قال: اتَّخَذوا آلهةً مع اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فهمْ إذنْ يُحيونَ الموتى ضَرورةَ كونِهم آلِهةً[4].

٤- قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ جُملةٌ مُبيِّنةٌ للإنكارِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً﴾؛ ولذلك فُصِلَتْ ولم تُعْطَفْ. وهذه الآيةُ استدلالٌ على استحالةِ وُجودِ آلهةٍ غيرِ اللهِ بعْدَ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فهي مَسوقةٌ لإثباتِ الوَحدانيَّةِ لا لإثباتِ وُجودِ الخالقِ؛ إذ لا نِزاعَ فيه عندَ المُخاطَبينَ، ولا لإثباتِ انفرادِه بالخلْقِ؛ إذ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ١٠٩).

لا نِزاعَ فيه كذلك، ولكنَّها مُنتظِمةٌ على ما يُناسِبُ اعتقادَهم الباطِلَ؛ لكَشْفِ خطَئِهم، وإعلانِ باطِلِهم(١).

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿فِيهِمَآ﴾ عائدٌ على السَّماءِ والأرضِ، وهما كِنايةٌ عن العالَمِ(٢).

- قولُه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها مِن ثُبوتِ الوَحدانيَّةِ بالبُرهانِ، وإيرادُ لفْظِ الجَلالةِ في مَوضِعِ الإضمارِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ؛ فإنَّ الأُلوهيَّةَ مَناطٌ لجميعِ صِفاتِ كَمالِه الَّتي من جُملتِها تَنزُّهُه تعالى عمَّا لا يَليقُ به، ولِتَربيةِ المَهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ. وقولُه: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ صِفةٌ للاسمِ الجليلِ مُؤكِّدةٌ لتنزُّهِه عزَّ وجلَّ، وللتَّذكيرِ بأنَّه انفرَدَ بخلْقِ السَّمواتِ، وهو شَيءٌ لا يُنازِعونَ فيه، بلْ هو خالِقُ ما هو أعظَمُ من السَّمواتِ وحاوِيها، وهو العرْشُ؛ تَعريضًا بهم بإلْزامِهم لازِمَ قَولِهم بانفرادِهِ بالخلْقِ أنْ يَلزَمَ انتفاءُ الشُّركاءِ له فيما دونَ ذلك(٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ استئنافٌ ببَيانِ أنَّه تعالى لقُوَّةِ عَظمتِه وعِزَّةِ سُلطانِه القاهِرِ، بحيث ليس لأحدٍ من مَخلوقاتِه أنْ يُناقِشَه ويَسأَله عمَّا يَفعَلُ مِن أفعالِه، إثْرَ بَيانِ أنْ ليس له شَريكٌ في الإلهيَّةِ(٤). وفيه إبطالٌ لإلهيَّةِ المُقرَّبينَ الَّتي زعَمَها المُشركونَ الَّذين عَبَدوا الملائكةَ وزَعَموهم بَناتِ اللهِ تعالى، بطريقةِ انتفاءِ خاصيَّةِ الإلهِ الحقِّ عنهم؛ إذ هم يُسْألونَ عمَّا يَفْعلون،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٨، ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٩٥).

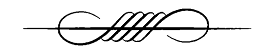
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٢).

وشأْنُ الإلهِ ألَّا يُسألَ[١].

- وجُملةُ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ تمهيدٌ لجُملةِ ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، على أنَّ تَقديمَه على جُملةِ ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ اقتضَتْهُ مُناسبةُ الحديثِ عن تَنزيهِه تعالى على الشُّركاءِ؛ فكان انتقالًا بَديعًا بالرُّجوعِ إلى بَقيَّةِ أحوالِ المُقرَّبينَ. وأيضًا في قولِه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ كِنايةٌ عن جَريانِ أفعالِ اللهِ تعالى على مُقْتضى الحِكْمةِ، بحيث إنَّها لا مَجالَ فيها لانتقادِ مُنتقِدٍ[٢].

- وجاء في قولِه: ﴿عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بالتَّعبيرِ بـ﴿يَفْعَلُ﴾؛ إذ الفِعلُ جامِعٌ لصِفاتِ الأفعالِ، مُندرِجٌ تحتَهُ كلُّ ما يَصدُرُ عنه مِن خَلْقٍ ورَزْقٍ، ونَفْعٍ وضَرٍّ، وغيرِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ وَعيدٌ للكَفرةِ[٤]، وفيه: كِنايةٌ عن العُبوديَّةِ[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٦).

الآيات (٢٤-٢٩)

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُشْفِقُونَ﴾: أي: خائِفونَ حَذِرونَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أمِ اتَّخذ هؤلاء المُشركونَ مِن دون اللهِ آلِهةً؟ قل -يا مُحمَّدُ- لهم: هاتوا ما لديكم مِنَ البُرهانِ على صِحَّةِ ما تَزعُمونَهم آلِهةً؛ فليس في القرآنِ الذي جئتُ به ولا في الكُتُبِ السَّابقةِ دَليلٌ على ما ذهَبتُم إليه، بل أكثَرُ هؤلاء المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ الحَقَّ الذي أنزَلَه الله، فهم مُعرِضونَ عنه مُنكِرونَ له.

وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا محمَّدُ- مِن رَسولٍ إلَّا نوحي إليه أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، فأخْلِصوا العبادةَ له وحْدَه.

وقال المُشرِكونَ: اتَّخَذَ الرَّحمنُ الملائِكةَ بناتٍ له! تنزَّه اللهُ عن ذلك؛ فالملائِكةُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).



عبادُ اللهِ مُقرَّبونَ عندَه، لا يتكَلَّمونَ إلَّا بما يأمُرُهم الله بقولِه، ويَعمَلونَ بما يأمرُهم به، ويُطيعونَه ولا يُخالِفونَه، وما مِن قولٍ أو فعلٍ لاحِقٍ أو سابِقٍ من أعمالِ الملائكةِ إلَّا يَعلَمُه اللهُ سُبحانَه وتعالى، ويُحصيه عليهم، ولا يتقَدَّمونَ بالشَّفاعةِ إلَّا لِمَن ارتضى اللهُ شفاعَتَهم له، وهم مِن خَوفِ اللهِ حَذِرونَ مِن مُخالفةِ أمْرِه ونَهْيِه. ومَن يدَّعِ مِن الملائِكةِ -على سبيلِ الفَرضِ- أنَّه إلهٌ مِن دونِ اللهِ، فجَزاؤه جهنَّمُ، مِثلَ ذلك الجزاءِ نجزي كُلَّ ظالمٍ مُشرِكٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾.

أي: أم[1] اتَّخذ هؤلاء المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مَعبوداتٍ يَزعُمونَ أنَّها تنفَعُ وتضُرُّ وتخلُقُ وتُحيي وتُميتُ[2]؟

﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: هاتوا دليلَكم على صِحَّةِ ما تَزعُمونَ أنَّ مع اللهِ

---

(١) قيل: (أم) هنا بمعنى (هل). وممن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩).
وقيل: بمعنى (بل). وممن قال بذلك: ابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٥).
وقيل: في هذه الجملةِ محذوفٌ تقديرُه: أرَجَعوا عن ضلالِهم لَمَّا بان لهم غيُّهم فيه، فوَحَّدوا اللهَ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ ... ﴾؟ قاله البِقَاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٥).

آلِهةً أُخرى[١].

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾.

أي: هذا القُرآنُ الذي أُنزِلَ علَيَّ، وهذه كتُبُ الأنبياءِ المتقَدِّمةُ -كالتَّوراةِ، والإنجيلِ- على خِلافِ ما تَزعُمونَ، فهل وجَدْتُم في شَيءٍ منها اتخاذَ آلهةٍ مع اللهِ؟! أم كُلُّها ناطِقةٌ بالتَّوحيدِ آمِرةٌ به[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه وتعالى دليلَ التَّوحيدِ وطالَبَهم بالدَّلالةِ على ما ادَّعَوه، وبَيَّنَ أنَّه لا دليلَ لهم البتَّةَ عليه لا مِن جِهةِ العَقلِ ولا مِن جِهةِ السَّمعِ؛ ذكَرَ بَعدَه أنَّ وُقوعَهم في هذا المذهَبِ الباطِلِ ليس لأجْلِ دَليلٍ ساقهم إليه، بل ذلك لأنَّ عِندَهم ما هو أصلُ الشَّرِّ والفسادِ كُلِّه، وهو عَدَمُ العِلمِ، ثمَّ ترَتَّبَ على عَدَمِ العِلمِ الإعراضُ عن استِماعِ الحَقِّ وطَلَبِه[٣].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

قال السعدي: (ولن يَجِدوا لذلك سبيلًا، بل قد قامت الأدلَّةُ القطعيَّةُ على بطلانِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٤).

أي: بل أكثَرُ هؤلاء المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ الحَقَّ الذي أنزَلَه الله؛ فهم مُعرِضونَ عنه، فلا يتفَكَّرونَ فيه، ولا يُؤمِنونَ به ويتَّبِعونَه[1].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحمَّدُ- مِن رَسولٍ إلى أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا نُوحي إليه أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا أنا، فوحِّدوني، وأخْلِصُوا العِبادةَ لي[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

قيل: الإعراضُ هنا مسبَّبٌ عن انتفاءِ العلمِ، فلمَّا فقدوا التمييزَ بينَ الحقِّ والباطلِ أعرضوا عن الحقِّ. وهذا المعنى هو ظاهرُ كلامِ ابنِ جريرٍ، وهو قولُ ابنِ تيميَّةَ، واستظهره أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٩)، ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٢٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٢).

وقيل بعكس ذلك؛ أنَّ الإعراضَ هنا كان سببًا في انتفاءِ العلمِ، أي: لا يعلمون؛ لأنَّهم مُعرِضونَ. وممَّن قال بذلك: ابن عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

قال البقاعي: (ولَمَّا كانوا لا يَجِدونَ شُبهةً لذلك فضلًا عن حُجَّةٍ، اقتضى الحالُ الإعراضَ عنهم غَضَبًا، فكان كأنَّه قيل: لا يَجِدونَ لِشَيءٍ من ذلك بُرهانًا، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: هؤلاء المدعُوِّينَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾، بل هم جَهَلةٌ، والجَهلُ أصلُ الشَّرِّ والفسادِ؛ فهم يكفُرونَ تَقليدًا، ﴿فَهُم﴾ أي: فتسَبَّبَ عن جَهلِهم ما افتَتَحْنا به السورةَ مِن أنَّهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن ذِكرِكَ وذِكرِ مَن قَبلَك؛ غفلةً منهم عما يُرادُ بهم، وفعلًا باللَّعِبِ فِعْلَ القاصِرِ عن درجةِ العَقلِ، وبعضُهم معاندٌ مع علمِه الحَقَّ، وبعضُهم يعلَمُ فيفهَمُ، كما أفهَمَه التقييدُ بالأكثَرِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٠).

قال ابن عطية: (هذه عَقيدةٌ لم تختَلِفْ فيها النبُوَّاتُ، وإنَّما اختلفت في الأحكامِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٩).

ﭽ ﭼ [النحل: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالى بالدَّلائِلِ الباهرةِ كَونَه مُنَزَّهًا عن الشَّريكِ والضِّدِّ والنِّدِّ؛ أردَفَ ذلك ببراءتِه عن اتِّخاذِ الوَلَدِ[1].

وأيضًا لَمَّا نفَى اللهُ تعالى مُطلَقَ الشَّريكِ عَقلًا ونَقلًا، فانتفَى بذلك كلُّ فَردٍ يُطلَقُ عليه هذا الاسمُ؛ عَجِبَ تعالى مِن ادِّعاءِ المُشرِكينَ الشَّرِكةَ المقَيَّدةَ بالوَلَدِ[2].

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ: اتخذَ الرَّحمنُ الملائِكةَ بناتٍ له[3]!

﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾.

أي: تنزيهًا لله أن تكونَ الملائِكةُ بَناتٍ له؛ فليس الأمرُ كما وَصَفوا، بل

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال الشوكاني: (يصِحُّ حَملُ الآيةِ على كلِّ من جعل لله ولدًا، وقد قالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقالت طائفةٌ من العرب: الملائكةُ بناتُ الله). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٧، ٤٧٨).

الملائِكةُ عِبادٌ لله، خاضِعونَ له، مُشَرَّفونَ مُقرَّبونَ عندَه(١).

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾.

أي: لا يتكَلَّمونَ إلَّا بما يأمُرُهم اللهُ بقولِه، ولا يقولونَ شيئًا لم يأذَنْ لهم به(٢).

﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: والملائِكةُ يَعمَلونَ بما يأمُرُهم اللهُ به، ويطيعونَه ولا يُخالِفونَه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ سُبحانَه ذكَرَ ما يجري مَجرى السَّبَبِ لطاعةِ الملائكةِ، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، والمعنى: أنَّهم لَمَّا عَلِموا كَوْنَه سُبحانَه عالِمًا بجَميعِ المعلوماتِ، عَلِموا كَوْنَه عالِمًا بظَواهِرِهم هم وبواطِنِهم، فكان ذلك داعيًا لهم إلى نهايةِ الخُضوعِ، وكَمالِ العُبوديَّةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٥).

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾.

أي: يعلَمُ اللهُ ما سيَعمَلُه الملائِكةُ مِن أقوالٍ وأفعالٍ فيما يَستَقبِلونَه، ويَعلَمُ ما مضى مِمَّا عَمِلوه؛ فلا خُروجَ لهم عن عِلمِه، كما لا خُروجَ لهم عن أمْرِه وتَدبيرِه(١).

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾.

أي: ولا يَشفَعُ الملائِكةُ(٢) إلَّا لِمَن ارتَضى اللهُ الشَّفاعةَ له(٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال ابن عثيمين: (قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: المستقبلَ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي: الماضيَ. وقد قيل بعكسِ هذا القولِ، ولكنَّه بعيدٌ؛ فاللفظُ لا يساعدُ عليه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٣).

قال ابن عاشور: (قيلَ: المستقبلُ هو ما بينَ الأيدي، والماضي هو الخلفُ، وقيلَ: عكسُ ذلك، وهما استعمالانِ مبنِيَّانِ على اختلافِ الاعتبارِ في تمثيلِ ما بينَ الأيدي والخلفِ، لأنَّ ما بينَ أيدي المرءِ هو أمامَه، فهو يستقبِلُه ويُشاهِدُه ويسعَى للوصولِ إليه، وما خلفَه هو ما وراءَ ظهرِه، فهو قد تَخَلَّف عنه وانقَطَع ولا يُشاهِدُه، وقد تجاوَزه ولا يَتَّصِلُ به بعدُ. وقيلَ: أمورُ الدُّنيا وأمورُ الآخرةِ، وهو فرعٌ مِن الماضي والمستقبلِ. وقيلَ: المحسوساتُ والمعقولاتُ. وأيًّا ما كانَ ... المقصودُ عمومُ العلمِ بسائرِ الكائناتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢).

(٢) قال القرطبي: (والملائِكةُ يَشفَعونَ غَدًا في الآخرةِ، كما في صحيحِ مُسلمٍ وغَيرِه، وفي الدُّنيا أيضًا؛ فإنَّهم يَستَغفِرونَ للمؤمنينَ ولِمَن في الأرض، كما نصَّ عليه التنزيلُ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١).

وقال ابن جُزَي: (يحتمِلُ أن تكونَ هذه الشَّفاعةُ في الآخرةِ، أو في الدنيا وهي استغفارُهم لِمَن في الأرضِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥١).

يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦].

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾.

أي: والملائِكةُ لأجْلِ خَوفِهم مِن اللهِ حَذِرونَ مِن أن يعصُوه، فيَحِلَّ بهم غَضَبُه وعِقابُه[1].

كما قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠].

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أن وصَفَ اللهُ تعالى كرامةَ الملائِكةِ عليه وأثنَى عليهم، وأضاف إليهم تلك الأفعالَ السَّنيَّةَ؛ فجاء بالوَعيدِ الشَّديدِ، وأنذر بعذابِ جَهنَّمَ مَن ادَّعى منهم أنَّه إلهٌ[2].

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾.

أي: ومَن يَقُلْ مِن الملائِكةِ -على سَبيلِ الفَرضِ: إنِّي إلهٌ معبودٌ من دونِ اللهِ؛ فسنُعاقِبُه بإدخالِه جهنَّمَ[3].

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: كما نجزي مَن قال مِن الملائكةِ: إنِّي إلهٌ مِن دونِ اللهِ -على فرضِ وقوعِه-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٢).

نَجزي أيضًا كلَّ من ظلَمَ نفسَه بوَضْعِه العبادةَ في غيرِ مَوضِعها، فأشرك باللهِ وعبَدَ غَيرَه(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- لا يَنْبغي لعاقلٍ أنْ يتعرَّضَ لعلمِ ما لم يُعلِمْنا اللهُ ورسولُه، ويتضِحْ معقولُه ومنقولُه، وإلى ذلك الإشارةُ بقولِه تعالَى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾(٢).

٢- في قولِه تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أنَّ كمالَ المخلوقِ في تحقيقِ عبوديتِه لله تعالى، وكلَّما ازداد العبدُ تحقيقًا للعبوديةِ ازداد كمالُه، وعلَتْ درجتُه، ومَن توهَّم أنَّ المخلوقَ يخرجُ عن العبوديةِ بوجهٍ مِن الوجوهِ، وأنَّ الخروجَ عنها أكملُ؛ فهو مِن أجهلِ الخلقِ وأضلِّهم(٣).

٣- قال الله تعالى عن الملائكةِ: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ والصَّادِرُ عنهم إمَّا قَولٌ وإمَّا عمَلٌ؛ فالقَولُ لا يَسبِقونَه به، بل لا يقولونَ حتى يقولَ، ولا يَشفَعونَ إلَّا لِمَن ارتضَى، وعلينا أن نكونَ معه ومع رسُلِه هكذا؛ فلا نقولُ في الدِّينِ حتى يقولَ، ولا نتقَدَّمُ بين يَدَيِ اللهِ ورَسولِه، ولا نَعبُدُه إلَّا بما أمرَ، وأعلَى مِن هذا ألَّا نعمَلَ إلَّا بما أمَرَ، فلا تكونُ أعمالُنا إلَّا واجِبةً أو مُستَحَبَّةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((إيثار الحق على الخلق)) لابن الوزير (ص: ١١).

(٣) يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز الحنفي (ص: ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٦٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ هذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ كُتُبَ اللهِ لا تَخْلو مِن البراهينِ المحتاجِ اليها في أمرِ الدِّينِ، فلا يجوزُ خُلُوُّ كتبِ الله تعالى وسننِ أنبيائِه عن أمرٍ كبيرٍ مِن مهمَّاتِ الدينِ العقليةِ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]؛ فثبَت أنَّ ما خلَتْ عنه كتبُ الله تعالى فليس مِن مهمَّاتِ الدينِ، وأنَّ زيادتَه في الدينِ محرَّمةٌ[١].

٢- أكثرُ إعراضِ الخَلقِ عن الحَقِّ مِن عَدَمِ مَعرفةِ الحَقِّ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[٢]. وذلك على أحدِ القولين في معنى الآيةِ.

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ أنَّ المقصودَ الأعظمَ مِن بعثتِه صلَّى الله عليه وسلَّم -بل مِن بعثةِ الرسلِ مِن قبلِه- هو أن يُعبَدَ اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، بل هذا هو المقصودُ مِن خَلقِ الخلقِ وإيجادِهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٣] [الذاريات: ٥٦].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ أنَّ دينَ الأنبياءِ واحدٌ، وهنا سؤالٌ عن الجمعِ معَ قولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((إيثار الحق على الخلق)) لابن الوزير (ص:١١، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((الحكم الجديرة بالإذاعة)) لابن رجب (ص: ١٢).

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؟

الجواب: أنَّ الشِّرعةَ العمليةَ تختلفُ باختلافِ الأممِ أو الأماكنِ والأزمنةِ، وأمَّا أصلُ الدِّينِ فواحدٌ، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[1] [الشورى: ١٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ في هذه الآيةِ إظهارٌ لعِنايةِ اللهِ تعالى بإزالةِ الشِّركِ مِن نُفوسِ البَشَرِ وقَطعِ دابِرِه؛ إصلاحًا لِعُقولِهم بأن يُزالَ منها أفظَعُ خَطَلٍ، وأسخَفُ رأيٍ، ولم تَقطَعْ دابِرَ الشِّركِ شَريعةٌ كما قَطَعه الإسلامُ[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَنَا۠﴾ في قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ وقولُه تعالى: ﴿هُوَ﴾ في قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢] كلاهما ضميرُ رفعٍ منفصلٍ، وكما أنَّ الذاكرَ لا يجعلُ «أنا» اسمًا لله؛ فلا يجوزُ أن يجعلَ «هو» اسمًا لله! وبهذا نعرفُ بطلانَ ذكرِ الصوفيةِ الذين يذكرونَ الله بلفظِ: «هو، هو»، ويرونَ أنَّ هذا الذكرَ أفضلُ الأذكارِ! وهو ذكرٌ باطلٌ[3].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ المِلكيةَ والوِلادةَ لا يجتمعانِ[4]، وقد جرَت العادةُ في القرآنِ بأنَّ الله يرُدُّ على الكفرةِ في ادِّعاءِ الولدِ بأنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ، وأنَّ الخلقَ عبيدُه؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٩).

العبدَ لا يمكنُ أن يكونَ ولدًا! ومِن هذه الآياتِ القرآنيةِ أخَذ العلماءُ أنَّ الإنسانَ إذا ملَك ولدَه -بأنْ تزوَّج أَمَةً لغيرِه، وكان ولدُه رقيقًا واشتراه- أنَّه يعتقُ عليه بنفْسِ الملكِ، ولا يمكنُ أن يملكَه؛ لأنَّ الملكيةَ والولديةَ متنافيانِ[1].

٨- في قوله تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ * لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ أنَّ إبليسَ اللعينَ لمَّا كان قد عصَى اللهَ ما أمَره؛ دلَّ على أنَّه ليس مِن العبادِ المكرَمينَ، الذين هم الملائكةُ[2].

٩- تكاليفُ الشريعةِ بعضُها مبنيَّةٌ على النصوصِ، وبعضُها على الاستنباطِ، أما تكاليفُ الملائكةِ فمبنيَّةٌ على النصوصِ؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾[3].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ دليلٌ على كمالِ طاعةِ الملائكةِ وانقيادِهم[4].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الملائِكةَ معصومونَ؛ لأنَّه قال: ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾[5].

١٢- الملائكةُ لا يفعلونَ ما يكونُ مِن جنسِ المباحاتِ والمنهيَّاتِ! بل لا يفعلونَ إلَّا ما هو مِن الطاعاتِ؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾[6].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((الحبائك في أخبار الملائك)) للسيوطي (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٦).

(٦) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٤٥٩).

١٣- في قولِه تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أنَّ الملائكةَ موكَّلونَ بأعمالٍ يقومونَ بها، كما أمَر الله تعالى بها[1].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ هذه الآيةُ مِن أدِلَّةِ إثباتِ الشَّفاعةِ، وأنَّ الملائِكةَ يَشفَعونَ[2].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ بيَّنَ أنَّهم لا يَشفَعونَ إلَّا لِمَن ارتضَى الربُّ، فعُلِمَ أنَّه لا بُدَّ أن يُؤْذَنَ لهم فيمَن يَشفَعونَ فيه، وأنَّهم لا يُؤْذَنُ لهم إذْنٌ مُطلَقٌ[3].

١٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، وكذا قولُه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]- لا يردُ عليه شفاعةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في أبي طالبٍ؛ لأنَّها ليست شفاعةً في خروجِه مِن النارِ؛ بل هي شفاعةٌ في تخفيفِ العذابِ عنه[4].

١٧- في قولِه تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ أنَّ الخوفَ ليس موقوفًا على ظنِّ الخائفِ أنَّ الله يعذِّبُه في الآخرةِ، ولا على تجويزِه لذلك؛ فإنَّ الملائكةَ والأنبياءَ قد أمِنوا مِن الموتِ على الكفرِ؛ وهم مع ذلك أخوفُ الخلقِ لله[5].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا

---

(١) يُنظر: ((التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية)) للفوزان (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الطحاوية)) للبراك (ص: ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((العواصم والقواصم)) لابن الوزير (٢/ ٢٧٣).

﴿يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ذَكَرَ هذا الوعيدَ في الملائكةِ وخَصَّهم بالذِّكرِ؛ تنبيهًا على أنَّ دعوى الإلهيَّةِ لا تجوزُ لأحدٍ مِن المخلوقينَ: لا ملَكٍ ولا غَيرِه، وأنَّه لو قُدِّرَ وقوعُ ذلك مِن مَلَكٍ مِن الملائكةِ، لكان جزاؤه جهنَّمَ، فكيف مَن دُونَهم[1]؟!

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ هذه الآياتُ تدُلُّ على كَونِ الملائكةِ مُكَلَّفينَ، مِن حَيثُ قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾، ومن حيثُ الوَعيدُ[2].

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ هذا دَليلٌ على أنَّ الملائِكةَ وإن أُكرِموا بالعِصمةِ، فهم مُتَعَبَّدونَ، وليسوا مُضْطَرِّينَ إلى العبادةِ[3].

٢١- قَولُه تعالى في هذه الآيةِ الكَريمةِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ دليلٌ قاطِعٌ على أنَّ حُقوقَ الله الخالِصةَ له مِن جَميعِ أنواعِ

---

(١) يُنظر: ((الاستغاثة)) لابن تيمية (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٦).

قال السفاريني: (الكتابُ والسُّنةُ ظاهرُهما تكليفُ الملائكةِ). ((لوامع الأنوار البهية)) (٢/ ٤١٠).

وقال الأشقر: (إنَّ الملائِكةَ لَيسُوا بمُكلَّفينَ بالتَّكاليفِ نَفْسِها التي كُلِّفَ بها أبناءُ آدَم، أمَّا القَولُ بعَدَمِ تكليفِهم مُطلَقًا، فهو قولٌ مَردودٌ؛ فهم مأمورونَ بالعبادةِ والطَّاعةِ). ((عالم الملائكة الأبرار)) (ص: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٢).

العبادةِ لا يجوزُ أن يُصرَفَ شَيءٌ منها لأحَدٍ، ولو مَلَكًا مُقرَّبًا، أو نبيًّا مُرسَلًا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ كرَّرَه استعظامًا لكُفرِهم، واستفظاعًا لأمْرِهم، وتَبكيتًا وإظهارًا لجَهْلِهم، أو ضَمًّا لإنكارِ ما يكونُ لهم سَندًا من النَّقلِ إلى إنكارِ ما يكونُ لهم دليلًا منَ العقلِ، على معنى: أوجَدوا آلِهةً يُنشِرونَ الموتى، فاتَّخَذوهم آلهةً لَمَّا وَجَدوا فيهم من خواصِّ الأُلوهيَّةِ، أو وَجَدوا في الكُتبِ الإلهيَّةِ الأمْرَ بإشراكِهم، فاتَّخَذوهم مُتابعةً للأمرِ؟! ويُعضِّدُ ذلك أنَّه رَتَّبَ على الأوَّلِ ما يدُلُّ على فَسادِهِ عَقْلًا، وعلى الثَّاني ما يدُلُّ على فَسادِه نَقْلًا[٢].

- وهو تأكيدٌ لجُملةِ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنبياء: ٢١]؛ أكَّدَ ذلك الإضرابَ الانتقاليَّ بمِثْلِه؛ استعظامًا لِفَظاعتِه، وليُبْنى عليه استدلالٌ آخَرُ[٣]. وزاد في هذا التَّوبيخِ قولَه: ﴿مِن دُونِهِۦٓ ﴾؛ فكأنَّه وبَّخَهم على قَصْدِ الكُفْرِ باللهِ عَزَّ وجَلَّ، ثمَّ دعاهمْ إلى الإتيانِ بالحُجَّةِ على ما اتَّخذوا، ولا حُجَّةَ تقومُ على أنَّ للهِ تعالى شَريكًا؛ لا من جِهَةِ العقْلِ، ولا مِن جِهَةِ النَّقلِ[٤].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢١).

- قولُه: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾، أي: قُلْ لهم بطَريقِ التَّبكيتِ وإلْقامِ الحجَرِ. وفي إضافةِ البُرهانِ إلى ضَميرِهم -إشعارًا بأنَّ لهم بُرهانًا- ضَرْبٌ من التَّهكُّمِ بهم(٥).

- قولُه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾ فيه تَبكيتٌ لهم مُتضمِّنٌ لإثباتِ نَقيضِ مُدَّعاهم(٦). والإشارةُ في قولِه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾ إلى مُقدَّرٍ في الذِّهْنِ يُفسِّرُه الخبَرُ. والمقصودُ من الإشارةِ تَمييزُه وإعلانُه بحيث لا يَستطيعُ المُخاطَبُ المُغالَطةَ فيه ولا في مَضمونِه(٧).

- قولُه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ إضْرابٌ من جِهَتِه تعالى غيرُ داخِلٍ في الكلامِ المُلقَّنِ، وانتقالٌ من الأمْرِ بتَبكيتِهم بمُطالَبةِ البُرهانِ إلى بَيانِ أنَّه لا يَنجَحُ فيهم المُحاجَّةُ بإظهارِ حَقِّيَّةِ الحقِّ، وبُطلانِ الباطلِ. وإنَّما أسنَدَ هذا الحُكْمَ إلى أكثرِهم لا لجَميعِهم؛ تَسجيلًا عليهم بأنَّ قليلًا منهم يَعْلمون الحقَّ ويَجْحَدونه، أو إيماءً إلى أنَّ قليلًا منهم تهيَّأَت نُفوسُهم لقَبولِ الحقِّ(٨).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ الجُملةُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِما أُجْمِلَ فيما قبْلَه، مِن كونِ التَّوحيدِ ممَّا نطقَتْ به الكُتبُ الإلهيَّةُ، وأجْمَعَتْ عليه الرُّسلُ عليهم السَّلامُ. وصِيغَةُ المُضارِعِ ﴿نُوحِيٓ﴾ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استحضارًا لصُورةِ الوحيِ(٩).

---

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٧).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٨).

(٩) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣).

- وحَرْفُ (مِن) في قولِه: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ مَزيدٌ؛ لتَوكيدِ النَّفيِ[1].

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فرَّعَ فيما أُوحِيَ إليهم أمْرَه إيَّاهم بعِبادتِه على الإعلانِ بأنَّه لا إلهَ غيرُه؛ فكان استحقاقُ العِبادةِ خاصًّا به تعالى[2].

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ حِكايةٌ لجِنايةِ فَريقٍ من المُشرِكينَ؛ جِيءَ بها لإظهارِ بُطلانِها، وبَيانِ تَنزُّهِه تعالى عن ذلك إثْرَ بَيانِ تَنزُّهِه سُبحانه عن الشُّركاءِ على الإطلاقِ. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ المُنْبئةِ عن كونِ جَميعِ ما سِواهُ تعالى مَرْبوبًا له تعالى نِعمةً أو مُنْعَمًا عليه؛ لإبرازِ كَمالِ شَناعةِ مَقالتِهم الباطلةِ[3].

- قولُه: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ فيه إضرابٌ وإبطالٌ لِما قالوهُ[4]، وأعقَبَ حَرْفَ الإضرابِ عن قولِهم بالإخبارِ بأنَّهم عِبادٌ دونَ ذِكْرِ المُبتدأِ؛ للعِلْمِ به. والتَّقديرُ: بلِ الملائكةُ عِبادٌ مُكْرَمونَ[5].

- وفي قولِه: ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ تَنبيهٌ على منشَأِ غلَطِ القومِ[6].

٤- قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣).

- قولُه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ صِفَةٌ أُخْرى لـ﴿عِبَادٌ﴾، مُنْبِئةٌ عن كَمالِ طاعتِهم وانقيادِهم لأمْرِه تعالى؛ وأصْلُه: لا يَسبِقُ قولُهم قولَه تعالى؛ فأسنَدَ السَّبقَ إليهم مَنسوبًا إليه تعالى، تَنزيلًا لسَبْقِ قولِهم قولَه تعالى مَنزلةَ سَبْقِهم إيَّاهُ تعالى؛ لمَزيدِ تَنزيهِهم عن ذلك، وللتَّنبيهِ على غايةِ استهجانِ السَّبقِ المُعرَّضِ به للَّذينَ يَقولون ما لا يَقولُه اللهُ تعالى. وجعَلَ القولَ مَحَلًّا للسَّبقِ وأداةً له، ثُمَّ أُنيبَت (أل) عن الإضافةِ في قولِه: ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾؛ للاختصارِ والتَّجافي عنِ التَّكرارِ، وفيه مَزيدُ استهجانٍ للسَّبْقِ، وإشعارٌ بأنَّ مَن سبَقَ قولُه قولَه تعالى، فقد تَصدَّى لِمُغالَبتِه تعالى في السَّبقِ، فسبَقَه فغلَبَه والعياذُ باللهِ تعالى، وزِيادةُ تَنزيهٍ لهم عمَّا نُفِيَ عنهم ببَيانِ أنَّ ذلك عندَهم بمَنزلةِ الغَلبةِ بعْدَ المُغالَبةِ، فأنَّى يُتوهَّمُ صُدورُه عنهم[1]؟!

- وأيضًا نفْيُ السَّبْقِ في قولِه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ كِنايةٌ عنِ التَّعظيمِ والتَّوقيرِ[2].

- قولُه: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ بَيانٌ لتَبعيَّتِهم له تعالى في الأعمالِ إثْرَ بَيانِ تَبعيَّتِهم له تعالى في الأقوالِ؛ فالقصْرُ المُستفادُ من تَقديمِ الجارِّ ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ مُعْتبَرٌ بالنِّسبةِ إلى غيرِ أمْرِه، لا إلى أمْرِ غيرِه[3].

٥- قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ استئنافٌ وقَعَ تَعليلًا لِما قبْلَه، وتَمهيدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥١).

لِما بعْدَه؛ فإنَّهم لإحاطتِهم بذلك يَضْبِطون أنفُسَهم، ويُراقِبون أحوالَهم[١].

- قولُه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ فيه تَخصيصٌ لبعْضِ ما شمَلَه ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ بالذِّكْرِ؛ اهتمامًا بشأْنِه؛ لأنَّه ممَّا كَفَروا بسبَبِه؛ إذ جَعَلوا الآلِهةَ شُفعاءَ لهم عندَ اللهِ[٢].

- قولُه: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ فيه تَقريرٌ لِزيادةِ تَعظيمِهم ربَّهم، أي: هم يُعظِّمونَه تعظيمَ مَن يَخافُ بَطْشَتَه، ويَحذرُ مُخالَفةَ أمْرِه. و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ للتَّعليلِ، أي: وهمْ لأجْلِ خَشْيَتِه، أي: خَشْيَتِهم إيَّاه[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ تَتميمٌ في غايةِ الحُسْنِ لضَبْطِ أنفُسِهم، ورِعايةِ أحوالِهم كلِّها سابِقِها ولاحِقِها[٤].

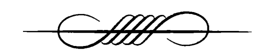
٦- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه مُفاجأةُ مَنِ ادَّعَى منهم أنَّه إلهٌ بالوعيدِ الشَّديدِ، وإنذارِه بعَذابِ جهنَّمَ، وذلك على سَبيلِ العرْضِ والتَّمثيلِ؛ وقُصِدَ بذلك تَفظيعُ أمْرِ الشِّرْكِ، وتَعظيمُ شأْنِ التَّوحيدِ[٥]، وفيه تَهديدُ المُشركينَ بتَهديدِ مُدَّعِي الرُّبوبيَّةِ[٦]. وفيه تَعريضٌ بالَّذين ادَّعَوا لهم الإلهيَّةَ بأنَّهم ادَّعَوا لهم ما لا يَرْضَونه ولا يَقولونَه، وأنَّهم ادَّعَوا ما يُوجِبُ لقائلِه نارَ جهنَّمَ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٢).

- وعدَلَ عن (إنْ) الشَّرطيَّةِ إلى (مَن) الشَّرطيةِ؛ للدَّلالةِ على العُمومِ معَ الإيجازِ، وأُدْخِلَ اسمُ الإشارةِ (ذلك) في جَوابِ الشَّرطِ؛ لتَحقيقِ التَّعليقِ بنِسْبَتِه الشَّرطَ لأداتِه؛ للدَّلالةِ على جَدارةِ مَضمونِ الجزاءِ بمَن ثبَتَ له مَضمونُ الشَّرْطِ[1].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (كذلك) مَصدرٌ تَشبيهيٌّ مُؤكِّدٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، والقصْرُ المُستفادُ مِن التَّقديمِ مُعتبَرٌ بالنِّسبةِ إلى النُّقصانِ دونَ الزِّيادةِ، أي: لا جَزاءً أنقَصَ منه[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٤).

الآيات (٣٠-٣٣)

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَتْقًا﴾: أي: مُصْمَتتيْنِ، أو: مُنسَدَّتَينِ مُلتَئِمَتَينِ، والرتقُ: الضَّمُّ والالتِحامُ[١].

﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾: أي: صَدَعْناهما، وفَرَجْناهما، والفَتقُ: الفَصلُ بين المتَّصِلَينِ، وهو ضِدُّ الرَّتقِ، وأصلُ (فتق): يدُلُّ على فَتحٍ في شَيءٍ[٢].

﴿رَوَاسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابِتَ، والرَّواسي: جمعُ راسيةٍ، وهي الثابتةُ، وأصلُ (رسي): يدُلُّ على ثباتٍ[٣].

﴿تَمِيدَ﴾: أي: تميلَ وتتحرَّكَ، وأصلُ (ميد): يدُلُّ على حَرَكةٍ في شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٧١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

﴿فِجَاجًا﴾: أي: مَسالِكَ وطُرُقًا، ومفردُه: فَجٌّ، وكلُّ فَتحٍ بينَ جَبَلينِ أو شَيئَينِ فهو فجٌّ، ويُستعمَلُ في الطَّريقِ الواسعِ، وأصلُ (فجج): يدُلُّ على تفتُّحٍ وانفِراجٍ[1].

﴿سُبُلًا﴾: أي: طُرُقًا، جمعُ سبيلٍ، وسُمِّي الطَّريقُ بذلك؛ لامتِدادِه، والسَّبيلُ: الطَّريقُ الذي فيه سهولةٌ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شيءٍ[2].

﴿فَلَكٍ﴾: الفَلَكُ: مَدارُ النُّجومِ الذي يضُمُّها، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استدارةٍ في شَيءٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أولَمْ يعلَمْ هؤلاء الذين كَفَروا أنَّ السَّمَواتِ كانت مُصمَتةً لا تُمطِرُ، والأرضَ مُصمَتةً لا تُنبِتُ، فصَدَعْنا السَّماءَ فأمطَرَت، وشقَقْنا الأرضَ فأنبَتَت، وخلَقْنا من الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ. أفلا يؤمِنُ هؤلاء الجاحِدونَ فيُصَدِّقوا بما يُشاهِدونَه، ويُقِرُّوا باستِحقاقِ اللهِ وحْدَه للعبادةِ؟

وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا تُثَبِّتُها حتى لا تَضْطَرِبَ، وجعَلْنا فيها طُرُقًا واسِعةً؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٥، ٦٢)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٩٥).

قال الواحدي: (وقولُه تعالى: ﴿سُبُلًا﴾ تفسيرٌ للفِجاجِ، وبيانٌ له. وفائِدتُه أنَّ الفَجَّ في موضوعِ اللُّغةِ يجوزُ أنَّه لا يكونُ طريقًا نافذًا مَسلوكًا، فلمَّا ذَكَر الفِجاجَ بيَّن أنَّه جعَلَها سُبُلًا نافِذةً مَسلوكةً). ((البسيط)) (١٥/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

ليهتديَ الخَلقُ إلى السَّيرِ في الأرضِ والتنقُّلِ في البلدانِ؛ لتحصيلِ مَعايِشِهم، وليهتدوا إلى دلائلِ وحدانيَّةِ خالِقِهم وقدرتِه، وجعَلْنا السَّماءَ سَقفًا محفوظًا مِن السقوطِ عليهم، ومحفوظًا من الشَّياطينِ. والكُفَّارُ عن الاعتبارِ بآياتِ السَّماءِ غافِلونَ لاهونَ عن التَّفكُّرِ فيها.

واللهُ تعالى هو الذي خلق اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ، ولكلٍّ منها فلَكٌ يجري فيه ويَسبَحُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾.

أي: أولَمْ يَنظُرِ الكُفَّارُ فيَعلَموا أنَّ السَّماءَ كانت مُصْمَتةً لا تُمطِرُ، والأرضَ كانت مُصمَتةً لا تُنبِتُ، فصَدَعْنا السَّماءَ فأمطَرَت، وشقَقْنا الأرضَ فأنبَتَتْ[1]؟!

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤١).

قال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ العُلَماءَ اختلفوا في المرادِ بالرَّتقِ والفَتقِ في هذه الآيةِ على خمسةِ أقوالٍ، بعضُها في غايةِ السُّقوطِ، وواحِدٌ منها تدُلُّ له قرائِنُ مِن القرآنِ العظيمِ... وهو كونُهما كانتا رتقًا بمعنى أنَّ السَّماءَ لا ينزِلُ منها مطَرٌ، والأرضَ لا تُنبِتُ شيئًا، ففَتَق اللهُ السَّماءَ بالمطَرِ، والأرضَ بالنَّباتِ، وقد دَلَّت عليه قرائِنُ مِن كتابِ الله تعالى:

الأولى: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ يدُلُّ على أنَّهم رأَوا ذلك؛ لأنَّ الأظهَرَ في «رأى» أنَّها بَصَريَّةٌ، والذي يَرَونه بأبصارِهم هو أنَّ السَّماءَ تكونُ لا ينزِلُ منها مطَرٌ، والأرضَ ميِّتةٌ هامِدةٌ لا نباتَ فيها، فيُشاهِدونَ بأبصارِهم إنزالَ اللهِ المطَرَ، وإنباتَه به أنواعَ النَّباتِ.

القرينةُ الثَّانيةُ: أنَّه أتبَعَ ذلك بقَولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، والظَّاهِرُ =

= اتِّصالُ هذا الكلامِ بما قَبلَه، أي: وجعَلْنا من الماءِ الذي أنزَلْناه بفَتْقِنا السَّماءَ، وأنبَتْنا به أنواعَ النَّباتِ بفَتْقِنا الأرضَ: كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ.
القرينةُ الثَّالثةُ: أنَّ هذا المعنى جاء مُوضَّحًا في آياتٍ أُخَرَ مِن كتابِ اللهِ تعالى؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ * وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]؛ لأنَّ المرادَ بالرَّجْعِ نُزولُ المطَرِ منها تارةً بعد أخرى، والمرادَ بالصَّدعِ انشقاقُ الأرضِ عن النَّباتِ، وكقَولِه تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا * ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾ [عبس: ٢٤ - ٢٦] الآية). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٨).
ونسب الألوسي هذا القول إلى أكثر المفسرين. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٥).
قال الألوسي: (والمرادُ بالسَّمَواتِ جِهةُ العُلُوِّ أو سماءُ الدُّنيا، والجَمعُ باعتبارِ الآفاقِ، أو من بابِ: «ثَوبٌ أخلاقٌ». وقيل: هو على ظاهِرِه، ولكُلٍّ مِن السَّمَواتِ مَدخَلٌ في المطَرِ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٥).
وقال الرسعني: (إن قيل: متى رأوهما رَتْقًا حتى قرَّرهم بذلك؟ قلتُ: قد رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ معناه: كانت السَّماءُ رَتْقًا لا تُمطِرُ، وكانت الأرضُ رَتْقًا لا تُنبِتُ، ففَتَقْنا هذه بالمطَرِ، وهذه بالنَّباتِ. وهذا قَولُ عطاءٍ، وعِكرمةَ، والضَّحَّاكِ، ومجاهدٍ في روايةٍ عنه. وهذا ممَّا رأَوه وشاهَدوه.
فإنْ قيل: فما نصنَعُ بما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ، والحسَنِ، وسَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وقتادةَ: أنَّ المعنى: كانتا رتقًا مُلتصقَتَينِ، ففتَقَهما اللهُ عزَّ وجَلَّ... وهذا شيءٌ لم يَرَوه، فما وجهُ تقريرِهم به؟ قلتُ: الرؤيةُ هاهنا بمعنى: العِلمِ.
فإنْ قيل: مِن أين عَلِموا ذلك؟ قلتُ: بما قَصَّ عليهم في القُرآنِ الذي هو مُعجِزٌ في نفْسِه، وجائزٌ أن يكونَ العِلمُ بذلك ممَّا تناقَلوه وبَقِيَ في أيديهم مِنَ الشَّريعةِ الحنيفيَّةِ، أو مِمَّا سَمِعوه ووَعَوه من أهلِ الكتابِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٠٩).
قال ابن عاشور: (والرَّتقُ يحتَمِلُ أن يرادَ به معانٍ تَنشأُ على محتَمَلاتِها معانٍ في الفَتْقِ؛ فإنِ اعتبَرْنا الرُّؤيةَ بصريةً فالرَّتقُ المشاهَدُ هو ما يُشاهِدُه الرَّائي من عدمِ تخَلُّلِ شَيءٍ بين أجزاءِ السَّمَواتِ وبين أجزاءِ الأرضِ، والفَتقُ هو ما يُشاهِدُه الرَّائي من ضِدِّ ذلك حين يرى المطَرَ نازِلًا من السَّماءِ، ويرى البَرْقَ يَلعَجُ منها، والصَّواعِقَ تَسقُطُ منها، فذلك فَتْقُها، وحين يرى انشِقاقَ الأرضِ بماءِ المطَرِ، وانبثاقَ النَّباتِ والشَّجرِ منها بعد جَفافِها، وكُلُّ ذلك مُشاهَدٌ مَرئيٌّ دالٌّ على تصَرُّفِ الخالقِ... وإن اعتبَرْنا الرُّؤيةَ علميَّةً احتَمَل أن يُرادَ بالرَّتقِ مِثلُ ما أُريدَ به على اعتبارِ كونِ الرُّؤيةِ بَصَريَّةً... =

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: ٢٤ - ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ * وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢].

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

أي: وخَلَقْنا من الماءِ كُلَّ شَيءٍ فيه حياةٌ[1].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي إذا رأيتُك طابَتْ نَفسي، وقرَّتْ عيني، فأنبِئْني عن كُلِّ شَيءٍ، فقال: كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ))[2].

= واحتَمَل أن يرادَ بالرَّتقِ معانٍ غيرُ مُشاهدةٍ، ولكنَّها ممَّا ينبغي طلَبُ العِلمِ به؛ لِما فيه من الدَّلائِلِ على عِظَمِ القُدرةِ وعلى الوحدانيَّةِ، فيَحتَمِلُ أن يرادَ بالرَّتقِ والفَتقِ حقيقتاهما، أي: الاتِّصالُ والانفِصالُ. ثمَّ هذا الاحتِمالُ يجوزُ أن يكونَ على معنى الجُملةِ، أي: كانت السَّمَواتُ والأرضُ رَتقًا واحِدًا، أي: كانتا كُتلةً واحِدةً، ثمَّ انفَصَلت السَّمَواتُ عن الأرضِ... ويجوزُ على هذا الاحتِمالِ أن يكونَ الرَّتقُ والفَتقُ على التَّوزيعِ، أي: كانت السَّمَواتُ رَتقًا في حَدِّ ذاتِها، وكانت الأرضُ رَتقًا في حَدِّ ذاتِها، ثمَّ فتق اللهُ السَّمَواتِ، وفَتَق اللهُ الأرضَ).
إلى أن قال: (والظَّاهِرُ أنَّ الآيةَ تَشمَلُ جميعَ ما يتحقَّقُ فيه معاني الرَّتقِ والفَتقِ؛ إذ لا مانِعَ مِن اعتبارِ معنًى عامٍّ يجمَعُها جميعًا، فتكونُ الآيةُ قد اشتمَلَت على عِبرةٍ تَعُمُّ كُلَّ النَّاسِ، وعلى عِبرةٍ خاصَّةٍ بأهلِ النَّظَرِ والعِلمِ، فتكونُ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ العِلميَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٣-٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٣٩)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٣، ٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٣٢)، وابن حبان (٢٥٥٩)، والحاكم (٧٢٧٨).
صَحَّح إسنادَه الحاكِمُ، وقال ابن كثير في ((التفسير)) (٥/ ٣٤٠): إسنادُه على شرطِ الصَّحيحَينِ، إلَّا أنَّ أبا ميمونةَ مِن رجال السُّنَن. وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ١٩): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ خلا أبا ميمونةَ، وهو ثقة. ووثَّقَ رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) =

﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: أفلا يُؤمِنُ الذين كفَروا بما يُشاهِدونَه، فيَستَدِلُّوا به على وُجودِ الصَّانِعِ الفاعِلِ، المختارِ القادِرِ، ويُقِرُّوا باستحقاقِه وَحْدَه للعبادةِ، ولا يُشرِكوا به شَيئًا[1]؟

﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدَ أن ذكَرَ اللهُ تعالى دليلَينِ مِن دلائِلِ التَّوحيدِ، وهي مِنَ الأدِلَّةِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ؛ ذكَرَ هنا دليلًا آخَرَ مِن الدَّلائِلِ الأرضيَّةِ، فقال[2]:

﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾.

أي: وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثابِتةً؛ لئلَّا تضطَرِبَ الأرضُ بهم[3].

كما قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ [النمل: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ [المرسلات: ٢٧].

= (٥/ ٤٨١)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حَجَرٍ في ((فتح الباري)) (٥/ ٣٦)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٥/ ٧٢)، والألباني في ((إرواء الغليل)) (١/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: أولَمْ يَرَ هؤلاء الكفَّارُ أيضًا مِن حُجَجِنا عليهم وعلى جميعِ خَلْقِنا: أنَّا جعَلْنا في الأرضِ جِبالًا راسيةً؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١).

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

أي: وجعَلْنا فيها[1] طُرُقًا واسِعةً سَهلةً؛ لِيَهتَدوا إلى السَّيرِ في الأرضِ، والوصولِ إلى مطالبِهم مِن البلدانِ، ولِيَهتَدوا إلى ما فيها مِن دلائِلِ وحدانيَّةِ خالِقِها وقُدرَتِه، وتفرُّدِه بأوصافِ الكَمالِ[2].

---

(١) قيل: الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ يعودُ على الأرضِ، فيدخُلُ فيها الجِبالُ وغَيرُها. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، واختاره ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠).

وقيل: الضميرُ يعودُ على الجبالِ. وممَّن قال بذلك: القرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال الماوردي: (﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فيه وجهان: أحدُهما: سُبُلُ الاعتبارِ؛ لِيَهتَدوا بالاعتبارِ بها إلى دينِهم. الثاني: مَسالِك لِيَهتَدوا بها إلى طُرُقِ بلادِهم). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٤٥).

وممن اختار الوجهَ الثاني: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥).

وقال ابن عاشور: (وَجُمْلَةُ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مُستأنفةٌ إنشاءً؛ رَجاءَ اهتداءِ المشركينَ إلى وحدانِيَّةِ اللَّهِ؛ فإنَّ هذه الدَّلائِلَ مُشاهَدةٌ لهم، واضحةُ الدَّلَالةِ. ويجوزُ أن يُرادَ بالاهتداءِ: الاهتداءُ في السَّيْرِ، أي جعَلْنا سُبُلًا واضحةً، غيرَ محجوبةٍ بالضِّيقِ؛ إرادةَ اهتدائِهم في سَيرِهم، فتكونُ هذه مِنَّةً أُخرَى، وهو تدبيرُ اللَّهِ الأشياءَ على نحوٍ ما يلائِمُ الإنسانَ وَيُصْلِحُ أحوالَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٧).

وممن جمَع بينَ القولينِ: البقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال البقاعي: (﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى منافعِهم في ديارِهم وغيرِها، وإلى ما فيها مِن دلائِلِ الوَحدانيَّةِ وغيرِها، فيَعلَموا أنَّ وُجودَها لو كان بالطبيعةِ كانت على نَمطٍ واحدٍ مُساويةً للأرضِ، مُتساويةً في الوَصفِ، وأنَّ كَونَها على غيرِ ذلك دالٌّ على أنَّ صانِعَها قادرٌ مُختارٌ، مُتفرِّدٌ بأوصافِ الكَمالِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤١٤).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دَلَّهم اللهُ تعالى بالسَّمَواتِ والأرضِ على عَظَمتِه، ثم فصَّلَ بَعضَ ما في الأرضِ لِمُلابستِهم له، وخَصَّ الجبالَ؛ لِكَثرتِها في بلادِهم- أتبَعَه السَّماءَ[1]، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

أي: وجعَلْنا السَّماءَ سَقفًا للأرضِ مَحفوظًا من السُّقوطِ عليهم، ومحفوظًا من الشَّياطينِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٤، ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

ممن اختار أنَّ معنى ﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي: مِن الوقوعِ والسقوطِ على الأرضِ: السمعانيُّ، والبغوي، والرازي، والقرطبي، والخازن، والعُليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٤).

وممن اختار أنَّ معنى ﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي: بالنُّجومِ مِن الشَّياطينِ: الفراءُ، وابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

أي: وهم عن آياتِ السَّماءِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وكَمالِ قُدرَتِه وحِكمَتِه وصِفاتِه، واستِحقاقِه للعبادةِ وَحْدَه- مُعرِضُون عن التفكُّرِ والتدبُّرِ فيها[1].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، فصَّل تلك الآياتِ هاهنا[2]، فقال:

= وممن جمع بين المعنيين السابقين: ابنُ جزي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢).

قال ابن عطية: (والحفظُ هنا عامٌّ في الحفظِ مِن الشياطينِ ومِن الرميِ وغيرِ ذلك مِن الآفاتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٨، ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٠).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الذي خلَقَ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ، وفيها دَلالاتٌ على عَظيمِ سُلطانِه، وأنَّ العبادةَ له دونَ كُلِّ ما سواه، ولِينتَفِعَ النَّاسُ بها في شُؤونِ دينِهم ودُنياهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢].

﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

أي: كلٌّ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ في فلَكٍ دائرٍ، يجْرونَ بسُرعةٍ كالسَّابِحِ في الماءِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤١).

قال ابن تيميَّة: (الأفلاكُ مُستديرةٌ، كما أخبَرَ اللهُ ورَسولُه، وكما ذكَرَ ذلك علماءُ المُسلِمينَ وغَيرُهم. فذكر أبو الحُسينِ ابن المنادي، وأبو محمد بن حزم، وأبو الفرج بن الجوزي، وغَيرُهم: إجماعَ المُسلِمينَ على أنَّ الأفلاكَ مُستَديرةٌ. وقال ابنُ عبَّاسٍ في قوله: ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ قال: في فَلَكةٍ مِثلِ فَلَكةِ المِغزَلِ، والفَلَكُ في لغةِ العَرَبِ: الشَّيءُ المستديرُ). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٥٩٥).

كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وكذلك قَولُه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ دلَّ على خَلقِ جَميعِ ما فيه حياةٌ وما يَدِبُّ مِن ماءٍ، وأنَّ الماءَ مادَّةُ جَميعِ الحيواناتِ؛ فعُلِمَ بذلك أنَّ أصلَ جَميعِها الماءُ المُطلَقُ، ولا ينافي هذا قَولُه تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وقَولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَت الملائِكةُ مِن نورٍ))[١]؛ فإنَّ حَديثَ أبي هريرةٍ ((كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ))[٢] دَلَّ على أنَّ أصلَ النُّورِ والنَّارِ الماءُ، كما أنَّ أصلَ التُّرابِ الذي خُلِقَ منه آدَمُ الماءُ؛ فإنَّ آدَمَ خُلِقَ مِن طينٍ، والطينُ تُرابٌ مُختَلِطٌ بماءٍ، أو التُّرابُ خُلِقَ مِن الماءِ، كما جاء عن ابنِ عَبَّاسٍ وغَيرِه[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه عِبرةٌ للنَّاسِ في أكثَرِ أحوالِه، وهو عِبرةٌ للمُتأمِّلينَ في دقائِقِه في تكوينِ الحيوانِ مِن الرُّطوباتِ، وهي تكوينُ التَّناسُلِ، وتكوينُ جَميعِ الحَيوانِ؛ فإنَّه لا يتكَوَّنُ إلَّا مِن الرُّطوبةِ، ولا يعيشُ إلَّا مُلابِسًا لها، فإذا انعَدَمت منه الرُّطوبةُ فقَدَ الحياةَ؛ ولذلك كان استِمرارُ الحُمَّى مُفضِيًا إلى الهُزالِ ثمَّ إلى الموتِ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١١١).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٣، ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ استفهامُ تَوبيخٍ لمَن ادَّعَى معَ اللهِ آلِهةً، ودَلالةٌ على تَنزيهِه عنِ الشَّريكِ، وتَوكيدٌ لِما تقدَّمَ مِن أدلَّةِ التَّوحيدِ، وردٌّ على عَبدةِ الأوثانِ[١]. أو همزةُ الاستفهامِ للإنكارِ على إهمالِهم للنَّظرِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقريريًّا[٣].

- قولُه: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ وإنَّما قيل: ﴿ كَانَتَا ﴾ دونَ (كُنَّ)؛ لأنَّ المُرادَ جماعةُ السَّمواتِ وجماعةُ الأرضِ[٤]. والإخبارُ عن السَّمَّواتِ والأرضِ بأنَّهما رَتْقٌ إخبارٌ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ في حُصولِ الصِّفَةِ، وإنَّما لم يقُلْ نحوَ: (فصارَتَا فَتْقًا)؛ لأنَّ الرَّتْقَ مُتمكِّنٌ منهما أشدَّ تَمكُّنٍ؛ لِيَستدِلَّ به على عَظيمِ القُدرةِ في فَتْقِهما، ولدَلالةِ الفِعْلِ على حَدثانِ الفَتْقِ؛ إيماءً إلى حُدوثِ الموجوداتِ كلِّها، وأنْ ليس منها أزليٌّ[٥]. وقيل: لم يقل (كانتا رتقين)؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ رتقٌ، كقولِه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ [الأنبياء: ٨]؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ جسدٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٧).

- وفي قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ -على القولِ بأنَّ (جَعَلْنا) بمعنى (صَيَّرنا)- قدَّمَ المفعولَ الثَّانيَ ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾؛ للاهتمامِ به، لا لمُجرَّدِ أنَّ المفعولينِ في الأصْلِ مُبتدأٌ وخَبَرٌ[1].

- قولُه: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ فُرِّعَ على ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾؛ إنكارًا عليهم عدَمَ إيمانِهم بوَحدانيَّةِ اللهِ[2].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ لعدَمِ إيمانِهم باللهِ وحْدَه، وفيه معنى التَّعجُّبِ مِن ضَعْفِ عُقولِهم، والفاءُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَستدعيهِ الإنكارُ السَّابقُ، أي: أيَعْلَمون ذلك، فلا يُؤمِنون[3]؟!

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا ...﴾ فيه تكريرُ الفِعْلِ (جَعَلَ)؛ لاختلافِ المَجْعولينِ، ولتَوفيةِ مَقامِ الامتنانِ حَقَّه[4].

- قولُه: ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ في الفِجاجِ معنى الوصْفِ، وإنَّما قُدِّمَت على (السُّبلِ) ولم تُؤخَّرْ كما في قولِه: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠]؛ للإعلامِ بأنَّه جعَلَ فيها طُرقًا واسعةً، فهو بَيانٌ لِما أُبْهِمَ هناك، ولِيَصيرَ حالًا؛ فيُفِيدَ أنَّه تعالى حين خلَقَها خلَقَها كذلك، أو ليُبْدِلَ منها ﴿سُبُلًا﴾، فيَدُلَّ ضِمْنًا على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٥).

أنَّه تعالى خلَقَها ووسَّعَها للسَّابِلةِ، مع ما فيه من التَّوكيدِ[1]. فإنْ قِيلَ: لم قُدِّمَ هاهنا، وأُخِّرَ هناك؟ فالجوابُ: أنَّ الآيةَ في سُورةِ (نُوحٍ) واردةٌ لبيانِ الامتنانِ على سَبيلِ الإجمالِ، وهذه الآيةُ في سُورةِ (الأنبياءِ) واردةٌ لِبَيانِ الاعتبارِ، والبَعْثِ على إمعانِ النَّظرِ فيه، وذلك يَقْتضي التَّفصيلَ، ومِن ثَمَّ عقَّبَ قولَه: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بهذه[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ لمَّا ذكَرَ الاعتبارَ بخلْقِ الأرضِ وما فيها، ناسَبَ -بحُكْمِ الطِّباقِ- ذِكْرُ خَلْقِ السَّماءِ عَقِبَه، إلَّا أنَّ حالةَ خلْقِ الأرضِ فيها منافعُ للنَّاسِ؛ فعقَّبَ ذِكْرَها بالامتنانِ بقولِه تعالى: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾، وبقولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾. وأمَّا حالُ خلْقِ السَّماءِ فلا تَظهَرُ فيه مَنفعةٌ، فلم يُذْكَرْ بعْدَه امتنانٌ، ولكنَّه ذكَرَ إعراضَهم عن التَّدبُّرِ في آياتِ خَلْقِ السَّماءِ الدَّالَّةِ على الحِكْمةِ البالِغَةِ، فعَقَّبَ بقولِه تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، فأدمَجَ في خِلالِ ذلك مِنَّةً، وهي حِفْظُ السَّماءِ مِن أنْ تقَعَ بعْضُ الأجرامِ الكائنةِ فيها، أو بعْضُ أجزائِها على الأرضِ، فتُهْلِكَ النَّاسَ، أو تُفسِدَ الأرضَ، فتُعَطِّلَ مَنافِعَها، فذلك إدماجٌ للمِنَّةِ في خِلالِ الغرَضِ المقصودِ الَّذي لا مَندوحةَ عن العِبْرةِ به[3].

- وأطلَقَ السَّقفَ على السَّماءِ في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ بيانٌ لبعْضِ تلك الآياتِ الَّتي هم عنها مُعرِضونَ بطَريقِ الالْتِفاتِ -حيث الْتَفت مِن ضَميرِ المُتكلِّمِ إلى ضَميرِ الغائبِ- المُوجِبِ لتأْكيدِ الاعتناءِ بفَحْوى الكلامِ(١).

- وسِيقَتْ هذه الآيةُ في مَعرِضِ المِنَّةِ بصَوغِها في صِيغَةِ الجُملةِ الاسميَّةِ المُعرَّفةِ الجُزأينِ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ... ﴾؛ لإفادةِ القصْرِ، وهو قَصْرُ إفرادٍ إضافيٌّ، بتَنزيلِ المُخاطَبينَ من المُشرِكينَ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ أصنامَهم مُشارِكةٌ للهِ في خَلْقِ تلك الأشياءِ(٢).

- ولكَونِ المِنَّةِ والعِبْرةِ في إيجادِ نَفْسِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ونَفْسِ الشَّمسِ والقمَرِ، لا في إيجادِها على حالةٍ خاصَّةٍ؛ جِيءَ هنا بفِعْلِ (الخَلْقِ) لا بفِعْلِ (الجَعْلِ)(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ مُناسَبةٌ قويَّةٌ لِذِكْرِ خَلْقِ الشَّمسِ عَقِبَ ذِكْرِ خلْقِ النَّهارِ؛ للتَّنبيهِ على مَنشَأ خَلْقِ النَّهارِ؛ فخَلْقُ النَّهارِ نَتيجةٌ لخَلْقِ الشَّمسِ وتوجُّهِ أشعَّتِها إلى النِّصْفِ المُقابِلِ للأشعَّةِ من الكُرَةِ الأرضيَّةِ، فخَلْقُ النَّهارِ تبَعٌ لخلْقِ الشَّمسِ وخَلْقِ الأرضِ، ومُقابلةِ الأرضِ لأشعَّةِ الشَّمسِ. وأمَّا ذِكْرُ خَلْقِ القَمرِ فلِمُناسَبةِ خَلْقِ الشَّمسِ، وللتَّذكيرِ بمِنَّةِ إيجادِ ما يُنِيرُ على النَّاسِ بعْضَ النُّورِ في بعضِ أوقاتِ الظُّلمةِ. وكلُّ ذلك من المِنَنِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٥٩، ٦٠).

- وجُملةُ: ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه لمَّا ذكَرَ الأشياءَ المُتضادَّةَ بالحقائقِ أو بالأوقاتِ؛ ذِكْرًا مُجْمَلًا في بعضِها الَّذي هو آياتُ السَّماءِ، ومُفصَّلًا في بعْضٍ آخرَ، وهو الشَّمسُ والقمرُ، كان المَقامُ مُثيرًا في نُفوسِ السَّامِعينَ سُؤالًا عن كيفيَّةِ سَيْرِها، وكيف لا يقَعُ لها اصطدامٌ أو يقَعُ منها تخلُّفٌ عن الظُّهورِ في وقْتِه المعلومِ؟ فأُجِيبَ بأنَّ كلَّ المذكوراتِ له فَضاءٌ يَسيرُ فيه، لا يُلاقي فضاءَ سَيْرِ غيرِه[1].

- قولُه تعالى: ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ فيه مُحسِّنٌ بَديعيٌّ؛ فإنَّ حُروفَه تُقْرَأُ مِن آخِرِها على التَّرتيبِ كما تُقْرَأُ مِن أوَّلِها، مع خِفَّةِ التَّركيبِ، ووفْرَةِ الفائدةِ، وجَريانِه مَجْرى المثَلِ، مِن غيرِ تَنافُرٍ ولا غَرابةٍ[2].

- وفي قولِه: ﴿يَسْبَحُونَ ﴾ جاء بواوِ الجمْعِ العاقلِ؛ فأمَّا الجمْعُ فقيل: هناك معطوفٌ مَحذوفٌ وهو (والنُّجومُ)، ولذلك عاد الضَّميرُ مَجموعًا، ولو لم يكُنْ ثَمَّ معطوفٌ مَحذوفٌ، لكان (يَسْبَحَانِ) مُثنًّى، وحسَّنَ ذلك كونُه جاء فاصِلةً رأْسَ آيةٍ، وأمَّا كونُه ضَميرَ مَن يَعقِلُ، ولم يكُنِ التَّركيبُ (يَسْبَحْنَ)؛ لأنَّه لمَّا كانتِ السِّباحةُ من أفعالِ الآدميِّينَ، جاء ما أُسْنِدَ إليهما مَجموعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٦١).

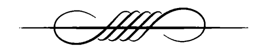
وهذا النَّوع يُسمَّى في البلاغةِ (القَلب)، وهو في الكلامِ بحيثُ إذا قُلِبت حروفُه لم تتغيَّر قراءتُه، ولا بُدَّ مع ذلك أنْ يكونَ جيِّدَ السَّبكِ، مُنسجِمَ المعنى، ويُسمَّى أيضًا: ما يُقرأُ مِن الجِهتَينِ، العكس، والمقلوبُ المستوي، وما لا يَستحيلُ بالانعكاسِ، وهو مِن أنواع البديع، ومنه في الشِّعر قولُ القائل:

مَــودَّتُــه تــدومُ لــكُــلِّ هَــولٍ ... وهَــلْ كُــلٌّ مَــودَّتُــه تــدومُ

يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٦٧٧).

جمعَ مَن يَعقِلُ، كقولِه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ﴾[(١)] [يوسف: ٤]. أو ضَميرُ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ عائدٌ إلى عُمومِ آياتِ السَّماءِ وخُصوصِ الشَّمسِ والقمرِ، وأُجْرِيَ عليها ضَميرُ جماعةِ الذُّكورِ باعتبارِ تَذكيرِ أسماءِ بعْضِها، مثْلُ القمَرِ والكوكبِ[(٢)]. أو جاء الجمْعُ باعتبارِ المَطالِعِ[(٣)].

- فإنْ قِيلَ: لكلٍّ واحدٍ من القَمرينِ فَلَكٌ على حِدَةٍ؛ فكيف قِيلَ: جَميعُهم يَسْبَحُونَ في فَلَكٍ؟ قيل: اكْتَفى بما يدُلُّ على الجِنْسِ اختصارًا، ولأنَّ الغرَضَ الدَّلالةُ على الجِنْسِ[(٤)].



---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٠).

الآيات (٣٤-٤٠)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِنْ عَجَلٍ﴾: أي: عَجُولًا، والعَجَلةُ: طَلَبُ الشَّيءِ وتَحرِّيه قبلَ أوانِه، وأصلُ (عجل): يدُلُّ على الإسراعِ[1].

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾: أي: تَغشاهم فجأةً، وأصلُ (بهت): يدلُّ على الدَّهَشِ والحَيرةِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّ مصيرَ جميعِ البشرِ إلى الموتِ، فيَقولُ تعالى: وما جَعَلْنا لبشَرٍ مِن قَبلِك -يا محمَّدُ- دوامَ البَقاءِ في الدُّنيا، أفإنْ مِتَّ فهم يُخَلَّدونَ فيها؟! كلَّا، لا يكونُ هذا. كلُّ نَفسٍ ذائِقةُ الموتِ لا محالةَ، ونختَبِرُكم -أيُّها النَّاسُ-

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

بالشِّدَّةِ والمِحَنِ تارةً، وبالرَّخاءِ والنِّعَمِ تارةً أخرى؛ فِتنةً لكم، ثمَّ إلينا تُرجَعونَ للحِسابِ والجَزاءِ.

ثمَّ يذكرُ الله سبحانَه جانبًا مِن سفاهاتِ الكفار تجاهَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: وإذا رآك الكُفَّارُ -يا محمَّدُ- يَستَهزِئونَ بك، ويقولونَ لائمين إيَّاك؛ لكُفرِك بآلهتِهم: أهذا الذي يَسُبُّ آلهتَكم؟ وكفروا بذِكرِ الرَّحمنِ، فهم أحقُّ بالاستِنكارِ واللَّومِ!

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى ما جُبِل عليه الإنسانُ مِن تسرُّعٍ، فقال: خُلِق الإنسانُ عَجولًا، سأُريكم -أيُّها المُستَعجِلونَ بالعذابِ- آياتِ عَذابي وانتِقامي، فلا تَستَعجِلوا ربَّكم بالعَذابِ.

ويقولُ هؤلاء الكُفَّارُ مُستعجلينَ العَذابَ مُستَهزئينَ: متى يأتينا عَذابُ اللهِ -يا محمَّدُ- إنْ كنتَ أنت ومَنِ اتَّبَعَك مِنَ الصَّادقينَ؟

لو يَعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ ما يُلاقونَه مِن العَذابِ عندما لا يَستَطيعونَ أن يَدفَعوا عن وُجوهِهم وظُهورِهم النَّارَ؛ لَمَا استعجَلوا العذابَ. ولا ناصِرَ لهم يدفَعُ عنهم عَذابَ اللهِ، بل تأتيهم النَّارُ فَجأةً، فيتحيَّرونَ عند ذلك، ويخافونَ خَوفًا عظيمًا، ولا يَستطيعونَ دَفعَ النَّارِ عن أنفُسِهم، ولا يُمهَلونَ لاستدراكِ تَوبةٍ واعتذارٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

لَمَّا استدَلَّ اللهُ تعالى بستَّةِ أنواعٍ مِن الدلائلِ[1] التي تُعَدُّ مِن أصولِ النِّعَمِ

(١) وهذه الأنواعُ الستةُ مِن الدلائلِ هي: =

الدُّنيويَّةِ؛ أتبَعها بما نبَّه به على أنَّ هذه الدُّنيا جعَلَها كذلك، لا لتبقَى وتدومَ، أو يبقَى فيها مَن خُلِقَت الدُّنيا له، بل خلقَها سُبحانه وتعالى للابتلاءِ والامتحانِ، ولكي يُتوصَّلَ بها إلى الآخرةِ التي هي دارُ الخُلودِ(١).

وأيضًا فبعدَ أن ذكَر سبحانَه الأدلةَ على وجودِ الخالقِ الواحدِ القادرِ، بما يَرَوْن مِن الآياتِ الكونيةِ- أردَفَ ذلك ببيانِ أنَّ هذه الدُّنيا ما خُلِقت للخلودِ والدوامِ، ولا خُلِق مَن فيها للبقاءِ، بل خُلِقت للابتلاءِ والامتحانِ، ولتكونَ وسيلةً إلى الآخرةِ التي هى دارُ الخلودِ، فلا تَشْمَتوا إذا ماتَ محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، فما هذا بسبيلِه وحْدَه، بل هذا سُنَّةُ اللهِ فى الخلْقِ أجمعينَ(٢).

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾.

أي: وما خلَّدْنا -يا محمَّدُ- أحدًا مِن البَشَرِ قَبْلَك في الدُّنيا؛ فنُخَلِّدَك فيها، ولا بُدَّ لك مِن أن تموتَ فيها كما مات مَن قَبْلَك(٣).

= النوعُ الأولُ: قولُه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾.
النَّوعُ الثَّاني: قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾.
النَّوعُ الثَّالثُ: قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾.
النَّوعُ الرَّابعُ: قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.
النَّوعُ الخامسُ: قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾.
النَّوعُ السَّادسُ: قولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٣٦- ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٥).
قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ أي: دوامَ البَقاءِ في الدُّنيا، نزَلت حينَ قالوا: نتربَّصُ بمحمَّدٍ رَيْبَ المَنُونِ. وذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَدفَعونَ نبُوَّتَه، ويقولون: =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

أي: فهل إذا متَّ -يا محمَّدُ- سيُخَلَّدُ المُشرِكونَ في الدُّنيا مِن بَعدِك؟! كلَّا، بل سيموتونَ[1].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

أي: كلُّ نَفسٍ مخلوقةٍ لا بدَّ أن تذوقَ ألَمَ مُفارَقةِ جَسَدِها[2].

= ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، ولعلَّه يموتُ كما مات شاعرُ بني فلانٍ، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياءُ مِن قَبلِك، وتولَّى اللهُ دينَه بالنصرِ والحِياطةِ، فهكذا نحفَظُ دينَك وشَرْعَك). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٤).

قال ابنُ القيمِ: (الصَّوابُ أَن يُقال: موتُ النُّفوسِ هو مفارقتُها لأجسادِها، وخروجُها منها، فإنْ أُريدَ بموتِها هذا القدْرُ فهي ذائقةُ الموتِ، وإنْ أُريدَ أنَّها تعدمُ وتضمحلُّ وتصيرُ عدمًا مَحْضًا فهي لا تموتُ بهذا الاعتبارِ، بل هي باقيةٌ بعدَ خلقِها في نعيمٍ أو في عذابٍ). ((الروح)) (ص: ٣٤).

وقال ابنُ رجب: (النَّفسُ يُرادُ بها مجموعُ الرُّوحِ والبَدَنِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧- ٨]، وقولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]... وقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «ما مِن نَفسٍ مَنفوسةٍ اليَومَ، يأتي عليها مئةُ سَنَةٍ وهي حَيَّةٌ يومَئذٍ»... والمرادُ: مَوتُ الأحياءِ الموجودينَ في يَومِه ذلك، ومفارقةُ أرواحِهم لأبدانِهم قبل المئةِ سَنةٍ، ليس المرادُ عَدَمَ أرواحِهم واضمِحلالَها، فكذلك قَولُه سُبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، إنَّما المرادُ كُلُّ مخلوقٍ فيه حياةٌ =

﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾.

أي: ونختَبِرُكم -أيُّها النَّاسُ- بالمصائِبِ والشِّدَّةِ تارةً، وبالرَّخاءِ والنِّعَمِ تارةً أخرى؛ فِتنةً لكم لِنَنظرَ صَبْرَكم وشُكرَكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف: ١٦٨].

﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

أي: وإلينا -أيُّها النَّاسُ- تُرَدُّونَ لا إلى غَيرِنا، فنُجازيكم بحَسَبِ أعمالِكم[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الكُفَّارُ يَغُمُّهم ذِكرُ آلهتِهم بسُوءٍ؛ شَرَعوا في الاستهزاءِ، وتَنقيصِ مَن

= فإنَّه يذوقُ الموتَ، وتفارِقُ رُوحُه بَدَنَه، [فإن أراد مَن قال: إنَّ النَّفسَ والرُّوحَ تَموتُ، أنَّها تذوقُ ألَمَ مُفارقةِ الجَسَدِ، فهو حقٌّ]). ((أهوال القبور)) (ص: ١٢٦).

وقال ابنُ عطيةَ: (وقولُه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ عمومٌ يُرادُ به الخصوصُ، والمرادُ كلُّ نفسٍ مخلوقةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٧)، ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٣٧)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٢)، ((اختيار الأولى)) لابن رجب (ص: ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦).

يَذْكُرُهم على سبيلِ المُقابَلةِ[1].

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

أي: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قُرَيشٍ، يَستَهزِئونَ ويَستَخِفُّونَ بك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

أي: يقولونَ إذا رأَوُا الرَّسولَ -استِنكارًا-: أهذا هو الذي يَعيبُ أصنامَكم التي تَعبُدونَها[3]؟

﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: وهؤلاء المُستَهزِئونَ بالرَّسولِ يَكفُرونَ بذِكرِ الرَّحمنِ[4] الذي يُنعِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٨).

(٤) قيل: معنى ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾: أي أنَّهم كافِرونَ باللَّهِ وما يجبُ أن يُذكَرَ به مِن الوحدانيَّةِ. وممن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمان، والزمخشري، والنسفي، والعُليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٩).

وقيل: المعنى: الذِّكرُ الذي يستَحِقُّه الرحمنُ مِن المدحِ والثناءِ مما هو أهلٌ له. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٠)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٣١). =

عليهم[١]!

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الكافِرونَ يَستَعجِلونَ عَذابَ اللهِ وآياتِه المُلجِئةَ إلى الإقرارِ والعِلمِ، نهاهم تعالى عن الاستِعجالِ[٢].

= قيل: المرادُ بالذِّكرِ هنا: الذِّكرُ الواردُ مِن الرَّحمنِ، وهو: القرآنُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبي، وأبو حيان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦).

قال ابنُ عاشور: (ومعنَى كُفرِهم بِذكرِ الرحمنِ: إنكارُهم أنْ يكونَ القرآنُ آيةً دالَّةً على صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، فقالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]. وأيضًا كُفرُهم بما جاءَ به القرآنُ مِن إثباتِ البعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦).

وقيل: معنى كُفرِهم بذِكرِ الرَّحمنِ هو أنَّهم قالوا: ما نعرِفُ الرحمنَ، فكفروا بالرحمنِ، أي: بتسميتِه بهذا الاسمِ. وممن اختار هذا القولَ: السمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والشربيني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٠٤).

قال الشِّنقيطي: (قال بعضُ أهلِ العِلمِ: معنى كُفرِهم بذِكرِ الرَّحمنِ: هو الموضَّحُ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقولِهم: ما نَعرِفُ الرَّحمنَ إلَّا رحمنَ اليمامةِ، يعنون مسيلِمةَ الكَذَّابَ. وقد بيَّن ابنُ جريرٍ الطبريُّ وغيرُه أنَّ إنكارَهم لمعرفتِهم الرَّحمنَ تجاهُلٌ منهم ومُعاندةٌ، مع أنَّهم يعرفونَ أنَّ الرَّحمنَ مِن أسماءِ الله تعالى. قال: وقال بعض شعراء الجاهليَّةِ الجهلاء:

ألَا ضربَت تلك الفتاةُ هجينَها ... ألا قطَعَ الرَّحمنُ رَبِّي يَمينَها). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المُستَهزِئينَ بالرَّسولِ صلواتُ الله وسلامُه عليه، وقَع في النُّفوسِ سُرعةُ الانتِقامِ منهم واستعجَلَت، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنَّه تعالى يُملي للظَّالمِ حتى إذا أخذَه لم يُفلِتْه، يُؤجِّلُ ثمَّ يُعَجِّلُ، ويُنظِرُ ثمَّ لا يُؤخِّرُ؛ ولهذا قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي: نَقْمي وحُكمي واقتِداري على مَن عَصاني، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[1].

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

أي: طُبِع الإنسانُ ورُكِّبَ على العَجَلةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٠).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: القرطبيُّ، والبقاعي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٠).

وممن نصَّ على أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا: الجنسُ: ابنُ عطيةَ، والرسعني، وابنُ جزي، والعُليمي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٠).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: آدمُ، وعلى هذا القولِ فمعنى الكلامِ: أنَّه خُلِق عجولًا -ونسَبه ابنُ الجوزي للأكثرينَ- ولمَّا طُبع آدمُ على هذا المعنى، وُجِد في أولادِه، وأوْرَثهم العَجَلَ. وقيلَ: غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩١).

قال الشوكاني: (﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: جُعِل لِفَرطِ استِعجالِه كأنَّه مخلوقٌ مِن العَجَلِ. قال الفرَّاءُ: كأنَّه يقولُ: بِنْيتُه وخِلقتُه من العَجَلةِ وعلى العَجَلةِ. وقال الزجَّاجُ: خوطِبَت العرَبُ بما تَعقِلُ، والعَرَبُ تقولُ للذي يَكثُرُ منه الشَّيءُ: خُلِقْتَ منه! كما تقولُ: أنتَ مِن لَعِبٍ، وخُلِقْتَ مِن لَعِبٍ؛ تريدُ المُبالغةَ في وَصفِه بذلك، ويدُلُّ على هذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء =

كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

أي: سأُريكم -أيُّها المُستَعجِلونَ رَبَّهم بالعَذابِ- آياتِ عَذابي وانتِقامي، وحُكمي وقُدرَتي على مَن كَفَرَ بي وعصاني؛ فلا تَستَعجِلوا ربَّكم بالعذابِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصافات: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: ويقولُ هؤلاء المُستَعجِلونَ رَبَّهم بالآياتِ والعَذابِ لمحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمِنينَ به: متى يأتينا عَذابُ اللهِ إنْ كُنتُم صادقينَ فيما تَعِدونَنا به منَ العذابِ[2]؟

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا

= (٢/ ٢٠٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣).

وممن قال بهذا المعنى المذكور في الجملةِ: ابنُ كثير، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرسعني: (﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ قال المفسِّرونَ: هو ما أصابَهم مِن القتلِ والأَسْرِ يومَ بدرٍ. قال ابنُ السائب: المعنى: إنَّكم تسافرونَ، فتَرَون آثارَ الهلاكِ في الماضينَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣).

هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾.

أي: لو يتيقَّنُ الكُفَّارُ المُستَعجِلونَ العَذابَ ماذا لهم من البَلاءِ حين تَلفحُ وجوهَهم النَّارُ، فلا يَستَطيعونَ في ذلك الوَقتِ أن يَكُفُّوا بأنفُسِهم النَّارَ عن وُجوهِهم ولا عن ظُهورِهم، ولا يَجِدونَ لهم ناصِرًا ينصُرُهم، ويُنجِيهم مِن عَذابِ اللهِ؛ لَما استعجَلوا العذابَ، ولَتابوا وآمَنوا باللهِ[1].

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥١، ١٥٢).
وقال الشنقيطي: (معنى الآية الكريمة: لو يعلَمُ الكُفَّارُ الوَقتَ الذي يَسألونَ عنه بقَولِهم: متى هذا الوعدُ؟ وهو وَقتٌ صعبٌ شَديدٌ، تحيطُ بهم فيه النَّارُ مِن وراءَ وقُدَّامَ، فلا يَقدِرونَ على مَنْعِها ودَفْعِها عن أنفُسِهم، ولا يَجِدونَ ناصِرًا ينصُرُهم؛ لَما كانوا بتلك الصِّفةِ مِن الكفر والاستِهزاءِ والاستِعجالِ، ولكِنَّ جَهْلَهم بذلك هو الذي هوَّنَه عليهم). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٥١).
وقيل: الضَّميرُ في ﴿يَكُفُّونَ﴾ عائدٌ إلى ملائكةِ العَذابِ، ومعنى الكَفِّ على هذا الوجهِ: الإمساكُ، أي: حين لا يُمسِكُ الملائكةُ اللَّفْحَ بالنَّارِ عن وجوهِ المُشرِكينَ، وتكونُ هذه الآيةُ في معنى قَولِه تعالى في سورة [الأنفال: ٥٠]: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ فإنَّ ذلك ضَربٌ بسياطٍ مِن نارٍ، ويكونُ ما هنا إنذارًا بما سيَلقَونَه يومَ بَدرٍ، كما أنَّ آيةَ الأنفالِ حِكايةٌ لِما لَقُوه يومَ بدرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٠).
قال الشوكاني: (وجوابُ «لَوْ» محذوفٌ، والتَّقديرُ: لو عَلِموا الوقتَ الذي لا يَكُفُّونَ عن وجوهِهم النَّارَ ولا عن ظُهورِهم ولا هم يُنصَرونَ، لَما استَعجَلوا الوعيدَ. وقال الزَّجَّاجُ في تقديرِ الجوابِ: لعَلِموا صِدقَ الوَعدِ. وقيل: لو عَلِموه ما أقاموا على الكُفرِ. وقال الكِسائي: هو تنبيهٌ على تحقيقِ وقوعِ السَّاعةِ، أي: لو عَلِموه عِلمَ يقينٍ لعَلِموا أنَّ السَّاعةَ آتيةٌ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٢). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٩٢).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى شِدَّةَ هذا العذابِ؛ بيَّنَ أنَّ وَقتَ مَجيئِه غيرُ مَعلومٍ لهم(١)، فقال:

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾.

أي: بل تأتيهم النَّارُ فجأةً، فتصيبُهم بالذُّعرِ والخوفِ والحيرةِ فلا يَدرونَ ما يصنعونَ(٢)!

كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠١- ٢٠٢].

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

أي: فلا يَستَطيعونَ دَفْعَ النَّارِ عن أنفُسِهم حين تبغَتُهم، ولا هم يُمهَلونَ فيُؤَخَّرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ أي: النارُ: ابنُ جرير، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: الساعةُ. وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٣).

عنهم العَذابُ لِيَتوبُوا[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ يُفهَمُ منه أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أن يَفرحَ بمَوتِ أحَدٍ؛ لأجلِ أمرٍ دُنيويٍّ يَنالُه بسَبَبِ مَوتِه؛ لأنَّه هو ليس مخلَّدًا بَعدَه، وفي معناه قولُ القائلِ:

تمنَّى رجالٌ أنْ أمــوتَ وإنْ أمُتْ ... فتلك ســبيلٌ لســتُ فيها بأوحَدِ

فقُلْ لِلَّذي يبغــي خِلافَ الَّذي مضَى ... تَهيَّأْ لأخــرَى مِثلِها فــكأنْ قَدِ[2]

٢- ممَّا يُعينُ على الزُّهدِ أن يتأمَّلَ الإنسانُ في هذه الحياةِ الدُّنيا، وأنَّها دارُ مَمَرٍّ، وليست دارَ مَقَرٍّ، وأنَّها لم تَبْقَ لأحدٍ مِن قَبْلِك، وما لم يَبقَ لأحدٍ مِن قبلِك لن يبقَى لك؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ يعني: لن يخَلَّدَ أحدٌ في هذه الدُّنيا، وكذلك يعلَمُ أنَّ هذه الدنيا دارُ تَنغيصٍ وكَدَرٍ، فما سُرَّ بها الإنسانُ يومًا إلَّا ساءَه الأمرُ في اليومِ الثَّاني، فإذا عَلِمَ حَقيقةَ الدُّنيا فإنَّه بعَقلِه وإيمانِه سوف يزهَدُ بها، ولا يُؤْثِرُها على الآخرةِ؛ قال الله تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ * إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[3] [الأعلى: ١٦- ١٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤٦).

والبيت الأول في ((ديوان الشافعي)) (٦٨)، ونُسِب البيتانِ للشافعيِّ، ونُسِبا لغيرِه أيضًا معَ بعضِ الاختلافاتِ. يُنظر: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (٣/ ١٣١)، ((البصائر والذخائر)) للتوحيدي (٨/ ٦٤)، ((بغية الطلب)) لابن العديم (٤/ ١٦٢٦)، ((حياة الحيوان)) للدميري (١/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٧٨٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الابتِلاءُ لا يتحَقَّقُ إلَّا معَ التَّكليفِ؛ فالآيةُ دالَّةٌ على حُصولِ التَّكليفِ، وتدُلُّ على أنَّه سُبحانَه وتعالى لم يقتَصِرْ بالمكَلَّفِ على ما أمَرَ ونهَى، وإن كان فيه صعوبةٌ، بل ابتلاه بأمرينِ: أحدُهما: ما سمَّاه خَيرًا، وهو نِعَمُ الدُّنيا مِن الصِّحَّةِ واللَّذَّةِ، والسُّرورِ والتَّمكينِ مِن المراداتِ. والثَّاني: ما سمَّاه شَرًّا، وهو المضارُّ الدُّنيويَّةُ مِن الفَقرِ والآلامِ، وسائِرِ الشَّدائِدِ النَّازلةِ بالمُكَلَّفينَ، فبيَّنَ تعالى أنَّ العَبدَ مع التَّكليفِ يتَرَدَّدُ بينَ هاتينِ الحالَتينِ؛ لكي يَشكُرَ على المِنَحِ، ويَصبِرَ في المِحَنِ، فيَعظُمَ ثوابُه إذا قام بما يَلزَمُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الخَضِرَ عليه السَّلامُ مات، وليسَ بحيٍّ إلى الآن؛ لأنَّه بشرٌ، سواءٌ كان وليًّا، أو نبيًّا، أو رسولًا[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ في الآيةِ إيماءٌ إلى أنَّ الذين لم يُقَدِّرِ اللهُ لهم الإسلامَ مِمَّن قالوا ذلك القَولَ، سيَموتونَ قَبلَ مَوتِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فلا يَشمَتونَ به؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَمُتْ حتى أهلَكَ اللهُ رُؤوسَ الذين عانَدوه، وهدَى بقِيَّتَهم إلى الإسلامِ[٣].

٣- قَولُ القائِلِ: «أدامَ اللهُ أيَّامَك» هو مِن الاعتداء في الدُّعاءِ؛ لأنَّ دوامَ الأيَّام

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٣).

مُحالٌ، مُنافٍ لِقَولِ الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾، وقَولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[1] [الرحمن: ٢٦- ٢٧].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ عُبِّرَ بقولِه: ﴿ذَآئِقَةُ﴾؛ لأنَّ الموتَ له مَذاقٌ مُرٌّ يكرَهُه كلُّ إنسانٍ[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ مِن هذه الحياةِ الدُّنيا الابتلاءُ، والتَّعريضُ للثَّوابِ والعِقابِ[3].

٦- قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فقولُه: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فيه إثْباتٌ للبعْثِ، فجمَعَتْ هذه الآيةُ الموتَ والحياةَ والنَّشرَ[4].

٧- أصلُ الفِتنةِ: الابتِلاءُ والامتِحانُ والاختِبارُ، ويكونُ تارةً بما يسوءُ، وتارةً بما يَسُرُّ، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[5].

٨- اللهُ سُبحانه وتعالى كما هو خالِقُ الخَلقِ؛ فهو خالِقُ ما به غِناهم وفَقْرُهم، فخلَقَ الغِنى والفَقرَ لِيَبتليَ بهما عبادَه أيُّهم أحسَنُ عَمَلًا، وجعَلَهما سَبَبًا للطَّاعةِ والمعصيةِ، والثوابِ والعِقابِ؛ قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٣٤).

تُرۡجَعُونَ ﴾، فأخبَر سبحانَه أنَّ الغِنَى والفقرَ مَطِيَّتا الابتلاءِ والامتحانِ[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ في ذِكرِ اسمِه (الرَّحمنِ) هنا بيانٌ لِقَباحةِ حالِ الكافرينَ، وأنَّهم كيف قابَلوا الرَّحمنَ مُسدِيَ النِّعَمِ كُلِّها، ودافِعَ النِّقَمِ، الذي ما بالعبادِ مِن نِعمةٍ إلَّا منه، ولا يَدفَعُ السُّوءَ إلَّا هو- بالكُفرِ والشِّركِ[2]؟!

١٠- إذا كان في المخلوقِ خُلُقٌ كبيرٌ مِن شَيءٍ مُعَيَّنٍ نُسِبَ إليه؛ لهذا قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ مع أنَّه خُلِقَ مِن تُرابٍ، لكِنْ لَمَّا كانت طبيعتُه العَجَلةَ، صار كأنَّه ناشئٌ منها، كأنَّها عُنصرُ وُجودِه[3]!

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ فيه سؤالٌ: القَومُ استَعجَلوا الوعيدَ على وَجهِ التَّكذيبِ، ومَن هذا حالُه لا يكونُ مُستَعجِلًا على الحقيقةِ! الجوابُ: أنَّ استِعجالَهم على هذا الوَجهِ أدخَلُ في الذَّمِّ؛ لأنَّه إذا ذُمَّ المرءُ على استِعجالِ الأمرِ المعلومِ، فبِأنْ يُذَمَّ على استِعجالِ ما لا يكونُ مَعلومًا له، كان أَولى، وأيضًا فإنَّ استِعجالَهم بما توعَّدَهم مِن عِقابِ الآخرةِ أو هَلاكِ الدُّنيا يتضَمَّنُ استِعجالَ الموتِ، وهم عالِمونَ بذلك، فكانوا مُستَعجِلينَ في الحقيقةِ[4].

١٢- لا إشكالَ في قَولِه تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾، فلا يُقالُ: كيف يقولُ: إنَّ الإنسانَ خُلِق من العَجَلِ، وجُبِلَ

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٣).
(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٢/ ١٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٥).

عليه، ثمَّ ينهاه عمَّا خُلِقَ منه وجُبِلَ عليه؛ لأنَّه تكليفٌ بمُحالٍ؟! لأنَّا نقولُ: نعم، هو جُبِلَ على العَجَلِ، ولكِنْ في استطاعتِه أن يُلزِمَ نَفسَه بالتَّأنِّي، كما أنَّه جُبِلَ على حُبِّ الشَّهواتِ مع أنَّه في استطاعتِه أن يُلزِمَ نَفسَه بالكَفِّ عنها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1] [النازعات: ٤٠، ٤١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ لم يُعلِمِ المكَلَّفينَ وقتَ الموتِ والقيامةِ؛ لِما فيه مِن المصلحةِ؛ لأنَّ المرءَ مع كِتمانِ ذلك أشَدُّ حَذرًا، وأقرَبُ إلى التَّلافي[2].

١٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فيه تَنبيهٌ لهم إلى أنَّهم أُنْظِروا زمَنًا طويلًا لعلَّهم يُقلِعون عن ضَلالِهم[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾

- في قولِه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ طَريقةُ القولِ بالمُوجَبِ[4]،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي(٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٢).

(٤) القولُ بالموجَبِ في اصطلاحِ الأصوليين: هو تسليمُ ما جعَله المستدلُّ موجِبًا لعِلَّته مع استبقاءِ الخِلافِ، ومعنى ذلك: أن يسلِّمَ الخصمُ الدليلَ الذى استدلَّ به المستدلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدليلُ ليس فى محلِّ النزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ بينهما، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فإنَّ الله سلَّم لهم أنَّ الأعزَّ قادرٌ على إخراجِ الأعزِّ، ولكن صرَّح بأنَّ ذلك لا ينفعُهم؛ لأنَّهم الأذل. يُنظر: ((تشنيف المسامع بجمع الجوامع)) للزركشي =

أي: إنَّك تَموتُ كما قالوا، ولكنَّهم لا يرَونَ ذلك وهم بحالِ مَن يَزْعمون أنَّهم مُخلَّدون، فأيْقنوا بأنَّهم يتربَّصونَ بك رَيْبَ المَنونِ من فرَطِ غُرورِهم؛ فالتَّفريعُ بقولِه: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ كان على ما في الجُملةِ الأُولى من القولِ بالمُوجَبِ، أي: ما هم بخالدينَ حتَّى يُوقِنوا أنَّهم يرَونَ موتَك. وفي الإنكارِ الَّذي هو في مَعنى النَّفيِ: إنذارٌ لهم بأنَّهم لا يَرى موتَه منهم أحدٌ. والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ؛ لمَّا كان تَمنِّيهم موتَه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتربُّصُهم به رَيْبَ المَنونِ يَقْتضي أنَّ الَّذين تَمنَّوا ذلك وتربَّصوا به كأنَّهم واثِقونَ بأنَّهم يَموتونَ بعْدَه، فتَتِمُّ شَماتَتُهم، أو كأنَّهم لا يَموتونَ أبدًا، فلا يَشمَتْ بهم أحدٌ؛ وُجِّهَ إليهم استفهامُ الإنكارِ على طَريقةِ التَّعريضِ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يزعُمُ أنَّهم خالِدونَ، والمرادُ إنكارُ شَماتَتِهم بمَوتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ الشَّماتةَ بما يَعْتريه أيضًا ممَّا لا يَنْبغي أنْ تَصدُرَ عن العاقلِ، كأنَّه قيل: أفإنْ مِتَّ فهم الخالِدونَ حتَّى يَشْمتوا بمَوتِك[1]؟!

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تَذييلٌ؛ فإنَّ معنى الآيةِ مُستوفًى في الإخبارِ بأنَّه سُبحانه لم

= (٤/ ٣٦١)، ((البحر المحيط)) للزركشي (٥/ ٢٩٧)، ((غايه الوصول شرح لب الأصول)) لزكريا الأنصاري (ص: ١٣١)، ((المنهاج)) للباجي (ص: ١٧٣)، ((شرح مراقي السعود)) للشنقيطي (٢/ ٥٣٥).

وقال بهاء الدين السبكي: (مِن البديعِ المعنوي ما يسمَّى القولَ بالموجبِ، وهو قريبٌ مِن القولِ بالموجبِ المذكورِ فى الأصولِ والجدلِ، وهو تسليمُ الدليلِ مع بقاءِ النِّزاعِ). ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) (٢/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٢، ٦٣).

يَجعَلْ لبَشرٍ قبْلَ نَبيِّه الخُلْدَ، ثمَّ ذيَّلَ ذلك الإخبارَ بما أخرَجه مُخْرَجَ تَجاهُلِ العارفِ[1]، وهو قولُه: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾، ثمَّ ذيَّلَ هذا التَّذييلَ بما أخرَجه مُخْرَجَ المثَلِ السَّائرِ، حيث قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للتَّدليلِ على عدَمِ الخُلودِ[3]؛ فمَضمونُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ مُؤكِّدٌ لمَضمونِ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، ووجْهُ إعادتِها اختلافُ القصْدِ؛ فإنَّ الأُولى للرَّدِّ على المُشرِكينَ، وهذه لتَعليمِ المُؤمِنين[4].

- قولُه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الخِطابُ إمَّا للنَّاسِ كافَّةً بطَريقِ التَّلوينِ، أو للكَفرةِ بطَريقِ الالْتِفاتِ[5].

- وتَقديمُ المَجْرورِ في ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، وإفادةِ تَقوِّي الخبَرِ، وليست للقصْرِ[6]. وقدَّم الشَّرَّ؛ لأنَّ الابتلاءَ به أكثرُ، ولأنَّ العربَ

---

(١) تَجاهُل العارِف: له عِدَّةُ تعريفاتٍ، وتَرجِعُ كلُّها إلى: سَوْق المعلومِ مَساقَ غيرِه لنُكتةٍ؛ فمِن تعريفاتِه أنَّه: سؤالُ المتكلِّم عمَّا يَعلمُه حقيقةً تجاهلًا؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة. ومنها أنَّه: إخراجُ ما يَعرِفُ صِحَّتَه مَخرجَ ما يَشُكُّ فيه؛ ليَزيدَ بذلك تأكيدًا. وقيل: هو إخراجُ الكلامِ مخرجَ الشكِّ في اللفظِ دون الحقيقةِ؛ لضربٍ مِن المسامحةِ وحسْمِ العنادِ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٥).

تُقدِّمُ الأقلَّ والأردأَ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَقريرِ مَوقفِهم من النَّبيِّ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

- والقصْرُ المُستفادُ من قولِه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ هو قَصْرُ مُعامَلتِهم معه عليه السَّلامُ على اتِّخاذِهم إيَّاهُ هُزوًا، لا على معنى قَصْرِ اتِّخاذِهم على كونِه هُزوًا؛ كأنَّه قيل: ما يَفْعلون بك إلَّا اتِّخاذَك هُزوًا[3].

- وفيه إخبارٌ بالمصدرِ ﴿هُزُوًا﴾؛ للمُبالَغةِ، أو هو مَصدرٌ بمعنى المفعولِ[4].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، وقال في سُورةِ (الفُرقانِ): ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الفرقان: ٤١]، فأظهَرَ الفاعِلينَ في: ﴿رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وأضْمَرَهم في سُورةِ (الفُرقانِ)؛ ووجْهُه: أَنَّ آيةَ سورةِ (الأنبياءِ) ليس فى الآيةِ التى تقدَّمَتْها ذِكرُ الكفَّارِ؛ فصرَّح باسمِهم، وأما فى سورةِ (الفرقان) فقد سَبَق ذكرُ الكفَّار، فخُصَّ الإظهارُ بآيةِ سورةِ (الأنبياءِ)، والكنايةُ بآيةِ سورةِ (الفرقان)[5].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٥، ٦٦).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٠). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٠١، ٩٠٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٦، ٣٤٧).

ﱡﭐ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﱠ، وفي سُورةِ (الفرقانِ): ﱡﭐأَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا ﱠ [الفرقان: ٤١- ٤٢]، فاختلَفَ التَّعقيبُ في الآيتينِ؛ ووجْهُه: أنَّه لمَّا تقدَّمَ في سُورةِ (الأنبياءِ) قولُه تعالى: ﱡﭐ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﱠ [الأنبياء: ٢١]، وقولُه: ﱡﭐ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﱠ [الأنبياء: ٢٢]، وقولُه: ﱡﭐ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ ﱠ [الأنبياء: ٢٤]؛ فتكرَّرَ ذِكْرُ مُرتكَبِهم في اتِّخاذِهم مَعبوداتٍ لا تُغْني عنهم، ناسَبَهُ قولُهم: ﱡﭐأَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ ﱠ [الأنبياء: ٣٦]. أمَّا آيةُ (الفُرْقانِ) فقد تقدَّمَها قولُه: ﱡﭐمَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﱠ [الفرقان: ٧]، فأنْكَروا كونَ الرَّسولِ منَ البشَرِ؛ فجَرى مع ذلك وناسَبَهُ قولُهم: ﱡﭐأَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﱠ [الفرقان: ٤١]؛ تَعجُّبًا واستبعادًا أنْ يكونَ الرُّسلُ منَ البشَرِ، وقد رَدَّ ذلك عليهم بقولِه: ﱡﭐوَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﱠ [الفرقان: ٢٠]؛ فوضَحَ التَّناسُبُ فيها[1].

- قولُه: ﱡﭐأَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ ﱠ استفهامٌ فيه إنْكارٌ وتعجيبٌ[2]، واسمُ الإشارةِ (هذا) مُسْتعمَلٌ في التَّحقيرِ بقَرينةِ الاستهزاءِ[3].

- وأيضًا قولُه: ﱡﭐأَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ ﱠ جُملةٌ مُبيِّنةٌ لجُملةِ: ﱡﭐإِن

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٧).

(٢) قال الشنقيطي بعد أن ذكَر القولَ بأنَّ الاستفهامَ للإنكارِ والتعجيبِ: (والذي يظهرُ لي أنهم يريدون بالاستفهامِ المذكورِ التحقيرَ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، كما تدلُّ عليه قرينةُ قولِه: ﱡﭐإِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﱠ. وقد تقرَّر في فنِّ المعاني أنَّ مِن الأغراضِ التي تؤدَّى بالاستفهامِ التحقيرَ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦).

يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ فهي في معنى قَولٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ لأنَّ الاستهزاءَ يكونُ بالكلامِ(١).

- وضَميرُ الفصْلِ في قولِه: ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ يجوزُ أنْ يُفيدَ الحصْرَ، أي: هم كافِرونَ بالقُرآنِ دونَ غَيرِهم ممَّن أسلَمَ مِن أهْلِ مكَّةَ وغَيرِهم منَ العرَبِ؛ لإفادةِ أنَّ هؤلاء باقونَ على كُفْرِهم مع توفُّرِ الآياتِ والنُّذُرِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الفصْلُ لمُجرَّدِ التَّأكيدِ؛ تَحقيقًا لدَوامِ كُفْرِهم مع ظُهورِ ما شأْنُه أنْ يُقلِعَهم عن الكُفْرِ(٢).

- وفي تَكريرِ (هم) وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ -﴿بِذِكْرِ﴾- على عامِلِه: شأْنٌ في الإنكارِ، وتَوبيخٌ عظيمٌ(٣).

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، وذلك في حِذْفِ مَفعولِ ﴿يَذْكُرُ﴾، والذِّكْرُ يكونُ بالخيرِ والشَّرِّ؛ فإذا دلَّتِ الحالُ على أحَدِهما، أُطلِقَ ولم يُقيَّدْ، كقولِك للرَّجلِ: سمِعْتُ فُلانًا يذكُرُك؛ فإنْ كان الذَّاكِرُ صَديقًا فهو ثَناءٌ، وإنْ كان عدُوًّا فذَمٌّ. ومِن جِهَةٍ ثانيةٍ لم يَقُولوا: أهذا الَّذي يَذكُرُ آلِهَتَكم بكلِّ سُوءٍ؛ لأنَّهم استَفْظعوا حِكايةَ ما يقولُه النَّبيُّ مِن القدْحِ في آلِهَتِهم، رمْيًا بأنَّها لا تَسمَعُ ولا تُبْصِرُ، ولا تَنفَعُ ولا تضُرُّ، وحاشَوْها مِن نَقْلِ ذَمِّها تَفصيلًا وتَصريحًا، فنَقَلوه إجْمالًا وتلْميحًا، بلْ أوْمَؤوا إليه بالإشارةِ المذكورةِ، فسُبحانَ مَن أضَلَّهم حتَّى تأدَّبُوا مع الأوثانِ، وأساؤوا الأدَبَ على الرَّحمنِ(٤)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - مع حاشية ابن المنير)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) =

٤- قولُه تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ قدَّمَ أوَّلًا ذَمَّ الإنسانَ على إفراطِ العَجلةِ وأنَّه مَطبوعٌ عليها، ثمَّ نهاهُم وزجَرَهم، كأنَّه قال: ليس ببِدْعٍ ولا يَبعُدُ منكم أنْ تَستعجِلوا؛ فإنَّكم مَجْبولون على ذلك، وهو طبْعُكم وسَجِيَّتُكم[1].

- قولُه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ يُرادُ بالإنسانِ هنا اسْمُ الجنْسِ؛ جُعِلَ لفَرْطِ استعجالِه وقِلَّةِ صَبْرِه كأنَّه مَخلوقٌ منه؛ تَنزيلًا لِما طُبِعَ عليه من الأخلاقِ مَنزِلةَ ما طُبِعَ منه من الأركانِ؛ إيذانًا بغايةِ لُزومِه له وعدَمِ انفكاكِه عنه[2]، وكأنَّه سبحانه نبَّه بهذا على أنَّ تركَ الاستعجالِ حالةٌ شريفةٌ عاليةٌ مرغوبٌ فيها؛ لأنَّ العائقَ كلَّما كان أشدَّ، كانت القدرةُ على مخالفتِه أكملَ[3].

- وجُملةُ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وبين جُملةِ ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾، جُعِلَتْ مُقدِّمةً لجُملةِ ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾[4]، وهي مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للرَّدِّ على استعجالِهم العذابَ[5].

- قولُه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: ٣٦] وبين جُملةِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

= (٤/ ٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٧).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٠٩).

﴿ٱلْوَعْدُ﴾ [الأنبياء: ٣٨]؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: ٣٦] يُثيرُ في نُفوسِ المُسلِمينَ تَساؤُلًا عن مَدى إمهالِ المُشرِكينَ، فكان قولُه تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ استئنافًا بَيانيًّا جاء مُعترِضًا بينَ الجُمَلِ الَّتي تَحْكي أقوالَ المُشرِكينَ وما تفرَّعَ عليها(١).

- قولُه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ فيه تَلْوينٌ للخِطابِ وصَرْفٌ له عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المُستعجِلينَ بطَريقِ التَّهديدِ والوعيدِ(٢).

- قولُه: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ تفريعٌ على قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾؛ فتَفرَّعَ على هذا الوعدِ نهيٌ عن طَلبِ التعجيلِ(٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الواوُ استئنافيَّةٌ، والجُملةُ مُستأْنفةٌ مَسوقةٌ لإيرادِ نمَطٍ مِن استعجالِهم المذمومِ(٤).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ قالوهُ استِعجالًا لمَجيئِه بطَريقِ الاستهزاءِ والإنكارِ، واستبطاءً منهم للموعودِ(٥).

- وفي قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ؛ ثِقةً بدَلالةِ ما قبلَه عليه؛ كأنَّه قِيلَ: فلْيأتِنا بسُرعةٍ إنْ كنتُمْ صادِقينَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٧).

٦- قوله تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ شِدَّةِ هَوْلِ ما يَستعجِلونَه، وفَظاعةِ ما فيه من العذابِ. وإيثارُ صِيغَةِ المُضارِعِ في الشَّرطِ -وإنْ كان المعنى على المُضِيِّ- لإفادةِ استمرارِ عدَمِ العِلْمِ. ووضْعُ الموصولِ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للتَّنبيهِ بما في حَيِّزِ الصِّلةِ على عِلَّةِ استعجالِهم[1].

- وحُذِفَ جوابُ (لو) في ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، ونُكتَتُه: تَهويلُ جِنْسِه، فتَذهَبُ نَفْسُ السَّامِعِ كلَّ مَذْهَبٍ[2].

- وضَميرُ ﴿ يَكُفُّونَ ﴾ قيل: إذا كان عائِدًا إلى الملائكةِ، أي: حين لا يُمسِكُ الملائكةُ اللَّفحَ بالنَّارِ عن وُجوهِ المُشرِكينَ، فذِكْرُ الوُجوهِ والأدبارِ للتَّنكيلِ بهم وتَخويفِهم؛ لأنَّ الوُجوهَ أعَزُّ الأعضاءِ على النَّاسِ، ولأنَّ الأدبارَ يأْنَفُ النَّاسُ مِن ضَرْبِها؛ لأنَّ ضربَها إهانةٌ وخِزْيٌ. وإذا كان الضَّميرُ عائدًا إلى الَّذين كَفَروا، أي: حين لا يَستطيعونَ أنْ يدفَعوا النَّارَ عن وُجوهِهم بأيديهم ولا عن ظُهورِهم. فذِكْرُ الظُّهورِ بعْدَ ذِكْرِ الوُجوهِ على هذا الاحتمالِ احتراسٌ لدَفْعِ تَوهُّمِ أنَّهم قد يَكفُّونَها عنْ ظُهورِهم إنْ لم تَشتغِلْ أيديهم بكَفِّها عن وُجوهِهم[3].

- وفي قولِه: ﴿ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ خَصَّ الوجوهَ والظُّهورَ بالذِّكرِ بمعنى القُدَّامِ والخلْفِ؛ لكونِهما أشهَرَ الجوانبِ، واستلزامِ الإحاطةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٠، ٧١).

بهما الإحاطةَ بالكلِّ، بحيث لا يَقدِرون على دَفْعِها بأنفُسِهم من جانبٍ من جَوانبِهم[١]. وقيل: لأنَّ مسَّ العذابِ لهما أعظمُ موقعًا، ولكثرةِ ما يُستعملُ ذكرُهما في دفعِ المضرةِ عن النفْسِ[٢].

- قولُه: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ مفعولُ ﴿يَعۡلَمُ﴾، وهو عبارةٌ عن الوقْتِ الموعودِ الَّذي كانوا يَستعجِلونَه، وإضافتُه إلى الجُملةِ الجاريةِ مَجرى الصِّفةِ الَّتي حَقُّها أنْ تكونَ مَعلومةَ الانتسابِ إلى الموصوفِ عندَ المُخاطَبِ أيضًا مع إنكارِ الكَفرةِ لذلك؛ للإيذانِ بأنَّه مِنَ الظُّهورِ بحيثُ لا حاجةَ له إلى الإخبارِ به، وإنَّما حَقُّه الانتظامُ في سِلْكِ المُسلَّماتِ المفروغِ عنها. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿يَعۡلَمُ﴾ مَتروكَ المفعولِ مُنزَّلًا مَنزِلَةَ اللَّازمِ، أي: لو كان لهم عِلْمٌ لَما فَعَلوهُ. وقولُه تعالى: ﴿حِينَ ...﴾ إلخ، استئنافٌ مُقرِّرٌ لجَهْلِهم، ومَبيِّنٌ لاستمرارِه إلى ذلك الوقْتِ؛ كأنَّه قِيلَ: حين يَرَونَ ما يرَوْن يَعْلمون حَقيقةَ الحالِ. أو أنْ يكونَ مفعولُ ﴿يَعۡلَمُ﴾ محذوفًا؛ لدَلالةِ ما قبْلَه، أي: لو يَعلَمُ الَّذين كَفَروا مَجِيءَ الموعودِ الَّذي سَألوا عنه واسْتَبطؤوهُ[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم ﴾ استدراكٌ مُقدَّرٌ قبْلَه نَفْيٌ؛ تَقديرُه: إنَّ الآياتِ لا تأْتي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٨).

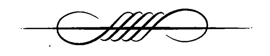
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٨).

بحسَبِ اقتراحِهم[١].

- و(بَل) في قولِه: ﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم ﴾ للإضرابِ الانتقاليِّ مِن تَهويلِ ما أُعِدَّ لهم، إلى التَّهديدِ بأنَّ ذلك يَحُلُّ بهم بَغْتةً وفجأةً، وهو أشَدُّ على النُّفوسِ؛ لعَدمِ التَّهيُّؤِ له، والتَّوطُّنِ عليه[٢].

- قولُه: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾؛ فالبَهتُ: الغَلبُ المفاجِئُ المُعْجِز عن المُدافَعةِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٧٢).

الآيات (٤١-٤٧)

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ، ونزَلَ، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[1].

﴿يَكْلَؤُكُم﴾: أي: يَحفَظُكم، ويَحرُسُكم، والكِلاءةُ: حِفْظ الشَّيءِ وتَبقيتُه، وأصلُ (كلأ): يدُلُّ على مُراقَبةٍ ونَظَرٍ[2].

﴿يُصْحَبُونَ﴾: أي: يُجارُونَ، ويُنصَرونَ؛ لأنَّ المُجِيرَ صاحِبٌ لجارِه. والعربُ تقولُ: صَحِبَك اللهُ، أي: حَفِظك اللهُ وأجارَك، وأصلُ (صحب): يدُلُّ على مُقارنةِ شَيءٍ، ومُقاربتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٥)، =

﴿أَطْرَافِهَآ﴾: أي: جَوانبِها، ونَواحيها، وأصلُ (طرف): يدُلُّ على حَدِّ الشَّيءِ وحَرْفِه[1].

﴿ٱلصُّمُّ﴾: جمعُ الأصمِّ، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّة السَّمع، وبه يُوصَف مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقبلُه، وأصلُه: الصَّلابةُ، وقيل: السَّدُّ[2].

﴿نَفْحَةٌ﴾: أي: أدنَى شَيءٍ، والنَّفحةُ: الدَّفعةُ اليَسيرةُ مِن الشَّيءِ دُونَ مُعظَمِه، والنَّصيبُ والحَظُّ، مِن قَولِهم: نفح فلانٌ لفُلانٍ مِن عَطائِه: إذا أعطاه قَسمًا أو نصيبًا، وأصلُ (نفح): يدُلُّ على اندِفاعِ الشَّيءِ[3].

﴿خَرْدَلٍ﴾: الخَردَلُ: حُبوبٌ دَقيقةٌ كحَبِّ السِّمسِمِ، هي بُزورُ شَجَرٍ يُسَمَّى عند العَرَبِ الخَرْدَلَ. ويُضرَبُ به المَثَلُ في الصِّغَرِ والحَقارةِ[4].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُسلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه مِن هؤلاءِ المشركينَ: ولقد استُهزِئَ برُسُلٍ مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- فنزل بالذين كانوا

= ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٦)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٦٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٢٠٣)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٦).

يَستَهزِئونَ العذابُ الذي كانوا يَستَهزِئونَ به في الدُّنيا، ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه.

قل -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: مَن يَحفَظُكم ويَحرُسُكم في لَيلِكم أو نَهارِكم مِن الرَّحمنِ؟! بل هم عن ذِكرِ ربِّهم لاهُونَ غافِلونَ!

ألهؤلاءِ الكُفَّارِ آلِهةٌ تَمنَعُهم مِن عذابِنا؟ إنَّ آلِهتَهم لا يَستَطيعونَ أن يَنصُروا أنفُسَهم، فكيف يَنصُرونَ عابِدِيهم؟! وليس لتلكَ الآلهةِ مُجيرٌ يُجيرُهم مِنَّا.

لقد اغتَرَّ الكُفَّارُ وآباؤُهم بالإمهالِ؛ لِمَا رأَوْهُ مِنَ الأموالِ والبَنِينَ وطُولِ الأعمارِ، فظَنُّوا أنَّها لا تَزولُ عنهم، واغترُّوا بإمهالِ اللهِ لهم، فحمَلَهم ذلك على الكُفرِ والطُّغيانِ. أفلا يرى هؤلاء الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم. أفكُفَّارُ مكَّةَ هم المُنتَصِرونَ عليك -يا محمَّدُ- وعلى أتباعِك من المؤمنينَ؟! بل هم المَغلوبونَ!

قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: ما أُخَوِّفُكم مِن العَذابِ إلَّا بوَحيٍ مِن اللهِ، وهو القُرآنُ. ولكِنَّ الكُفَّارَ لا يَسمَعونَ إلى القُرآنِ، فلا ينتَفِعونَ به، كأنَّهم صُمٌّ حين يُخوَّفونَ بآياتِه.

ولو أصاب الكُفَّارَ أقَلُّ شَيءٍ مِن عَذابِ اللهِ ليقولُنَّ نادمينَ مُتحَسِّرينَ: يا وَيْلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بعِبادتِنا غيرَ اللهِ!

ويضَعُ اللهُ الموازينَ العادِلةَ في يومِ القيامةِ؛ لِوَزنِ أعمالِ العِبادِ عند الحسابِ، ولا يَظلِمُ نَفسًا شيئًا، وإن كان هذا العمَلُ مِن خيرٍ أو شَرٍّ قدْرَ ذَرَّةٍ جاء الله بها لتُوزَنَ في الميزانِ، وكفى بالله مُحصِيًا أعمالَ عِبادِه، ومُجازيًا لهم عليها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ قَولُ الله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ سَلَّاه تعالى بأنَّ مَن تقَدَّمَه مِن الرُّسُلِ وقَعَ مِن أُمَمِهم الاستهزاءُ بهم، وأنَّ ثَمرةَ استِهزائِهم جَنَوها هلاكًا وعِقابًا في الدُّنيا والآخرةِ، فكذلك حالُ هؤلاء المُستَهزِئينَ[1].

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾.

أي: ولقد استهزأ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ برُسُلِهم الذين أرسَلْناهم مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- فاصبِرْ على استِهزاءِ الكافرينَ كما صبَرَ عليه غَيرُك مِن الرُّسُلِ[2].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي: فنزلَ وأحاط بالكافِرينَ الذين سَخِروا مِنَ الرُّسُلِ العذابُ الذي كانوا يَستَهزِئونَ به في الدُّنيا، ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا سَلَّى الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على استهزاءِ الكافرينَ بالوعيدِ، أمَرَ أن يُذكِّرَهم بأنَّ غُرورَهم بالإمهالِ مِن قِبَلِ اللهِ رَحمةٌ منه بهم، كشأنِه في الرَّحمةِ بمَخلوقاتِه، بأنَّهم إذا نزَلَ بهم عذابُه لا يَجِدونَ حافِظًا لهم مِنَ العذابِ غَيْرَه، ولا تَمنَعُهم منه آلهتُهم[1].

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: مَن يَحرُسُكم ويَحفَظُكم باللَّيلِ والنَّهارِ مِن الرَّحمنِ[2]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤١) و(٣٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٣، ١٥٤).

قيل: قَولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يعني: بَدَلًا من الرَّحمنِ، وذلك كقولِه تعالَى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي: لجَعلْنا بَدَلًا منكم. فمعنى الآيةِ على ذلك: مَن يحفَظُكم ويحرُسُكم ويمنَعُ عنكم العذابَ غيرُ الرحمنِ؟ وممن اختار هذا المعنى: ابنُ تيميَّة، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٤٤١) و(٣٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

وقيل: المعنى: مَن يحفَظُكم مِن بأسِ الرحمنِ وعذابِه إن أراد أن يُنزِلَه بكم؟ وممن اختار =

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: بل الكُفَّارُ مُعرِضونَ عن ذكرِ ربِّهم[1]؛ ....

= هذا المعنى: مقاتل بنُ سليمان، وابن جرير، والزجاج، والسمعاني، والزمخشري، والرسعني، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٣، ١٥٤).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ القرآنُ: مقاتلُ بنُ سليمان، ويحيى بنُ سلام، والواحدي، والبغوي، وابنُ الجوزي -وكلاهما زاد: مواعظ الله-، والرسعني، والقرطبي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٨).

قال ابن جرير: (بل هم عن ذكرِ مواعظِ ربِّهم، وحُججِه التي احتجَّ بها عليهم معرضونَ، لا يتدبَّرونَ ذلك، فلا يعتبرونَ به؛ جهلًا منهم وسفهًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٩).

وممن اختار أنَّ المعنى: لا يُخطِرون ذِكرَه تعالى ببالِهم، فضلًا أن يخافوا بأسَه: الزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٩٦).

قال النسفي: (المعنى: أنَّه أمَرَ رَسولَه بسؤالِهم عن الكالئِ [أي: في قَولِه: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾]، ثمَّ بيَّن أنَّهم لا يَصلُحونَ لذلك؛ لإعراضِهم عن ذِكرِ مَن يَكلَؤُهم). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٠٥).

وقال ابنُ جُزَي: (إذا سُئِلوا عن ذلك السُّؤالِ [﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾] لم يجيبوا عنه؛ لأنَّهم تقومُ عليهم الحُجَّةُ إن أجابوا، ولكِنَّهم يُعرِضونَ عن ذِكرِ اللهِ، أي: عن الجَوابِ الذي فيه ذِكرُ اللهِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣).

وقال الرازي: (﴿ذِكْرِ رَبِّهِم﴾... هو الدَّلائلُ العَقليَّةُ والنَّقليَّةُ، ولطائفُ القرآنِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٧).

وقال ابن كثير: (قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لا يَعترفونَ بنِعَمِه =

جهلًا منهم، وسفهًا[١].

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾.

أي: ألهؤلاءِ الكُفَّارِ آلِهةٌ غيرُنا تَحفَظُهم مِن عَذابِنا إن أنزَلْناه بهم[٢]؟

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لا تَقدِرُ آلهتُهم المزعومةُ أن تَنصُرَ أنفُسَها لِضَعفِها، فكيف تنصُرُ عابديها، وتمنَعُهم مِن عذابِنا[٣]؟!

= عليهم، وإحسانِه إليهم، بل يُعرِضونَ عن آياتِه وآلائِه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤).

قال ابنُ عطية: (في آخِرِ الكلامِ تَقديرُ مَحذوفٍ، كأنه قال: ليس لهم مانِعٌ ولا كالئٌ، وعلى هذا النفيِ تركَّبَت «بل» في قَولِه: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾... والمعنى: أيظنُّونَ أنَّ آلِهَتَهم التي هي بهذه الصِّفةِ تَمنَعُهم مِن دُونِنا؟! بل ما يمنَعُهم أحَدٌ إلَّا نحن). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٤).

وقال ابنُ جزي: (قولُه: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بمعنى أنَّهم إذا سُئِلوا عن ذلك السُّؤالِ [أي: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾] لم يجيبُوا عنه؛ لأنَّهم تقومُ عليهم الحُجَّةُ إن أجابوا، ولكِنَّهم يُعرِضونَ عن ذِكرِ الله، أي: عن الجَوابِ الذي فيه ذِكرُ الله. وقال الزمخشريُّ: معنى الإضرابِ هنا أنَّهم مُعرِضونَ عن ذِكرِه، فضلًا عن أن يخافُوا بأسَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤).

كما قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾.

أي: وليس لتلك الآلهةِ مُجيرٌ يُجيرُهم مِنَّا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٣/ ٤٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦).

قال ابن الجوزي: (﴿وَلَا هُم﴾ في المشارِ إليهم قولان: أحدُهما: أنَّهم الكفار، وهو قولُ ابنِ عبَّاس. والثاني: أنَّهم الأصنامُ، قاله قتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٢).

وممن اختار الأولَ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جريرٍ، والواحدي، وابن جزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣).

وممن اختار الثاني: الرسعني، وأبو حيانَ، والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦).

وممن اختار أنَّ معنى ﴿يُصْحَبُونَ﴾: يُجارونَ: ابنُ جرير، والواحدي، والسمعاني، والعليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، والحسنُ، والكلبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٠).

وقال مجاهدٌ: يُمنعون. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ١٩٩).

قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: يُجارُونَ... وأغلبُ أقوالِ العُلماءِ في الآيةِ راجعةٌ إلى ما ذكَرْنا؛ كقولِ بعضِهم: ﴿يُصْحَبُونَ﴾ يُمنَعونَ. وقَولِ بَعضِهم: يُنصَرونَ. وقولِ بعضِهم: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: لا يصحَبُهم اللهُ بخيرٍ، ولا يجعَلُ الرَّحمةَ صاحبًا لهم. والعلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٥٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٦].

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾.

أي: ولكنَّ الذي أوجبَ استِمرارَهم على كُفرِهم وشِركِهم هو أنَّنا متَّعْنا مُشرِكي قُرَيشٍ وآباءَهم مِن قَبلِهم بالنِّعَمِ، وأطَلْنا أعمارَهم، فظَنُّوا أنَّها لا تَزولُ عنهم، فقَسَت قلوبُهم، واغترُّوا بإمهالِ اللهِ لهم، وأعرَضوا عن تدبُّرِ حُجَجِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فحمَلَهم ذلك على الطُّغيانِ، والاستِمرارِ على باطِلِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦).
قال ابن عاشور: (قد استقريتُ أنَّ القرآنَ إذا ذُكرتْ فيه هذه الإشارةُ [يعني: هؤلاء] دونَ وجودِ مشارٍ إليه في الكلامِ فهو يعني بها كفَّارَ قريشٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٦).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٩، ٣٠].

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾.

أي: أوَلم يرَ الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم[١]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٧).

وممن اختار القولَ المذكورَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والرسعني، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، وابن جزي، والمحلي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٠٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٤).

قال السمعاني: (﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ الأكثرونَ: أنَّ هذا هو ظهورُ النَّبيِّ، وفتحُه ديارَ الشِّركِ أرضًا أرضًا، وبلدةً بَلْدَةً، والدَّليلُ على صحةِ هذا التأويلِ أنَّه قال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي: ليست الغلبةُ لهم؛ إنَّما الغلبةُ لي ولرسولي). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس في رواية عنه، والضحاك، والحسن. يُنظر: =

= ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٠١).
قال ابنُ عطية: (وهذا... القَولُ لا يتأتَّى إلَّا بأن نقَدِّرَ نزولَ هذه الآيةِ بالمدينةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١٩).
وقال الألوسي: (والآيةُ... مدنيةٌ، وهي نازلةٌ بعدَ فرضِ الجهادِ، فلا يَرِدُ أنَّ السورةَ مكِّيَّةٌ، والجهادُ فُرِض بعدَها حتى يقالَ: إنَّ ذلك إخبارٌ عن المستقبَلِ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٥١).
وقال الشنقيطي: (في معنى إتيانِ اللهِ الأرضَ يَنقُصُها مِن أطرافِها في هذه الآيةِ الكريمةِ أقوالٌ مَعروفةٌ للعُلَماءِ، وبَعضُها تدُلُّ له قرينةٌ قرآنيَّةٌ، وأمَّا القولُ الذي دَلَّت عليه القرينةُ القُرآنيَّةُ فهو أنَّ معنى ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي: نَنقُصُ أرضَ الكُفرِ ودارَ الحَربِ، ونحذِفُ أطرافَها بتسليطِ المُسلِمينَ عليها، وإظهارِهم على أهلِها، ورَدِّها دارَ إسلامٍ، والقرينةُ الدَّالَّةُ على هذا المعنى هي قَولُه بعده: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، والاستفهامُ لإنكارِ غلَبَتِهم. وقيل: لِتَقريرِهم بأنَّهم مغلوبون لا غالبون، فقَولُه: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ نَقصَ الأرضِ مِن أطرافِها سَبَبٌ لغَلَبةِ المُسلِمينَ للكُفَّارِ، وذلك إنَّما يحصُلُ بالمعنى المذكورِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٥٧).
وقال البقاعي: (﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: يَعلَمونَ عِلمًا هو في وضوحِه مِثلَ الرُّؤيةِ بالبَصَرِ... ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ أي: التي أهلُها كُفَّارٌ إتيانَ غَلَبةٍ لهم بتَسليطِ أوليائِنا عليهم؟!). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٢٦).

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: أفلا يرى هؤلاء المُشرِكون بالله، السَّائلونَ محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم الآياتِ، المُستعجِلوه بالعَذابِ: أنَّا نأتي الأرضَ نُخرِّبُها من نواحيها بقَهرِنا أهلَها وغَلَبَتِناهم، وإجلائِهم عنها وقَتْلِهم بالسُّيوفِ؛ فيَعتَبِروا بذلك ويتَّعِظوا به، ويحذَروا مِنَّا أن نُنزِلَ مِن بأسِنا بهم نحوَ الذي قد أنزَلْنا بمن فعَلْنا ذلك به مِن أهل الأطرافِ؟!). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨١).

ويُنظر كلامُ ابنِ كثيرٍ في نظير هذه الآيةِ من سورةِ الرعدِ (آية ٤١)، حيث اختار أنَّ المرادَ هو ظهورُ الإسلامِ على الشركِ قريةً بعدَ قريةٍ. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٣).
وقال في آيةِ سورةِ الأنبياءِ: (﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤] اختلَف المفسِّرونَ في معناه... وأحسنُ ما فُسِّر بقولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحْقافِ:٢٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥). قال الشِّنقيطيُّ تعليقًا على كلامِ ابنِ كثيرٍ: (ما ذكره ابنُ كثيرٍ صَوابٌ، واستقراءُ القُرآنِ العَظيمِ يدُلُّ عليه، وعليه فالمعنى: أفلا يرى كُفَّارُ مكَّةَ ومَن سار سَيرَهم في تكذيبِك -يا نبيَّ اللهِ- والكُفرِ بما جِئتَ به: =

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

أي: أفكُفَّارُ مكَّةَ هم المُنتَصِرونَ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأتباعِه المُؤمِنينَ؟! بل المُشرِكونَ هم المغلوبونَ الأخسَرونَ الأذَلُّونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كَرَّر في القُرآنِ الأدِلَّةَ، وبالَغَ في التَّنبيهِ عليها على ما تقَدَّمَ؛ أتبَعَه بقَولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ أي: بالقُرآنِ الذي هو كلامُ رَبِّكم؛ فلا تظُنُّوا أنَّ ذلك مِن قِبَلي، بل اللهُ آتيكم به، وأمَرَني بإنذارِكم[2].

= أنَّا نأتي الأرضَ نَنقُصُها من أطرافِها، أي: بإهلاكِ الذين كذَّبوا الرُّسُلَ، كما أهلَكْنا قَومَ صالحٍ وقَومَ لوطٍ، وهم يمُرُّونَ بديارِهم، وكما أهلَكْنا قومَ هودٍ، وجعَلْنا سبأً أحاديثَ ومَزَّقْناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ؟!). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٥٧، ١٥٨).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ هو خرابُ القُرى: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في رواية عنه، وابنُ جريجٍ -وزاد وهلاك الناسِ-، وعكرمةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٦).

وذهب السعدي إلى أنَّ المرادَ بنقصِ الأرضِ مِن أطرافِها: مَوتُ أهلِها شَيئًا فشيئًا، حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وعكرمةُ في روايةٍ عنه، وعطاءٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٧٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٥٠١).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ المراد: نقصانُ عددِ المشركينَ بدُخولِ كثيرٍ منهم في الإسلامِ مِن أهلِ مكَّةَ وغَيرِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٦، ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٨).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما أُخوِّفُكم عذابَ اللهِ بالقُرآنِ الذي يُنزِلُه اللهُ علَيَّ، ولا أُحَذِّرُكم مِن قِبَلِ نَفسي(1).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ بتاءٍ مَضمومةٍ، وكسرِ الميمِ، بالخطابِ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و(الصُّمَّ) بالفَتحِ على أنَّه مفعولٌ به لـ(تُسْمِعُ)، أي: أنت -يا محمَّدُ- لا تقدِرُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ، وهم الكافِرونَ(2).

٢- قراءةُ ﴿يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ﴾ بياءٍ مفتوحةٍ، وفَتحِ الميمِ، و(الصُّمُّ) بالرَّفعِ على أنَّه فاعِلُ (يَسْمَعُ)، أي: أنَّ الكافرينَ تَرَكوا استِماعَ ما يجِبُ عليهم استِماعُه وقَبولُه، وفيه معنى الذَّمِّ لِمن كان قادرًا على سَماعِ الحَقِّ فترَك استِماعَه(3).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

(٢) قرأ بها ابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٨)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١١).

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

أي: ولا يُصغي الكُفَّارُ إلى القُرآنِ، كأنَّهم صُمٌّ لا ينتَفِعونَ به حين يُخوَّفونَ بآياتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١].

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: ولَئِنْ أصاب الكافرينَ المُستَعجِلينَ بالعذابِ أقَلُّ شَيءٍ مِن عذابِ ربِّك -يا مُحمَّدُ- ليقولُنَّ نادمينَ مُتحَسِّرينَ: يا ويلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بعِبادتِنا غيرَ اللهِ(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٩).

ذهب ابنُ عطيةَ وأبو حيان والعليمي إلى أنَّ هذه النفحةَ مِن العذابِ في الدنيا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥٩).

وهذا القولُ ذكَر الألوسي أنَّه قيل بناءً على ما رُوي عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما مِن تفسيرِ النفحةِ بالجوعِ الذي نزَل بمكةَ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٥٢). =

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: ونُقيمُ الموازينَ العادِلةَ في يومِ القيامةِ؛ لِوَزنِ أعمالِ العِبادِ عند حِسابِهم[1].

= واستظهر الألوسي أنَّ هذا المسَّ يكونُ يومَ القيامة. وذكَر ابنُ عاشور أنَّ هذه النفحةَ مِن العذاب هي أولُ العذابِ في الآخرةِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٩).

وقال ابنُ كثير: (ولئن مَسَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ أدنَى شيءٍ مِن عَذابِ اللَّهِ، ليعتَرِفُنَّ بذُنوبِهم، وأنَّهم كانوا ظالمينَ أنفسَهم في الدُّنيا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥).

قال الطِّيبي: (والذي يدلُّ على أنَّ قولَه: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ ﴾ متعلِّقٌ بأحوالِ القيامةِ: إيقاعُ قولِه تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ حالًا من الضميرِ في ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ بتقديرِ: نحنُ نضعُ، خاليًا عن الضميرِ، على منوالِ: جئتُكَ والشمسُ طالعةٌ). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٨، ١٦٠).

قال الشنقيطي: (اختلفوا في كيفيَّةِ هذا الوَزنِ على ثلاثةِ أقوالٍ لا يُكَذِّبُ بَعضُها بَعضًا، وقال بعضُ العُلَماءِ: لا مانِعَ مِن أن يقعَ جميعُها، فذهب أكثَرُ المفَسِّرين إلى أنَّ الموزونَ هو صحائِفُ الأعمالِ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ له كتابٌ وصحائِفُ فيها عَمَلُه... وذهبت جماعةٌ من العُلماءِ، ورواه غيرُ واحدٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الموزونَ نفسُ الأعمالِ، وأنَّ الله يُحَوِّلُ الأعمالَ الحَسَنةَ إلى أجرامٍ حَسَنةٍ مُضيئةٍ نَيِّرةٍ... وقال بعضُ أهل العِلمِ: إنَّ ما يُوزَنُ أصحابُ الأعمالِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٢-٧٤).

وقال أيضًا: (الأحاديثُ النَّبويَّةُ، وظواهِرُ القرآنِ العَظيمةُ، وسائِرُ المُسلِمينَ -إلَّا مَن شَذَّ- كُلُّها مُتَّفِقةٌ على أنَّه ميزانٌ حَقيقيٌّ له لِسانٌ وكِفَّتانِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٩).

وقال ابن أبي العز: (ثَبَت وزنُ الأعمالِ والعامِلِ وصحائِفِ الأعمالِ، وثَبَت أنَّ الميزانَ له =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾.

أي: فلا يَظلِمُ اللهُ نفْسًا يومَ القيامةِ بالنَّقصِ مِن حَسَناتِها، أو بمُعاقَبتِها بغيرِ ذَنبِها، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِها[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ سيُخَلِّصُ رَجُلًا مِن أُمَّتي على رُؤوسِ الخلائِقِ يومَ القيامةِ، فيَنشُرُ عليه تِسعةً وتِسعينَ سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مِثلُ مَدِّ البَصرِ[2]، ثمَّ يقولُ: أتُنكِرُ مِن هذا شيئًا؟ أظلَمَك كَتَبَتي الحافِظونَ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ:

= كِفَّتانِ. واللهُ تعالى أعلمُ بما وراءَ ذلك مِن الكيفيَّاتِ). ((شرح الطحاوية)) (٢/ ٦١٣).

وقال الشنقيطي: (اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيها أوجهٌ مَعروفةٌ عند العلماء: منها: أنَّها للتَّوقيتِ، أي: الدَّلالةِ على الوَقتِ... ومنها: أنَّها لامُ «كي»، أي: نَضعُ الموازينَ القِسطَ؛ لأجْلِ يومِ القيامةِ، أي: لحِسابِ النَّاسِ فيه حِسابًا في غايةِ العدالةِ والإنصافِ. ومنها: أنَّها بمعنى «في»، أي: نضعُ الموازينَ القِسطَ في يومِ القيامةِ. والكوفيونَ يقولونَ: إنَّ اللامَ تأتي بمعنى في، ويقولونَ: إنَّ مِن ذلك قَولَه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: في يومِ القيامةِ، وقَولَه تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: في وَقتِها، ووافقهم في ذلك ابنُ قُتيبةَ من المتقدِّمين، وابنُ مالكٍ من المتأخِّرين). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

(٢) مَدِّ البَصَرِ: أي: مِقدار ما يمتَدُّ إليه بصَرُ الإنسانِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٣١).

أفلَك عُذرٌ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: بلى، إنَّ لك عندنا حَسَنةً، فإنَّه لا ظُلْمَ عليك اليومَ، فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبدُه ورَسولُه، فيقولُ: احضُرْ وَزْنَك، فيقولُ: يا رَبِّ، ما هذه البِطاقةُ مع هذه السِّجِلَّات؟! فقال: إنَّك لا تُظلَمُ، فتُوضَعُ السِّجِلاتُ في كفَّةٍ، والبِطاقةُ في كفَّةٍ، فطاشت[1] السِّجِلاتُ، وثَقُلَت البطاقةُ؛ فلا يَثقُلُ مع اسمِ اللهِ شَيءٌ))[2].

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾.

أي: وإن كان الَّذي للعبدِ مِن عملِ الحسناتِ، أو عليه مِن السَّيِّئاتِ وَزنَ حَبَّةٍ مِن خَردلٍ، جِئْنا بها لِتُوزنَ في الميزانِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

---

(١) فطاشَت: أي: خَفَّت. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٥٠)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/ ٢١٣) (٦٩٩٤)، والحاكم (١/ ٤٦).

قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريب. وصحَّحه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١٣٥): وهو كما قالا. وقال أحمد شاكر في ((تحقيق المسند)) (١١/ ١٧٦): إسناده صحيح.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤).

أي: وكفَى بنا عالِمينَ بأعمالِ العِبادِ، حافِظينَ لها، مُثبِتينَ لها في الكِتابِ، عالِمينَ بمقاديرِها ومقاديرِ ثوابِها وعِقابِها واستِحقاقِها، مُوصِلينَ للعامِلينَ جَزاءَها، ولن نَظلِمَهم شيئًا؛ فليس في الحِسابِ أحدٌ مِثلُنا[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، أي: الأصمُّ لا يَسمَعُ صَوتًا؛ لأنَّ سَمْعَه قد فسَدَ وتعَطَّل، وشَرْطُ السَّماعِ معَ الصَّوتِ أن يُوجَدَ محَلٌّ قابِلٌ لذلك، كذلك الوَحيُ سَبَبٌ لحياةِ القُلوبِ والأرواحِ، وللفِقهِ عن اللهِ، ولكِنْ إذا كان القَلبُ غيرَ قابِلٍ لسَماعِ الهُدى، كان بالنِّسبةِ للهُدى والإيمانِ بمَنزلةِ الأصَمِّ بالنِّسبةِ إلى الأصواتِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ في ذلك تبشيرٌ للمؤمنينَ بما يفتحُ الله عليهم[٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إنْ قيل: الميزانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٧).

قال ابنُ عاشور: (التقدير: وكفى النَّاسَ نحنُ في حالِ حِسابِهم. ومعنى: كفاهم نحن حاسِبينَ: أنَّهم لا يتطَلَّعونَ إلى حاسِبٍ آخَرَ يَعدِلُ مِثلَنا. وهذا تأمينٌ للنَّاسِ مِن أن يُجازَى أحَدٌ منهم بما لا يَستَحِقُّه، وفي ذلك تحذيرٌ مِن العذابِ، وترغيبٌ في الثوابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٤).

واحِدٌ[١]، فما وجهُ الجَمعِ؟

فالجوابُ مِن أوجهٍ:

الأول: أنَّه ميزانٌ واحدٌ، وأُطْلِق عليه اسمُ الجمعِ تفخيمًا له، فالعَربُ قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحِدِ تفخيمًا له. وتُطْلِقُ الجمعَ، وتريدُ المفردَ كعكسِه.

الثاني: أنَّه إنَّما جُمِع باعتبارِ تَعَدُّدِ الأعمالِ الموزونةِ فيه وكثرتِها، وكثرةِ الأشخاصِ العاملينَ، الموزونةِ أعمالُهم.

الثالث: أنَّ الموازينَ جمعُ موزونٍ، والموزونُ هو الحسناتُ والسيئاتُ، وجمعُ (الموزونِ) على (موازينَ) جمعٌ قياسيٌّ مُطَّرِدٌ، وعلى هذا فلا سؤالَ ولا إشكالَ.

الرابع: أنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عبدٍ ميزانٌ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ دَلالةٌ على إثباتِ الوَزنِ يومَ القيامةِ[٣]، وأنَّ وجودَ الموازينِ حَقيقةٌ، وقد جاءت الأحاديثُ الكثيرةُ بالأسانيدِ الصَّحيحةِ في هذا البابِ[٤].

---

(١) قال ابنُ كثير: (الأكثرُ على أنَّه إنَّما هو ميزانٌ واحِدٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٥). ويُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٣٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٩).

وفي الحديث: ((كلِمتانِ خفيفتانِ على اللِّسانِ، ثَقيلتانِ في الميزانِ)). أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)، مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٦)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٩).

٤- إن قيل: قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، ظاهرُه يناقض قولَه تعالى في الكفارِ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]؟

والجوابُ على ذلك مِن وجهينِ:

الأوَّل: أنَّه ليس هذا على أن لا توزنَ أعمالُ الكفارِ، بل تُوزنُ لكنَّ أعمالَهم شَائِلَةٌ[١]، وموازينَهم خفافٌ، قد نَصَّ الله تعالَى على ذلك فقال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، فأَخبَر عزَّ وجلَّ أَنَّ هؤلاءِ المكذِّبين بآياتِه خفَّت موازينُهم، والمكذِّبون بآياتِ الله عزَّ وَجلَّ كفارٌ بلا شكٍّ[٢]، فمعنَى الآيةِ: لا نُثقِّلُ مَوازينَهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّه ليس لهم حَسَناتٌ[٣].

الثاني: أنَّ معنى الآيةِ: لا يُعتَدُّ بهم، ولا يكونُ لهم عندَ الله قَدْرٌ ومَنزِلةٌ[٤]، فلا يُكرِمُهم ولا يُعظِّمُهم[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تَسليةٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن استهزائِهم به عليه

---

(١) شائِلةٌ: أي: خَفيفةٌ، مِن قَولِهم: شال الميزانُ: إذا خَفَّت إحدى كِفَّتَيه فارتفَعَت. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (٤/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٠٧).

الصَّلاةُ والسَّلامُ في ضِمْنِ الاستعجالِ، وعِدَةٌ ضِمْنيةٌ بأنَّه يُصيبُهم مثْلُ ما أصاب المُتسهزئينَ بالرُّسلِ السَّالفةِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

- قولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه التَّصديرُ بالقسَمِ؛ لزِيادةِ تَحقيقِ مَضمونِه. وتَنوينُ الرُّسلِ للتَّفخيمِ والتَّكثيرِ[2].

- قولُه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قُدِّمَ قولُه: ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم﴾ على فاعلِهِ الَّذي هو قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ لُحوقِ الشَّرِّ بهم[3].

- و﴿مَّا﴾ في قولِه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إمَّا موصولةٌ مُفيدةٌ للتَّهويلِ، والضَّميرُ المجرورُ عائدٌ إليها، والجارُّ مُتعلِّقٌ بالفِعْلِ، وتَقديمُه عليه لرِعايةِ الفواصلِ، أي: فأحاطَ بهم الذي كانوا يَستهزئونَ به حيثُ أُهْلِكوا لأجْلِه. وإمَّا مَصدريَّةٌ؛ فالضَّميرُ المجرورُ راجعٌ حينئذٍ إلى جِنْسِ الرَّسولِ المدلولِ عليه بالجَمْعِ، ولعلَّ إيثارَه على الجمْعِ للتَّنبيهِ على أنَّه يَحِيقُ بهم جَزاءُ استهزائِهم بكلِّ واحدٍ واحدٍ منهم عليهم السَّلامُ، لا جزاءُ استهزائِهم بكلِّهم من حيثُ هو كلٌّ فقطْ، أي: فنزَلَ بهم جَزاءُ استهزائِهم -على وَضْعِ السَّببِ مَوضِعَ المسبَّبِ؛ إيذانًا بكَمالِ المُلابَسةِ بينهما-، أو عينُ استهزائِهم إنْ أُرِيدَ بذلك العذابُ الأُخرويُّ، بِناءً على تَجسُّمِ الأعمالِ يومَ القيامةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾

- الاستفهامُ في قولِه: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ استفهامُ تَقريعٍ وتَبْكيتٍ وتَوبيخٍ، أي: لا يَكْلَؤُهم منه أحدٌ؛ فكيف تَجْهَلون ذلك؟! تَنبيهًا لهم إذا نَسُوا نِعَمَه(١).

- وذِكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ لاستيعابِ الأزمنةِ؛ كأنَّه قيل: مَن يَكْلَؤُكم في جَميعِ الأوقاتِ(٢)؟ وقيل: إنما ذُكِر اللَّيلُ والنَّهارُ؛ لأنَّ لكُلِّ واحدٍ مِن الوَقتَينِ آفاتٍ تختصُّ به(٣)، وتَقديمُ اللَّيلِ؛ لِمَا أنَّ الدَّواهِيَ أكثَرُ فيه وُقوعًا، وأشدُّ وَقْعًا(٤).

- وفي لَفْظِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تَنبيهٌ على أنْ لا كالِئَ غيرُ رَحمتِه العامَّةِ(٥). وقيل: خَصَّ هاهنا اسمَ (الرَّحمنِ) بالذِّكرِ؛ تلقينًا للجَوابِ، حتى يقولَ العاقِلُ: أنت الكالئُ يا إلهَنا لكلِّ الخلائِقِ برَحمتِك(٦).

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ فيه إضرابٌ بـ(بَلْ)، وهو ارتقاءٌ مِن التَّقريعِ المَجْعولِ للإصلاحِ إلى التَّأْييسِ مِن صَلاحِهم بأنَّهم عن ذِكْرِ ربِّهم مُعرِضونَ. وفي تَعليقِ الإعراضِ بذِكْرِه تعالى، وإيرادِ اسمِ الرَّبِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٤٦).

المُضافِ إلى ضَميرِهم المُنبِئِ عن كَونِهم تحتَ مَلكوتِه وتَدبيرِه وتَربيتِه تعالى: دَلالةٌ على كَونِهم في الغايةِ القاصيةِ مِنَ الضَّلالةِ والغَيِّ[1].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ فيه الْتِفاتٌ؛ حيث أعرَضَ عنهم من طَريقِ الخطابِ إلى طَريقِ الغَيبةِ؛ لأنَّ ما وُجِّهَ إليهم مِن إنكارِ أنْ يَكلأَهم أحدٌ مِن عَذابِ اللهِ جعَلَهم أحرياءَ بالإعراضِ عنهم[2].

٣- قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ (أَمْ) مُنقطِعةٌ وما فيها من مَعْنى (بلْ) للإضرابِ، والانتقالِ عمَّا قبْلَه إلى تَوبيخِهم باعتمادِهم على آلهتِهم، وإسنادِهم الحِفْظَ إليها، والهمزةُ لإنكارِ أنْ يكونَ لهم آلِهَةٌ تَقدِرُ على ذلك. وفي تَوجيهِ الإنكارِ والنَّفيِ إلى وُجودِ الآلهةِ الموصوفةِ بما ذُكِرَ منَ المنْعِ: دَلالةٌ على سُقوطِها عن مَرْتبةِ الوُجودِ فضْلًا عن رُتْبةِ المنْعِ[3]. وإنَّما خُولِفَ في هذا الإضرابِ بأنْ أتى بـ(أَمْ) المُتضمِّنةِ للهمزةِ و(بَلْ)؛ ليُؤْذِنَ بالاهتمامِ، وأنَّ الجُملةَ مُستطردةٌ بينَ الإضرابينِ بـ(بَلْ)[4].

- قولُه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه من الإنكارِ، ومُوضِّحٌ لبُطلانِ اعتقادِهم[5]. وضَميرُ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٠٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٩).

عائدٌ إلى ﴿ءَالِهَةٌ﴾، أُجْرِيَ عليهم ضَميرُ العُقلاءِ؛ مُجاراةً لِمَا يُجْرِيه العرَبُ في كَلامِهم[1].

٤- قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ فيه تَفريعٌ على إحالتِهم نصْرَ المُسلِمينَ، وعَدِّهم تأْخيرَ الوعْدِ به دَليلًا على تكذيبِ وُقوعِه حتَّى قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨]؛ تَهكُّمًا وتكذيبًا[2].

- ولمَّا أنذَرَهم بما سيَحُلُّ بهم في قولِه تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩- ٤١]، فرَّعَ على ذلك كلِّه بقولِه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ ...﴾ استفهامًا تَعجُّبيًّا مِن عدَمِ اهتدائِهم إلى أماراتِ اقترانِ الوعْدِ بالموعودِ، استِدلالًا على قُرْبِه بحُصولِ أماراتِه[3]. وقيل: الفاءُ في ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ لعطْفِ الجُملةِ على مُقدَّرٍ، وفي ﴿أَفَهُمُ﴾ على المذكورِ، والهمزةُ الثَّانيةُ مُكرَّرةٌ مُقْحمةٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لتَأْكيدِ التَّقريرِ على سَبيلِ التَّعكيسِ، أي: أفلا يَنظُرون كيف نَغلِبُهم ونَنقُصُ من أطْرافِ أرْضِهم، فهم الغالِبونَ أمْ نحنُ[4]؟!

- وفائدةُ قولِه: ﴿نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ تَصويرُ ما كان اللهُ يُجْرِيه على أيدي المُسلِمينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٥٢).

وأنَّ عساكِرَهم وسراياهم كانت تَغْزو أرضَ المُشرِكينَ وتأْتيها غالِبةً عليها، ناقِصةً مِن أطْرافِها[1].

- وأسنَدَ سُبحانه الضَّميرَ إلى نفْسِه ﴿نَأۡتِي﴾؛ تَعظيمًا للمُسلِمين الَّذين أجْرَى على أيديهم الانتصارَ العظيمَ، وافتتاحَ البلادِ والأمصارِ؛ فأصْلُه: تأْتي جُيوشُ المُسلِمين، ولكنَّه أسنَدَ الإتيانَ إلى نفْسِه؛ تَنويهًا بقدْرِ المُجاهِدين، وتَعظيمًا لِما أتَوا به من جلائلِ الأعمالِ، وناهِيكَ بمَن يَعمَلُ عمَلًا يَنسِبُه اللهُ إلى نفْسِه[2].

- قولُه: ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ هذه الجُملةُ مُفرَّعةٌ على جُملةِ التَّعجُّبِ من عدَمِ اهتدائِهم إلى هذه الحالةِ. والاستفهامُ إنكاريٌّ، أي: فكيف يَحْسَبون أنَّهم غَلَبوا المُسلِمين، وتمكَّنوا مِن الحُجَّةِ عليهم؟! أو كأنَّه قِيلَ: أبَعْدَ ظُهورِ ما ذُكِرَ ورُؤيتِهم له يُتوهَّمُ غلَبتُهم؟! وفيه تَقريعٌ وتوبيخٌ؛ حيث لم يَعْتَبِروا بما يَجْري عليهم[3].

- واختيارُ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ دونَ الفعليَّةِ؛ لدَلالةِ الاسميَّةِ بتَعريفِ جُزأَيها على القصْرِ، أي: ما هم الغالِبونَ، بلِ المُسلِمون الغالِبونَ؛ إذ لو كان المُشرِكون الغالبينَ لَمَا كان عدَدُهم في تَناقُصٍ، ولَمَا خلَتْ بلْدتُهم من عدَدٍ كثيرٍ منهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٧).

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ استئنافٌ ابتِدائيٌّ، مقصودٌ منه الإتيانُ على جَميعِ ما تقدَّمَ مِن استعجالِهم بالوعْدِ، تَهكُّمًا بقولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾[1] [الأنبياء: ٣٨]. وقد عُقِّبَ به أمْرُ اللهِ رسولَه أنْ يُخاطِبَهم بتَعريفِ كُنْهِ دَعوتِه، وهي قَصْرُه على الإنذارِ بما سيَحُلُّ بهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ إنذارًا مِن طَريقِ الوحيِ المُنزَّلِ عليه مِن اللهِ تعالى وهو القُرآنُ؛ فالكلامُ قصْرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، وقَصْرُه على المُتعلِّقِ بتلك الصِّفةِ تبَعًا لمُتعلِّقِه؛ فهو قائمٌ مَقامَ قَصْرينِ[2].

- ولمَّا أُرِيدَ أنْ ينتقلَ مِن عذابِ الاستئصالِ إلى عَذابِ النَّارِ، وهو قولُه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ...﴾ الآيةَ، وُسِّطَ بينهما ما هو مُهِمٌّ بشأْنِه مِن حديثِ الوحيِ، وهو قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ تَوكيدًا؛ لِيُتخلَّصَ منه إليه[3].

- وقولُه: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ إمَّا تتمَّةُ الكلامِ المُلقَّنِ، تَذييلٌ له بطَريقِ الاعتراضِ، قد أُمِرَ عليه السَّلامُ بأنْ يقولَه لهم؛ تَوبيخًا وتَقريعًا وتَسجيلًا عليهم بكَمالِ الجَهلِ والعِنادِ، واللَّامُ في ﴿ٱلصُّمُّ﴾ للجِنْسِ المُنتظِمِ للمُخاطَبينَ انتظامًا أوَّليًّا أو للعهْدِ. وإمَّا مِن جِهَتِه تعالى؛ كأنَّه قِيلَ: قُلْ لَهُم ذلك وأنت بمَعزِلٍ مِن إسماعِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٨).

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾؛ قال: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ مع أنَّ الصُّمَّ لا يَسْمَعون دُعاءَ المُبشِّرِ، كما لا يَسْمعونَ دُعاءَ المُنذِرِ؛ إذِ اللَّامُ في ﴿ٱلصُّمُّ﴾ إشارةٌ إلى هؤلاء المُنذَرينَ كائنةٌ للعهْدِ لا للجِنْسِ -على قولٍ-، والأصْلُ: (ولا يَسْمعون إذا ما يُنْذَرونَ)؛ فوضَعَ الظَّاهِرَ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ للدَّلالةِ على تَصامِّهم وسَدِّهم أسماعَهم إذا أُنْذِروا، أي: هم على هذه الصِّفةِ مِن الجُرأةِ والجَسارةِ على التَّصامِّ مِن آياتِ الإنذارِ[1].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلصُّمُّ﴾ للاستغراقِ -على القولِ بأنَّ اللامَ للجنسِ-، ودخَلَ في عُمومِه المُشرِكونَ المُعرِضون عن القُرآنِ، وهم المقصودُ مِن سَوقِ التَّذييلِ؛ ليَكونَ دُخولُهم في الحُكمِ بطَريقةِ الاستدلالِ بالعُمومِ على الخُصوصِ، وتَقييدُ عدَمِ السَّماعِ بوقْتِ الإعراضِ عندَ سَماعِ الإنذارِ لتَفظيعِ إعراضِهم عنِ الإنذارِ؛ لأنَّه إعراضٌ يُفْضي بهم إلى الهَلاكِ، فهو أفظَعُ من عدَمِ سَماعِ البِشارةِ أو التَّحديثِ، ولأنَّ التَّذييلَ مَسوقٌ عَقِبَ إنذاراتٍ كثيرةٍ. واختِيرَ لفْظُ الدُّعاءِ؛ لأنَّه المُطابِقُ للغرَضِ؛ إذ كان النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ داعيًا كما قال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[2] [يوسف: ١٠٨].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وفي سُورةِ (النَّملِ) و(الرُّومِ) قال: ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، [الروم: ٥٢]؛ فخُتِمَتِ الأُولى بقولِه: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، وخُتِمَتْ آيتا (النَّملِ) و(الرُّومِ) بقولِه: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٨، ٧٩).

مُدۡبِرِينَ ﴾؛ ووجْهُه: أنَّ آيةَ (الأنبياءِ) قد تقدَّمَها أمْرُ النَّبيِّ عليه السَّلام بخِطابِ حاضِرِيه، وإنْذارِهم بما أُوحِيَ إليه، وإعلامِهم بأنَّ إنْذارَه إيَّاهم لا يُجْدي عليهم؛ تَسليةً له عليه السَّلامُ، وإعْلامًا بما سبَقَ لهم أزَلًا، فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ ﴾، ثمَّ قال لهم: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]؛ فأعْلَمَهم بإعلامِ اللهِ تعالى بأنَّهم صُمُّوا عن سَماعِه، ومُنِعوا ثَمرتَه من الإجابةِ لِمَا سبَقَ عليهم، فقيل: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾، أي: أنَّهم وقْتَ إنْذارِهم مَمنوعونَ عن السَّمعِ، كما ورَدَ قبْلَ آيتَيِ (النَّملِ) و(الرُّومِ) قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ [الروم: ٥٢]؛ إلْحاقًا لحالِ المُخاطَبينَ بهم في عدَمِ الجَدْوى عليهم، ناسَبَ ذلك قولُه: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾؛ فوضَحَ التَّناسُبُ في نِظامِ هذه الآياتِ، وأنَّ العكْسَ لا يُناسِبُ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ بيانٌ لسُرعةِ تأثُّرِهم من مَجِيءِ نفْسِ العذابِ إثْرَ بَيانِ عدَمِ تأثُّرِهم من مَجِيءِ خبَرِه على نهْجِ التَّوكيدِ القَسَميِّ[2]، وأكَّدَ الشَّرطَ بلامِ القسَمِ؛ لتَحقيقِ وُقوعِ الجَزاءِ[3].

- قولُه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ في المَسِّ والنَّفحةِ ثلاثُ مُبالَغاتٍ؛ الأُولى: ذِكْرُ المَسِّ وإسنادُه إلى النَّفحةِ دونَ فِعْلٍ آخَرَ، والمَسُّ أقَلُّ شَيءٍ، بل هو شَيءٌ رَقيقٌ جِدًّا؛ فكيف إذا انثالَ[4] عليهم؟! الثَّانيةُ: ما في النَّفحةِ من معنى القِلَّةِ والنَّزارةِ، وتَنكيرُها. الثَّالثةُ: بِناءُ المرَّةِ مِن النَّفحِ،

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٧٩).

(٤) انثال: أي: صُبَّ واستُفرِغَ. يُنظر: ((مشارق الأنوار على صحاح الآثار)) للقاضي عياض (٢/ ٤).

فمصدَرُ المرَّةِ يأْتي على (فَعْلَةٍ)، أي: نَفحةٌ واحدةٌ لا ثانِيَ لها تَكْفي لتَشتيتِ أمْرِهم، وتَوهينِ كِيانِهم، وتَصدُّعِ صُفوفِهم؛ فكيف إذا عُزِّزَت بثانيةٍ أو ثالثةٍ[١]؟!

٧- قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ عاطفةً هذه الجُملةَ على جُملةِ: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ﴾؛ لِمُناسَبةِ قولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، ولبَيانِ أنَّهم مُجازونَ على جَميعِ ما أسْلَفوهُ من الكُفْرِ وتكذيبِ الرَّسولِ، بَيانًا بطَريقِ ذِكْرِ العُمومِ بعْدَ الخُصوصِ في المُجازينَ، فشابَهَ التَّذييلَ؛ من أجْلِ عُمومِ قولِه تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، وفي المُجازَى عليه؛ من أجْلِ قولِه: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ مِن ﴿رَبِّكَ﴾ في ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، وتكونَ نونُ المُتكلِّمِ المُعظِّمِ الْتِفاتًا لمُناسَبةِ الجزاءِ للأعمالِ؛ ولذلك فرَّعَ عليه قولَه تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[٢].

- في قولِه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ وُصِفَتِ الموازينُ بالقِسْطِ مُبالَغةً، كأنَّها في أنفُسِها قِسْطٌ. أو على حَذْفِ المُضافِ، أي: ذواتِ القِسْطِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مَفعولًا لأجْلِه، أي: لأجْلِ القِسْطِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢٢).

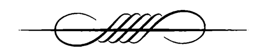
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٠، ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٤).

- قولُه: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ فُرِّعَ على وَضْعِ الموازينِ تَفريعَ العِلَّةِ على المعلولِ، أو المعلولِ على العِلَّةِ. والظُّلْمُ: ضِدُّ العدْلِ، ولذلك فُرِّعَ نَفْيُه على إثباتِ وَضْعِ العدْلِ. ووُقوعُ لفظةِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سِياقِ النَّفيِ دَلَّ على تأْكيدِ العُمومِ، أي: شيئًا مِن الظُّلمِ، ووُقوعُه في سِياقِ النَّفيِ دَلَّ على تأْكيدِ العُمومِ مِن فِعْلِ ﴿تُظۡلَمُ﴾ الواقعِ أيضًا في سِياقِ النَّفيِ، أي: لا تُظْلَمُ بنَقْصٍ من خيرٍ اسْتحقَّتْه، ولا بزيادةِ شَيءٍ لم تَستحِقَّه. وهذه الجُملةُ كلمةٌ جامعةٌ لمَعانٍ عِدَّةٍ مع إيجازِ لفظِها؛ فنُفِيَ جِنْسُ الظُّلمِ، ونُفِيَ عن كلِّ نفْسٍ، فأفاد أنْ لا بَقاءَ لظُلْمٍ بدونِ جَزاءٍ[١].

- قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ فيه توعُّدٌ، وهو إشارةٌ إلى ضَبْطِ أعمالِهم مِن الحسابِ، وهو العَدُّ والإحصاءُ. وقيل: هو كِنايةٌ عن المُجازاةِ[٢].

- وضَميرُ الجمْعِ في قولِه: ﴿حَٰسِبِينَ﴾ مُراعًى فيه ضَميرُ العَظمةِ من قولِه تعالى: ﴿بِنَا﴾، والباءُ مَزيدةٌ للتَّوكيدِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٧).

الآيات (٤٨-٥٠)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: ولقد آتَينا موسى وهارونَ ما يُفرَقُ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ، والتوراةَ مُضيئةً طَريقَ الحَقِّ، مُبَصِّرةً لِمن اتَّبَعَها؛ وتذكيرًا ومَوعِظةً للمُتَّقينَ، الذين يخافُونَ رَبَّهم في غَيبِهم وخَلَواتِهم، وهم من القيامةِ خائِفونَ وَجِلونَ.

وهذا القُرآنُ ذِكْرٌ لِمن تذكَّرَ به، وعَمِلَ بأوامِرِه واجتَنَب نواهيَه، كثيرُ الخَيرِ، عَظيمُ النَّفعِ، أنزَلْناه على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أفتُنكِرونَه وهو في غايةِ الظُّهورِ والبَيانِ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله سُبحانَه لَمَّا تكَلَّم في دلائِلِ التوحيدِ والنُّبُوَّةِ والمعادِ؛ شرع في قَصَصِ الأنبياءِ عليهم السلامُ؛ تسليةً للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما ينالُه مِن قَومِه، وتقويةً لقَلبِه على أداءِ الرِّسالةِ، والصَّبرِ على كُلِّ عارضٍ دونَها[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أتى به رَسولُه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الذِّكرِ، وحالَ مُشرِكي العَرَبِ معه، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾؛ أتبَعَه بأنَّه عادةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥٠).

اللهِ في أنبيائِه، فذكَرَ ما آتى موسى وهارونَ؛ إشارةً إلى قِصَّتِهما مع قَومِهما، مع ما أُوتوا مِنَ الفُرقانِ والضِّياءِ والذِّكرِ[١].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسى وهارونَ ما يُفرَقُ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٧٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٨).

وقَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: التوراةُ التي فَرَق بها بين الحلالِ والحرام. والثاني: البرهانُ الذي فَرَق به بينَ حقِّ موسى وباطِلِ فرعونَ.

والثالث: النَّصرُ والنَّجاةُ لموسى، وإهلاكُ فرعونَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالفرقانِ هنا: التوراةُ: مقاتل بن سليمان، والزجاج، وابن أبي زمنين، والبغوي، والزمخشري، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣).

وممن قال: الفُرقانُ: نَصرُ الله لموسى وهارونَ على فِرعَونَ وقَومِه: السمرقندي، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ السائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣).

قال ابنُ جرير: (قال ابنُ زيد في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ قال: الفرقانُ: الحَقُّ آتاه الله موسى وهارونَ، فَرَق بينهما وبين فِرعَونَ، فقضى بينهم بالحَقِّ. وقرأ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ [الأنفال: ٤١] قال: يومَ بدرٍ. وهذا القولُ الذي قاله ابنُ زيد في ذلك أشبَهُ بظاهِرِ التَّنزيلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (الفُرقانُ: ما يُفرَقُ به بين الحَقِّ والباطِلِ مِن كلامٍ أو فعلٍ... فيجوزُ أن =

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ * وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ * وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ [الصافات: ١١٤ - ١١٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [غافر: ٢٣].

﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

أي: وآتينا موسى وهارونَ التَّوراةَ نورًا في القَلبِ، مُضيئةً طَريقَ الحَقِّ، مُبَصِّرةً لِمن اتَّبَعها أحكامَ دينِهم، وهي تذكيرٌ ومَوعِظةٌ للمُتَّقينَ الذين يمتَثِلونَ أوامِرَ اللهِ، ويجتَنِبونَ نواهيَه[1].

= يرادَ بالفُرقانِ: التَّوراةُ... ويجوزُ أن يُرادَ بالفُرقانِ المُعجِزاتُ الفارِقةُ بين المُعجِزةِ والسِّحرِ... ويجوزُ أن يرادَ به الشَّريعةُ الفارِقةُ بين العَدلِ والجَورِ... وعلى الاحتمالاتِ المذكورةِ تجيءُ احتمالاتٌ في قَولِه تعالى الآتي: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وليس يلزَمُ أن تكونَ بَعضُ هذه الصفاتِ قَسيمًا لبعضٍ، بل هي صِفاتٌ مُتداخِلةٌ؛ فمجموعُ ما أوتِيَه موسى وهارونُ تتحَقَّقُ فيه هذه الصِّفاتُ الثَّلاثُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٨، ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٩).

قال السَّعدي: (﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يتذكَّرونَ به ما ينفعُهم وما يَضُرُّهم، ويُتذَكَّرُ به الخَيرُ والشَّرُّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

وقال ابنُ عاشور: (لأنَّه يُذَكِّرُهم بما يَجهَلونَ، وبما يَذهَلونَ عنه مِمَّا عَلِموه، ويجَدِّدُ في نفوسِهم مُراقبةَ رَبِّهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠،٨٩).

وقال البقاعي: (﴿وَذِكْرًا﴾ أي: وَعْظًا وشرفًا). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٣١).

قال السمعاني: (وقَولُه: ﴿وَضِيَآءً﴾ ... هو صفةٌ أُخرَى للتوراةِ، إذا حَمَلْنا الفرقانَ على التَّوراةِ، وإنْ حَمَلْناه على البُرهانِ، فمعناه: أعطَيناه البرهانَ، وأعطيناه التَّوراةَ الَّتي هي ضِياءٌ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٥).

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى التَّقوى؛ ذكَرَ ما أنتجَتْه، وهو: خشيةُ اللهِ، والإشفاقُ مِن عذابِ يَومِ القيامةِ[1].

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾.

أي: آتيناهما التَّوراةَ ضِياءً وذِكرًا للمُتَّقينَ الذين يَخافونَ رَبَّهم في غَيبِهم وخَلَواتِهم حيثُ لا يَطَّلِعُ عليهم أحدٌ مِن النَّاسِ، فيَترُكونَ المُحَرَّماتِ، ويقومونَ بالواجِباتِ، مُخلِصينَ لله، خائِفينَ مِن عذابِه[2].

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾.

أي: وهم مِن يومِ القيامةِ وأهوالِه خائِفونَ حَذِرونَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠).

قال السعدي: (﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي: خائفونَ وجِلون؛ لكمالِ معرفتِهم بربِّهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

وقال الرسعني: (﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي: مِن أهوالِها وعذابِها خائفونَ قلِقونَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٢٤).

قال ابنُ جرير: (﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ الَّتي تقومُ فيها القيامةُ ﴿مُشْفِقُونَ ﴾، حَذِرونَ أنْ تقومَ عليهم، فيَرِدوا على رَبِّهم قد فَرَّطوا في الواجبِ عليهم لِلَّهِ، فيعاقِبَهم مِن العقوبةِ بما لا قِبَلَ لهم به). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٩).

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ فُرقانَ موسى عليه السَّلامُ، وكان العَرَبُ يُشاهِدونَ إظهارَ اليهودِ للتمَسُّكِ به والمُقاتَلةِ على ذلك والاغتِباطِ؛ حَثَّهم على كتابِهم الذي هو أشرَفُ منه، فقال[1]:

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾.

أي: وهذا القرآنُ ذِكرٌ يتذَكَّرُ ويتَّعِظُ به المُؤمِنونَ، كثيرُ الخيراتِ في الدنيا والآخِرةِ، أنزَلْناه كما أنزَلْنا التوراةَ إلى موسى وهارون ذِكرًا للمُتَّقينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠، ٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦١).

وقال ابن عاشور: (وَصْفُ القرآنِ بالمباركِ يعُمُّ نواحيَ الخيرِ كُلَّها؛ لأنَّ البَرَكةَ زيادةُ الخيرِ؛ فالقرآنُ كُلُّه خيرٌ مِن جهة بلاغةِ ألفاظِه وحُسنِها، وسُرعةِ حِفظِه، وسهولةِ تلاوتِه، وهو أيضًا خَيرٌ لِما اشتمَلَ عليه من أفنانِ الكلامِ والحِكمةِ والشريعةِ واللَّطائِفِ البلاغية، وهو في ذلك كلِّه آيةٌ على صِدقِ الذي جاء به؛ لأنَّ البَشَرَ عَجَزوا عن الإتيانِ بمِثلِه، وتحدَّاهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك فما استطاعوا، وبذلك اهتَدَت به أممٌ كثيرةٌ في جميعِ الأزمانِ، وانتفَعَ به مَن آمَنوا به، وفريقٌ مِمَّن حُرِموا الإيمانَ، فكان وصفُه بأنَّه مباركٌ وافيًا على وَصفِ كتابِ موسى عليه السَّلامُ بأنَّه فُرقانٌ وضياءٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠، ٩١).

﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

أي: أفأنتم للقُرآنِ مُنكِرونَ نُزولَه من عندِ اللهِ وهو في غايةِ الظُّهورِ؟ وكيف تُنكِرونَ كَونَه مُنَزَّلًا مِن عِندِه سُبحانَه مع اعتِرافِكم بأنَّ التَّوراةَ مُنَزَّلةٌ مِن عندِه[1]؟!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- خَشيةُ اللَّهِ في الغَيبِ والشَّهادةِ المعنيُّ بها أنَّ العَبدَ يخشى اللَّهَ سرًّا وإعلانًا، وظاهِرًا وباطِنًا، فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يرى أنَّه يخشى اللهَ في العلانيةِ وفي الشَّهادةِ، ولكِنَّ الشَّأنَ في خَشيتِه اللهَ في الغَيبِ إذا غاب عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد مدح اللهُ مَن يخافُه بالغَيبِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾، وقال: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[2] [الملك: ١٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ فوصَفَ القُرآنَ بوَصفَينِ جليلَينِ:

الأوَّلُ: كَونُه ذِكرًا يُتذَكَّرُ به جميعُ المطالِبِ؛ مِن مَعرِفةِ اللهِ بأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ومِن صفاتِ الرُّسُلِ والأولياءِ وأحوالِهم، ومِن أحكامِ الشَّرعِ مِن العِباداتِ والمُعامَلاتِ وغَيرِها، ومِن أحكامِ الجَزاءِ والجَنَّةِ والنَّارِ، فيُتذَكَّرُ به المسائِلُ والدَّلائِلُ العَقليَّةُ والنَّقليَّةُ، وسَمَّاه ذِكرًا؛ لأنَّه يَذكُرُ ما رَكَزَه اللهُ في العُقولِ والفِطَرِ؛ من التَّصديقِ بالأخبارِ الصَّادِقةِ، والأمرِ بالحَسَنِ عَقلًا، والنَّهيِ عن القَبيحِ عَقلًا.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٢).

والثَّاني: كَونُه مُبارَكًا وهذا يقتضي كَثرةَ خَيراتِه، ونماءَها وزيادتَها، ولا شَيءَ أعظَمُ بَرَكةً مِن هذا القرآنِ؛ فإنَّ كُلَّ خَيرٍ ونِعمةٍ، وزيادةٍ دينيَّةٍ أو دُنيويَّةٍ أو أُخرويَّةٍ؛ فإنَّها بسَبَبِه وأثَرٌ عن العَمَلِ به، فإذا كان ذِكرًا مُبارَكًا، وجَبَ تَلقِّيه بالقَبولِ والانقيادِ والتَّسليمِ، وشُكرِ اللهِ على هذه المِنحةِ الجَليلةِ، والقيامِ بها، واستِخراجِ بَركتِه بتعَلُّمِ ألفاظِه ومَعانيه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

وصَفَ اللهُ تعالى شَريعةَ موسى عليه السَّلامُ بأنَّها ضِياءٌ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والضِّياءُ: هو النُّورُ الذي يَحصُلُ فيه نَوعُ حَرارةٍ وإحراقٍ، كضياءِ الشَّمسِ، بخلافِ القَمَرِ؛ فإنَّه نورٌ مَحضٌ فيه إشراقٌ بغيرِ إحراقٍ؛ قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وإن كان قد ذَكَر أنَّ في التَّوراةِ نورًا، كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، ولكِنَّ الغالِبَ على شَريعتِهم الضِّياءُ؛ لِما فيها مِن الآصارِ والأغلالِ والأثقالِ، ووصفَ شَريعةَ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّها نورٌ؛ لِما فيها مِن الحنيفيَّةِ السَّمحةِ؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾[2] [المائدة: ١٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]؛ لإقامةِ الحُجَّةِ على المشركينَ بالدلائلِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٤).

العقليَّةِ والإقناعيَّةِ والزَّجريَّةِ، ثُمَّ بدلائلِ شواهدِ التاريخِ وأحوالِ الأُممِ السابقةِ، الشاهدةِ بتَنظيرِ ما أُوتِيَه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما أُوتِيَه سَلَفُه مِن الرُّسُلِ والأنبياءِ، وأنَّه ما كان بِدْعًا مِن الرُّسل في دَعوتِه إلى التوحيدِ، تلك الدعوة التي كَذَّبه المشرِكونَ لأجْلِها، مع ما تَخلَّل ذلك من ذِكر عِنادِ الأقوامِ، وثَباتِ الأقدامِ، والتأييدِ مِن الملك العَلَّامِ، وفي ذلك تَسليةٌ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يُلاقيه مِن قومِه بأنَّ تِلكَ سُنَّةُ الرُّسلِ السابِقينَ(١).

- وفيه أيضًا نوعُ تَفصيلٍ لِمَا أُجمِلَ، وإشارةٌ إلى كيفيَّةِ إنجاءِ الرُّسلِ وإهلاكِ أعدائِهم؛ ففي سَوقِ أخبارِ هؤلاءِ الرُّسُلِ والأنبياءِ تَفصيلٌ لِمَا بُنِيتْ عليه السُّورة مِن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، ثم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ثم قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، واتِّصالُها بجَميعِ ذلك اتِّصالٌ مُحكَمٌ؛ ولذلك أُعقبتْ بقولِه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾(٢) [الأنبياء: ٥٠].

- وافتتاحُ القِصةِ بلامِ القسَمِ في ﴿وَلَقَدۡ﴾؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بمَضمونِه، ولتَنزيلِ المُشرِكينَ في جَهْلِ بعْضِهم بذلك، وذُهولِ بعْضِهم عنه، وتَناسي بعْضِهم إيَّاهُ؛ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ تلك القِصَّةَ(٣).

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ ابتُدِئ بذِكْرِ مُوسى وأخيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

مع قَومِهما؛ لأنَّ أخبارَ ذلك مَسطورةٌ في كِتابٍ مَوجودٍ عندَ أهْلِه يَعرِفُهم العرَبُ، ولأنَّ أثَرَ إتْيانِ مُوسى عليه السَّلامُ بالشَّريعةِ هو أوسَعُ أثَرٍ لإقامةِ نِظامِ أُمَّةٍ يَلِي عَظَمةَ شَريعةِ الإسلامِ(١).

- والإخبارُ عن الفُرقانِ بإسنادِ إيتائِه إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لم يَعْدُ كونَه إيتاءً من اللهِ تعالى ووحْيًا كما أُوتِيَ محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ القُرآنَ؛ فكيف يُنكِرونَ إيتاءَ القُرآنِ وهم يَعْلمون أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ ما جاء إلَّا بمثْلِه؟! وفيه تَنبيهٌ على جَلالةِ ذلك المُؤْتى(٢).

- قولُه: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ فيه للتَّقويةِ؛ فيكونَ المجرورُ باللَّامِ في مَعْنى المفعولِ، أي: الَّذين اتَّصَفوا بتَقْوى اللهِ؛ لأنَّه يُذكِّرُهم بما يَجْهَلون، وبما يَذْهَلون عنه ممَّا عَلِمُوه، ويُجدِّدُ في نُفوسِهم مُراقبةَ ربِّهم، ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ للعِلَّةِ، أي: ذِكْرٌ لأجْلِ المُتَّقينَ، أي: كِتابٌ يَنتفِعُ بما فيه المُتَّقونَ دونَ غَيرِهم مِن الضَّالِّينَ(٣). وخَصَّ المتَّقينَ بالذِّكرِ؛ لأنَّهم المُنتَفِعونَ بذلك عِلمًا وعَمَلًا(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ احتمَلَ أنْ يكونَ استئنافَ إخبارٍ عنهم، وأنْ يكونَ مَعطوفًا على صِلَةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وتكونَ الصِّلةُ الأُولى مُشعِرةً بالتَّجدُّدِ دائمًا؛ كأنَّها حالَتُهم فيما يتعلَّقُ بالدُّنيا، والصِّلةُ الثَّانيةُ مِن مُبتدأٍ وخبَرٍ عنه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٩، ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

بالاسمِ المُشعِرِ بثُبوتِ الوصْفِ كأنَّها حالَتُهم فيما يتعلَّقُ بالآخرةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ قُدِّمَ الجارُّ لمُراعاةِ الفواصلِ. وتَخصيصُ إشفاقِهم منها بالذِّكْرِ بعْدَ وَصْفِهم بالخشيةِ على الإطلاقِ؛ للإيذانِ بكونِها مُعظَمَ المَخُوفاتِ، وللتَّنصيصِ على اتِّصافِهم بضِدِّ ما اتَّصفَ به المُستعجِلونَ. وإيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ للدَّلالةِ على ثَباتِ الإشفاقِ ودَوامِه[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ عَدَلَ عَنِ الخِطابِ بالجُمْلةِ الفِعليَّةِ -كما هو مُقْتضى السِّياقِ- إلى الخِطابِ بالجُملةِ الاسميَّةِ، وإنَّما يُعْدَلُ عن أحَدِ الخِطابينِ وإنْ كان السِّياقُ يَقْتضيه؛ لضَرْبٍ من التَّأكيدِ والمُبالَغةِ، وقد جِيءَ بها هنا تَنويهًا بالخاصِّ بعْدَ العامِّ، فالخشيةُ مِن اللهِ مُلازِمةٌ لهم، ولكنَّها مِن السَّاعةِ أكثَرُ مُلازَمةً، وأشَدُّ امْتِلاكًا لقُلوبِهم، وأسْرًا لجَوارِحِهم، ما يَريمونَ عن تَذكُّرِها وتَفادي كلِّ ذنْبٍ؛ خَشيةَ مُواجهتِها بما هم فيه، وأمْرٌ ثانٍ هو الدَّيمومةُ والاستمرارُ اللَّذانِ تُفِيدُهما الجُملةُ الاسميَّةُ أكثَرَ ممَّا تُفِيدُهما الجُملةُ الفِعْليَّةُ الَّتي تتوزَّعُ على الأزمنةِ[٣].

- وفيه تَعريضٌ بالَّذين لم يَهْتَدُوا بكِتابِ اللهِ تعالى، بدَلالةِ مَفهومِ المُخالَفةِ لقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ فمَن لم يَهْتَدِ بكتابِ اللهِ فليس هو مِن الَّذين يَخْشَون ربَّهم بالغيبِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠).

٣- قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ اسمُ الإشارةِ يُشِيرُ إلى القُرآنِ؛ لأنَّ حُضورَه في الأذهانِ وفي التِّلاوةِ بمَنزِلَةِ حُضورِ ذاتِه[١].

- قولُه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ زادَهُ تَشريفًا بإسنادِ إنزالِه إلى ضَميرِ الجَلالةِ[٢]. وفيه تَسليةٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ أنكَرَ ذلك المُشرِكون كما أنكَرَ أسلافُ اليهودِ ما أنزَلَ اللهُ على مُوسى عليه السَّلامُ[٣].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ استفهامُ إنكارٍ لإنكارِهم بعْدَ ظُهورِ كونِ إنزالِه كإيتاءِ التَّوراةِ؛ كأنَّه قيل: أَبَعْدَ أنْ علِمْتُم أنَّ شأْنَه كشأْنِ التَّوراةِ في الإيتاءِ والإيحاءِ أنتم مُنكِرون لكونِه مُنزَّلًا مِن عندنا[٤]؟! ففيه تَوبيخٌ وتعجُّبٌ مِن إنكارِهم صِدْقَ هذا الكتابِ، ومِن استمرارِهم على ذلك الإنكارِ[٥].

- قولُه: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ لكونِ إنْكارِهم صِدْقَه حاصِلًا منهم في حالِ الخِطابِ، جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لِيَتأتَّى جَعْلُ المُسنَدِ اسْمًا دالًّا على الاتِّصافِ في زمَنِ الحالِ، وجَعْلُ الجُملةِ دالَّةً على الثَّباتِ في الوصْفِ؛ وَفاءً بحَقِّ بَلاغةِ النَّظمِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩١).

الآيات (٥١-٦١)

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رُشْدَهُۥ﴾: أي: هُداه، والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خِلافُ الغَيِّ، يُستعمَلُ استعمالَ الهدايةِ، وأصلُ (رشد): يدُلُّ على استقامةِ الطَّريقِ[1].

﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾: جمعُ تِمثالٍ، وهي الأصنامُ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[2].

﴿عَٰكِفُونَ﴾: أي: مُقيمونَ، يُقال: عكَف على كذا: إذا أقام عليه، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على مُقابلةٍ وحَبسٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٣، ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢، ٢٩٦).

﴿فَطَرَهُنَّ﴾: أي: خَلَقهنَّ، وابتدأهنَّ، وأصلُ الفَطْرِ: فتْحُ الشَّيءِ، وإبرازُه[١].

﴿لَأَكِيدَنَّ﴾: أي: لأمكُرَنَّ، والكَيدُ: ضَربٌ مِن الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا ومَمدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ، وأصلُ (مكر): يدُلُّ على مُعالجةٍ لِشَيءٍ بشِدَّةٍ[٢].

﴿جُذَاذًا﴾: أي: فُتاتًا وحُطامًا، والجَذُّ: كَسرُ الشَّيءِ وتَفتيتُه، وأصلُه يدُلُّ على كَسرٍ وقَطعٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ولقد آتَينا إبراهيمَ هُداه مِن قَبلِ موسى وهارونَ، وكنَّا عالِمينَ أنَّه أهلٌ لذلك الهُدى، إذْ قال لأبيه وقَومِه: ما هذه الأصنامُ التي صَنَعتُموها ونحتُّموها بأيديكم، ثمَّ أنتم مُقيمونَ على عِبادتِها؟! قالوا لإبراهيمَ: وجَدْنا آباءَنا عابدينَ لها، ونحن نَعبُدُها اقتداءً بهم. قال لهم إبراهيمُ: لقد كنتُم أنتم وآباؤُكم في عبادتِكم لهذه الأصنامِ في بُعْدٍ واضحٍ بيِّنٍ عن الحَقِّ. قالوا: أجِئتَنا بالحَقِّ والجِدِّ، أم كلامُك لنا كلامُ لاعبٍ مُستَهزِئٍ؟ قال لهم إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: بل ربُّكم الذي أدعوكم إلى عبادتِه هو ربُّ السَّمواتِ والأرضِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٠).

الذي خلَقَهنَّ وأبدَعَهنَّ، وأنا على ذلك مِن الشَّاهدينَ، وتاللهِ لأمكُرَنَّ بأصنامِكم وأُكَسِّرُها بعد أن تَنصَرِفوا عنها.

فحطَّم إبراهيمُ الأصنامَ وجعَلَها قِطَعًا صغيرةً إلَّا صَنَمًا كَبيرًا لهم لم يُكَسِّرْه؛ لعَلَّ عابِديه يسألونَه عمَّن كَسَّرَ أصنامَهم؛ فيتبَيَّنَ عَجزُه، وتقومَ الحُجَّةُ عليهم. ولَمَّا رأَوا أصنامَهم مُحطَّمةً مُهانةً، قالوا: مَن فعَلَ هذا بآلِهَتِنا، إنَّه لظالمٌ بصَنيعِه واجترائِه على آلهتِنا؟! قال الذين سَمِعوا إبراهيمَ يَحلِفُ بأنَّه سيكيدُ أصنامَهم: سَمِعْنا فتًى يقالُ له إبراهيمُ، يَذكُرُ أصنامَنا بالعَيبِ والنَّقصِ والذَّمِّ. قال قَومُ إبراهيمَ بَعضُهم لبعضٍ: فَأْتُوا بإبراهيمَ على مرأًى من النَّاسِ؛ كي يَشهَدوا عُقوبتَنا له.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أُعقِبَت قِصَّةُ موسى وهارونَ بقِصَّةِ إبراهيمَ فيما أُوحيَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مقاومةِ الشِّركِ ووُضوحِ الحُجَّةِ على بُطلانِه؛ لأنَّ إبراهيمَ كان هو المثَلَ الأوَّلَ قبل مجيءِ الإسلامِ في مُقاوَمةِ الشِّركِ؛ إذ قاوَمَه بالحُجَّةِ وبالقُوَّةِ وبإعلانِ التوحيدِ، فكانت قِصَّةُ إبراهيمَ مع قَومِه شاهِدًا على بُطلانِ الشِّركِ الذي كان مُماثِلًا لحالِ المُشركِينَ بمكَّةَ الذين جاء محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقَطعِ دابِرِه[1].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ولقد آتَينا إبراهيمَ هُداه مِن قَبلُ[2]، ووفَّقْناه للحَقِّ، وأنقَذْناه مِن بينِ قَومِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٢).

(٢) قيل: المرادُ: من قبلِ موسى وهارون. وممن اختاره: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية، والسمين الحلبي، والعُليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٦)، =

وأهلِ بَيتِه، مِن عِبادةِ الأوثانِ[١].

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

أي: وآتَيناه رُشدًا عَظيمًا على عِلمٍ مِنَّا بأنَّه أهلٌ لذلك الرُّشدِ[٢].

= ((الدر المصون)) (٨/ ١٦٧) للسمين الحلبي، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٩٩).

وممن قال بهذا القول من السلفِ: الضحاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٤).

وممن خصَّ ذلك بالتوراةِ، أي: مِن قبلِ نزولِ التوراةِ، وإيتائِهما موسى وهارونَ عليهما السلامُ: ابنُ القيِّمِ، والشوكاني. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٢، ٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٣).

وقيل: المرادُ: من قَبلِ النبُوَّةِ. وممن ذهب إليه: القرطبي، ونَسَبه إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦).

وقيل: معنى ﴿مِن قَبۡلُ﴾: أي: مِن قبلِ البلوغِ، وهو صغيرٌ. وممن ذهب إلى ذلك: البغوي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٧، ٣٤٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٢، ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

قال ابن عطية: (الرُّشدُ عامٌّ في هدايتِه إلى رَفضِ الأصنامِ، وفي هدايتِه في أمرِ الكوكَبِ والشَّمسِ والقمَرِ، وغيرِ ذلك من النبُوَّةِ فما دونَها، وقال بعضُهم: معناه وُفِّق للخيرِ صَغيرًا. وهذا كُلُّه متقاربٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٣).

قال ابن عاشور: (وهذا العِلمُ الإلهيُّ مُتعَلِّقٌ بالنفسيَّةِ العظيمةِ التي كان بها محَلَّ ثَناءِ اللهِ تعالى عليه في مواضِعَ كَثيرةٍ مِن قرآنِه، أي: عَلِمَ مِن سَريرتِه صِفاتٍ قد رَضِيَها وأحمَدَها، فاستأهَلَ بها اتخاذَه خَليلًا، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٣).

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

أي: إذ[١] قال إبراهيمُ لأبيه آزَرَ وقَومِه المُشرِكينَ: ما هذه الأصنامُ التي أنتم مُقيمونَ على عِبادتِها، والحالُ أنَّكم مثَّلْتُموها ونحتُّموها بأيديكم على صُوَرِ بَعضِ المخلوقاتِ، فكيف تعبُدونَ ما تَنحِتونَ[٢]؟!

كما قال تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٥ - ٨٧].

﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ لإبراهيمَ: وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَ هذه الأوثانَ؛ فنحن نعبُدُها مِثلَهم[٣]!

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ: لقد كنتُم أنتم وآباؤُكم جميعًا في ذهابٍ عن سبيلِ الحَقِّ واضحٍ بيِّنٍ؛ بعِبادتِكم جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ[٤]!

---

(١) قال الزمخشري: (﴿ إِذْ ﴾ إمَّا أن يتعلَّقَ بـ﴿ ءَاتَيْنَآ ﴾، أو بـ﴿ رُشْدَهُۥ ﴾، أو بمحذوفٍ، أي: اذكُرْ مِن أوقاتِ رُشدِه هذا الوقتَ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢١).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ قيل: المعنى أي: اذكرْ حينَ قال لأبيه، فيكونُ الكلامُ قد تمَّ عندَ قولِه: ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾. وقيل: المعنى ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ * إِذْ قَالَ ﴾ فيكونُ الكلامُ متَّصِلًا، ولا يُوقَفُ على قولِه: ﴿ عَٰلِمِينَ ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾.

أي: قال قَومُ إبراهيمَ: أجِئْتَنا -يا إبراهيمُ- بالحَقِّ المُطابِقِ للواقِعِ فيما تقولُ، أمْ أنَّ كلامَك كلامُ مازحٍ هازلٍ مُستَهزِئٍ[1]؟

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: بل جِئتُكم بالحَقِّ لا باللَّعِبِ؛ فرَبُّكم رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ الذي أوجَدَهنَّ وأبدَعَهنَّ وما فيهنَّ مِن جَميعِ المخلوقاتِ[2].

﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: وأنا على ذلك الأمرِ البيِّنِ مِن الشَّاهِدينَ بعِلمٍ وحُجَّةٍ[3].

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّن إبراهيمُ عليه السَّلامُ أنَّ أصنامَ قَومِه ليس لها من التَّدبيرِ شَيءٌ، أراد أن يُريَهم بالفِعلِ عَجزَها، وعَدَمَ انتِصارِها، ولِيَكيدَ كيدًا يَحصُلُ به إقرارُهم بذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٣٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٥).

وأيضًا فإنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ انتقَلَ مِن تغييرِ المُنكَرِ بالقَولِ إلى تغييرِه باليدِ[١].

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ: وواللهِ لأحتالَنَّ على أصنامِكم فأُلحِقُ بها الضَّرَرَ بعد أن تَنصَرِفوا عنها[٢].

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

أي: فكسَّر إبراهيمُ الأصنامَ، وجعَلَها قِطَعًا مُهَشَّمةً إلَّا صَنَمًا كَبيرًا عِندَهم لم يُكَسِّرْه؛ لعَلَّ عابِديه يسألونَه عمَّن كَسَّرَ أصنامَهم، فيتبيَّنَ لهم عجْزُه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٣، ٢٩٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٤، ٢٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٨).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ عائدٌ على كبيرِ الأصنامِ: ابنُ جُزي، والعُليمي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٨).

قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنَّه وضع القَدُومَ في يدِ كبيرِهم؛ لعَلَّهم يعتَقِدونَ أنَّه هو الذي غار لنفْسِه، وأنِفَ أن تُعبَدَ معه هذه الأصنامُ الصِّغارُ، فكَسَّرَها). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩).

وقيل: المعنَى: لعلَّهم يَرْجِعونَ إليه كما يُرْجَعُ إلى العالِمِ في حلِّ المشكلاتِ، فيقولونَ: ما لهؤلاءِ مكسورَةً وما لَكَ صَحيحًا والفأسُ على عاتِقِك؟

وقيل: بل إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قال ذلك معَ علمِه أنَّهم لا يرجعونَ إلى هذا الكبيرِ؛ استهزاءً بهم. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥٤).

وقيل: الضميرُ عائدٌ على إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ. وممن اختاره: الواحدي، وابنُ عطية، والرسعني، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩٠ - ٩٣].

﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) ﴾.

أي: فلمَّا رأى المُشرِكونَ حُطامَ أصنامِهم قالوا: مَن فعَلَ هذا بآلهتِنا؟ إنَّه لَمِنَ الظَّالمينَ بصَنيعِه هذا؛ حيثُ فعَل بها ما لا ينبغي له فِعلُه، ووضَعَ الإهانةَ في غيرِ مَوضِعِها؛ فإنَّ الآلهةَ حَقُّها الإكرامُ، لا الإهانةُ والانتِقامُ(١)!!

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾.

أي: قالوا(٢): سَمِعْنا شابًّا يذكُرُ أصنامَنا بالعَيبِ والنَّقصِ والذَّمِّ يُسَمَّى إبراهيمَ، ومَنْ هذا شأنُه لا بدَّ أن يكونَ هو الذي كَسَّرَها(٣).

= عطية)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٨).

وقال الرسعني في بيان المعنى بناء على ذلك: (لعلَّهم يرجعونَ إلى دينِه حينَ تقومُ عليهم الحُجَّةُ إذا علِموا عجزَ آلهتِهم وجهلِها). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٢).

وقال الشوكاني: (أيْ: إلى إبراهيم يَرجِعونَ فيُحاجُّهم بما سيأتي فيَحُجُّهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٨).

وذلك لأنَّه غَلَب على ظنِّه أنَّهم لا يَرجِعونَ إلَّا إليه؛ لِمَا تَسامَعوه مِن إنكارِه لدينِهم، وسَبِّه لآلِهَتِهم. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٢) قال ابن جرير: (قال الذين سمِعوه يقولُ: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ... ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٩).

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ٦١﴾.

أي: قال قَومُ إبراهيمَ بَعضُهم لبَعضٍ: فأحضِروا إبراهيمَ على مرأًى مِن النَّاسِ؛ لعلَّهم يَشهَدونَ عُقوبَتَنا له[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فيه أنَّ الباطِلَ لا يصيرُ حَقًّا بكَثرةِ المُتمَسِّكينَ به[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

ممن اختار أنَّ المعنى: يَشْهَدون ما يُصنَعُ به ويحضرونَ عقابَه في الجملة: ابنُ جرير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

وممن قال بهذا القول من السلفِ: ابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٩).

وقيل: المعنى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما نُسِب إليه؛ ليكون ذلك حُجَّةً عليه. وممن اختار هذا القولَ في الجملةِ: الرسعني، والقرطبي، والخازن، والبقاعي، والعليمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٩٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٠).

وممن قال بنحو هذا القولِ من السلفِ: الحسن، والسُّدِّي، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٩)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٥١).

قال ابنُ عطيةَ: (وقولُه: ﴿يَشْهَدُونَ﴾ يحتملُ أن يُرادَ به الشهادةُ عليه، يُريدونَ بفعلِه أو بقولِه: ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٧]. ويحتمِلُ أنْ يُريدَ به المشاهدةَ، أي: يشاهدونَ عقوبتَه أو غلبتَه المؤديةَ إلى عقوبتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٧).

قال الرازي: (وفيه قولٌ ثالثٌ: وهو قولُ مُقاتِلٍ والكلبيِّ، أنَّ المرادَ مجموعُ الوجهينِ، فيَشهَدونَ عليه بفعلِه، ويَشهَدونَ عقابَه). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٣/ ٥١٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ فِعْلَه سُبحانَه وتعالى باختيارٍ وحِكمةٍ، وأنَّه عالِمٌ بالجُزئيَّاتِ(١).

٢- العُكوفُ والمجاورةُ عند شَجَرةٍ أو حَجَرٍ؛ تِمثالٍ أو غيرِ تِمثالٍ، أو العُكوفُ والمجاورةُ عند قبرِ نَبيٍّ أو غيرِ نبيٍّ، أو مَقامِ نبيٍّ أو غيرِ نَبيٍّ- ليس هذا مِن دينِ المُسلِمينَ، بل هو مِن جِنسِ دِينِ المُشرِكينَ الذين أخبَرَ الله عنهم بما ذكَرَه في كتابه؛ حيث قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

٣- قال تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ، مُعاتِبًا لأهلِ الكُفرِ، وذامًّا لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾، وقال حكايةً عن أهلِ النَّارِ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ومِثلُ هذا في القرآنِ كَثيرٌ مِن ذَمِّ تقليدِ الآباءِ والرُّؤساءِ، وقد احتجَّ العُلَماءُ بهذه الآياتِ في إبطالِ التقليدِ، ولم يمنَعْهم كُفرُ أولئك مِن الاحتجاجِ بها؛ لأنَّ التَّشبيهَ لم يقَعْ مِن جِهةِ كُفرِ أحدِهما، وإيمانِ الآخَرِ، وإنَّما وقع التَّشبيهُ بينَ المقلِّدينَ بغيرِ حُجَّةٍ للمُقَلِّدِ، كما لو قَلَّد رجلًا فكَفَر، وقلَّدَ آخَرَ فأذنَبَ، وقلَّدَ آخَرَ في مسألةٍ فأخطأ وَجْهَها- كان كُلُّ واحدٍ مَلومًا على التَّقليدِ بغيرِ حُجَّةٍ؛ لأنَّ كُلَّ ذلك تقليدٌ يُشبِهُ بَعضُه بعضًا، وإن اختَلَفت الآثامُ فيه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٣٢).

٤- قال الله تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فإبراهيمُ عليه السَّلامُ إنَّما قيَّدَ كَيْدَه بما بعدَ انصرافِ المُخاطَبينَ؛ إشارةً إلى أنَّه يُلحِقُ الضُّرَّ بالأصنامِ في أوَّلِ وَقتِ التمَكُّنِ منها، وهذا مِن عَزْمِه عليه السَّلامُ؛ لأنَّ المُبادرةَ في تغييرِ المُنكَرِ مع كَونِه باليَدِ مقامُ عَزمٍ، وهو لا يتمَكَّنُ من ذلك مع حضورِ عَبَدةِ الأصنامِ، فلو حاول كَسْرَها بحَضرَتِهم، لكان عمَلُه باطِلًا، والمقصودُ مِن تَغييرِ المُنكَرِ: إزالتُه بقَدرِ الإمكانِ؛ ولذلك فإزالتُه باليَدِ لا تكونُ إلَّا مع المُكْنةِ[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: فإذا رجَعوا إلى الصَّنَمِ بمُكابَرتِهم لعُقولِهم، ورُسوخِ الإشراكِ في أعراقِهم، فأيُّ فائدةٍ دِينيَّةٍ في رُجوعِهم إليه حتى يجعلَه إبراهيمُ صَلَواتُ اللهِ عليه غَرَضًا؟

الجوابُ: أنَّهم إذا رجَعوا إليه تبَيَّنَ أنَّه عاجِزٌ لا ينفَعُ ولا يَضُرُّ، وظهر أنَّهم في عبادتِه على أمرٍ عظيمٍ[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ هذا احتِرازٌ عَجيبٌ؛ فإنَّ كلَّ مَمقوتٍ عند الله لا يُطلَقُ عليه ألفاظُ التَّعظيمِ إلَّا على وجهِ إضافتِه لأصحابِه، كما كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا كتب إلى ملوكِ الأرضِ المُشركينَ يقولُ: ((إلى عظيمِ فارسَ))[3]، ((إلى عظيمِ الرومِ))[4] ونحو ذلك، ولم يقُلْ: (إلى العظيمِ)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر ما أخرجه ابن جرير في ((تاريخ الأمم والملوك)) (١٢/ ٣٨).
وحسَّنه الألباني في ((فقه السيرة)) (٣٥٨).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه.

فهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ولمْ يقُل: (كبيرًا من أصنامِهم)، فهذا ينبغي التنبيهُ له، والاحترازُ من تَعظيمِ ما حَقَّره الله إلَّا إذا أضيفَ إلى مَن عَظَّمه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ...﴾ فيه تأْكيدُ الخبَرِ عنه بلامِ القسَمِ؛ لتَنزيلِ العرَبِ في مُخالَفتِهم لشَريعةِ أبيهم إبراهيمَ مَنزِلةَ المُنكِرِ لكونِ إبراهيمَ أُوتِيَ رُشْدًا وهَدْيًا[2].

- قولُه: ﴿رُشْدَهُۥ﴾ فيه تَنبيهٌ على تَفخيمِ ذلك الرُّشدِ الَّذي أُوتِيَهُ؛ فالإضافةُ على معنى اللَّامِ المُفيدةِ للاختصاصِ، فكأنَّه انفرَدَ به بينَ قومِه، وزادهُ تَنويهًا وتَفخيمًا تَذييلُه بالجُملةِ المُعترِضةِ، وهي قولُه تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[3].

- قولُه: ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: مِن قبْلِ إيتاءِ مُوسى وهارونَ التَّوراةَ -على قولٍ في التفسيرِ-، وتَقديمُ ذِكْرِ إيتاءِ التَّوراةِ؛ لِمَا بيْنه وبينَ إنْزالِ القُرآنِ مِنَ الشَّبهِ التَّامِّ[4]، أو للتَّنبيهِ على أنَّه ما وقَعَ الابتداء بإيتاءِ الذِّكْرِ مُوسى وهارونَ إلَّا لأنَّ شَريعتَهما لم تزَلْ مَعروفةً مَدروسةً[5]. وكان مِن حَقِّ الظَّاهرِ تَقدُّمُ نُوحٍ على إبراهيمَ، وتقدُّمُ إبراهيمَ على مُوسى، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم، لكنْ المُناسَبةُ استدعَتْ تقدُّمَ مُوسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّ حالَه أشبَهُ بحالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٢، ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٣).

النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن حيثُ إيتاءُ الكتابِ، وكثْرةُ الدَّلائلِ القاهرةِ، ومُقاساةُ الشِّدَّةِ، وثِقَلُ أعْباءِ النُّبوَّةِ والدَّعوةِ، وكثرةُ التَّوابعِ والأُمَّةِ، وأنَّ حالَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أقرَبُ إليه مِن حالِ نُوحٍ عليه السَّلام، فقد رُوعِيَ في تأخُّرِهم تلك اللَّطيفةُ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ فيه حُسْنُ تَرتيبٍ؛ حيث بدَأَ أوَّلًا بذِكْرِ أبيه؛ لأنَّه الأهمُّ عندَه في النَّصيحةِ، وإنقاذِهِ مِن الضَّلالِ، ثمَّ عطَفَ عليه قومَهُ[2].

- الاستفهامُ في قولِه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ...﴾ يتسلَّطُ على الوصْفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، فكأنَّه قال: ما عِبادتُكم هذه التَّماثيلَ؟ ولكنَّه صِيغَ بأُسلوبِ تَوجُّهِ الاستفهامِ إلى ذاتِ التَّماثيلِ لإبهامِ السُّؤالِ عن كُنْهِ التَّماثيلِ في بادئِ الكلامِ؛ إيماءً إلى عدَمِ المُلاءَمةِ بينَ حَقيقتِها المُعبَّرِ عنها بالتَّماثيلِ، وبينَ وَصْفِها بالمَعْبوديَّةِ المُعبَّرِ عنه بعُكوفِهم عليها. وهذا من تَجاهُلِ العارفِ، استعمَلَهُ تَمهيدًا لتَخْطئتِهم بعْدَ أنْ يَسمَعَ جوابَهم. والإشارةُ بـ﴿هَٰذِهِ﴾ إلى التَّماثيلِ؛ لزِيادةِ كَشْفِ معناها الدَّالِّ على انحطاطِها عن رُتْبةِ الأُلوهيَّةِ، والتَّعبيرُ عنها بالتَّماثيلِ يَسلُبُ عنها الاستقلالَ الذَّاتِيَّ[3]، ففي قولِه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تحقيرٌ لها، وتصغيرٌ لشأنِها، وتجاهلٌ بها، معَ علمِه بها،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٤).

وبتعظيمِهم لها[١].

- قولُه: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ في خِطابِه لهم بقولِه: ﴿أَنتُمْ﴾ استهانةٌ بهم، وتَوقيفٌ على سُوءِ صَنيعِهم[٢].

- وكما نسَبَ التَّماثيلَ إلى الإفراطِ في الحَقارةِ، نسَبَهُم إلى الإفراطِ في العُكوفِ لها؛ حيثُ قال: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ بالضَّميرِ المرفوعِ، وبِناءِ الخبَرِ عليه المُفيدِ لتَقوِّي الحُكْمِ، وتَخصيصِ العُكوفِ بالذِّكرِ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ جَعْلُ العُكوفِ مُسْندًا إلى ضَميرِهم مُؤْذِنٌ بأنَّ إبراهيمَ لم يكُنْ مِن قبْلُ مُشارِكًا لهم في ذلك؛ فيُعْلَمُ منه أنَّه في مَقامِ الرَّدِّ عليهم؛ ذلك أنَّ الإتيانَ بالجُملةِ الاسميَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فيه معنى العِبادةِ؛ فلذلك عُدِّيَ باللَّامِ لإفادةِ مُلازَمةِ عِبادتِها[٤]؛ فعدَلَ عن (على) الَّتي يَتعدَّى فِعْلُ العُكوفِ بها، ولكنَّه لم يَقصِدِ التَّعديةَ، ولو قصَدَ التَّعديةَ لقال: (عليها)، ولكنَّه عدَلَ عنها إلى اللَّامِ؛ لأنَّه قصَدَ مِن العُكوفِ معنى العِبادةِ، فمَقامُ المُبالَغةِ اقْتَضى أنْ يُتْرَكَ ﴿عَٰكِفُونَ﴾ على إطلاقِه، سواءٌ كان المُتعلِّقُ مَفْعولًا بواسطةٍ أو بغيرِ واسطةٍ[٥]. فاللامُ للاختصاصِ، لا للتعديةِ[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٠٨).

- فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾، وقال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]؛ فاختُصَّتْ سُورةُ الشُّعراءِ بقولِه: ﴿بَلْ﴾، ولم يأْتِ في سُورةِ (الأنبياءِ)؛ ووجْهُه: أنَّ آيةَ الأنبياءِ وقَعَ السُّؤالُ فيها على وَجْهٍ لا يَقْتضي (بل) في الجوابِ؛ لأنَّه قال: ما هذه الأصنامُ الَّتي نَحتُّموها تَماثيلَ وعكَفْتُم عليها؟! فكأنَّه سَفَّه آراءَهم، وقال لهم: لِمَ تَفْعلونَ ذلك، وتَعْبُدون ما تَنحِتون؟! فقالوا: وجَدْنا آباءَنا لها عابِدينَ، فاقْتَدينا بهم. وأمَّا في سُورةِ (الشُّعراءِ) فقد تَقدَّمَ سُؤالٌ أضْرَبوا عنه، ونَفَوا ما تَضمَّنَه؛ لأنَّه قال: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣]، فقالوا مُضْرِبينَ عن هذه الأشياءِ الَّتي وُبِّخوا عليها؛ من عِبادتِهم ما لا يَسمَعُ ولا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ، وما يَعْلمون أنَّه جَمادٌ لا حياةَ فيه، ولا نَفْعَ ولا ضَررَ عنده، وكأنَّهم قالوا: لا، ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، فلأنَّ السُّؤالَ هنا يَقْتضي في جَوابِهم أنْ يَنْفُوا ما نفاهُ إبراهيمُ عليه السَّلامُ، أضْرَبوا عنه إضرابَ مَن يَنْفي الأوَّلَ، ويُثْبِتُ الثَّانِيَ، فاختِصاصُ المكانِ بـ (بل) لهذا[1]. وقيل غير ذلك[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أبطَلَ عليه السَّلامُ جَوابَهم على طَريقةِ التَّوكيدِ القَسَميِّ ﴿لَقَدْ﴾[3].

- وفي اجْتلابِ فِعْلِ الكونِ ﴿كُنتُمْ﴾ وحَرْفِ الظَّرفيَّةِ (في): إيماءٌ إلى تَمكُّنِهم مِن الضَّلالِ، وانغماسِهم فيه؛ لإفادةِ أنَّه ضَلالٌ بَواحٌ لا شُبْهةَ فيه،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٠٣، ٩٠٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٢).

وأكَّدَ ذلك بوَصْفِه بـ ﴿مُّبِينٍ﴾، فلمَّا ذَكَروا له آباءَهم شرَّكَهم في التَّخطئةِ بدُونِ هوادةٍ بعطْفِ الآباءِ عليهم في ذلك؛ ليَعْلَموا أنَّهم لا عُذْرَ لهم في اتِّباعِ آبائِهم، ولا عُذْرَ لآبائِهم في سَنِّ ذلك لهم؛ لمُنافَاةِ حَقيقةِ تلك الأصنامِ لحَقيقةِ الأُلوهيَّةِ، واسْتِحقاقِ العِبادةِ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾

- الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ ...﴾ استفهامٌ تَعجُّبيٌّ[٢].

- وفي قولِهم: ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أضْرَبوا عن ذلك، وجاؤوا بـ(أَمْ) المُتضمِّنةِ لمَعْنى (بل) الإضرابيَّةِ، والهمزةُ للتَّقريرِ، فأضْرَبوا بـ (بل) عمَّا أثْبَتوا له، وقرَّرُوا بالهمزةِ خِلافَه على سَبيلِ التَّوكيدِ والبَتِّ والقطْعِ؛ وذلك أنَّهم قَطَعوا أنَّه لاعِبٌ وليس بمُحِقٍّ الْبَتَّةَ؛ لأنَّ إدخالَهم إيَّاه في زُمرةِ اللَّاعبينَ، أي: أنت غَريقٌ في اللَّعِبِ، داخِلٌ في زُمرةِ الَّذين قُصارى أمْرِهم في إثباتِ الدَّعاوى اللَّعِبُ واللَّهوُ، على سَبيلِ الكِنايةِ الإيمائيَّةِ[٣].

- وجاءت جُملةُ ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ اسميَّةً؛ لكونِها أثْبَتَ، كأنَّهم حَكَموا عليه بأنَّه لاعِبٌ هازِلٌ في مَقالتِه لهم، ولكونِها فاصِلةً[٤]؛ فخُولِفَ بينَ الجُملتينِ في الآيةِ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾؛ لمُلاحَظةِ تَجدُّدٍ في إحداهما، فبرَزَتْ في صُورةِ الفِعْليَّةِ، وثَباتٍ في الأُخرى، فبرَزَتْ في صُورةِ الاسميَّةِ، والمعنى: أحْدَثْتَ عندنا الإتيانَ بالحقِّ -وهو التَّوحيدُ- فيما نَسْمَعُه

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣).

منك، أمْ أنت على ما كنْتَ عليه مِن اللَّعبِ منذُ أيَّامِ الصِّبا؟! وأرادوا بالتَّجدُّدِ في الجُملةِ الأُولى: أنَّ التَّوحيدَ أمْرٌ مُحْدَثٌ مُخترَعٌ، وبالثَّباتِ في الثَّانيةِ: أنَّه على عادتِهم المُستمِرَّةِ مِن اللَّعبِ؛ تَحقيرًا له[١].

- وفي قولِهم: ﴿مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ عُدِلَ عن الإخبارِ عنه بوَصْفِ (لاعِبٍ)، إلى الإخبارِ بأنَّه من زُمرةِ اللَّاعبينَ؛ مُبالَغةً في توغُّلِ كلامِه ذلك في بابِ المزحِ، بحيث يكونُ قائِلُه مُتمكِّنًا في اللَّعبِ، ومَعْدودًا من الفريقِ الموصوفِ باللَّعبِ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ إضرابٌ عمَّا بَنَوا عليه مَقالَهم مِن اعتقادِ كونِها أرْبابًا لهم؛ كأنَّه قِيلَ: ليس الأمْرُ كذلك، ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾. وقيل: إضْرابٌ عن كونِه لاعِبًا بإقامةِ البُرهانِ على ما ادَّعاهُ[٣]. وقيل: هذا الجوابُ وارِدٌ على الأُسلوبِ الحكيمِ[٤]، وكان مِن الظَّاهرِ أنْ يُجيبَهم بقولِه: (بلْ أنا مِن المُحقِّينَ ولسْتُ منَ اللَّاعبينَ)؛ فجاء بقولِه: ﴿بَل رَّبُّكُمْ ...﴾ الآيةَ؛ لِيُنبِّهَ به على أنَّ إبطالي

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣).

(٤) لكن نفَى ابنُ عاشورٍ أن يكونَ واردًا على طريقةِ الأسلوبِ الحكيم، فقال: (...كان جوابُ إبراهيمَ إبطالًا لقولِهم: ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ معَ مستندِ الإبطالِ بإقامةِ الدَّليلِ على أنَّه جاءَهم بالحقِّ، وليس فيه طريقةُ الأسلوبِ الحكيمِ كما ظنَّه الطِّيبيُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٦).

لِمَا أنتم عاكِفونَ عليه، وتَضْليلي إيَّاكم ممَّا لا حاجةَ فيه -لوُضوحِه- إلى الدَّليلِ، ولكنِ انْظُروا إلى هذه العظيمةِ، وهي أنَّكم تَتْرُكونَ عِبادةَ خالِقِكم، ومالِكِ أمْرِكم، ورازِقِكم، ومالِكِ العالَمينَ، والَّذي فطَرَ ما أنتم لها عاكِفونَ، وتَشْتغِلون بعِبادتِها دونَه، فأيُّ باطلٍ أظهَرُ مِن ذلك؟ وأيُّ ضَلالٍ أبيَنُ مِن هذا؟ ثمَّ ذيَّلَ الجوابَ بما هو مُقابِلٌ لقولِهم، وهو قولُه: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مِن حيثُ الأسلوبُ، وهي الكِنايةُ، ومِن حيثُ التَّركيبُ، وهو بِناءُ الخبرِ على الضَّميرِ، أي: لسْتُ مِن اللَّاعبينَ في الدَّعاوى، بلْ أنا مِن القائمينَ فيها بالبَراهينِ القاطعةِ، والحُجَجِ السَّاطعةِ، كالشَّاهِدِ الَّذي تُقْطَعُ به الدَّعاوى[1].

- وضَميرُ (هنَّ) للسَّمواتِ والأرضِ، وصَفَه تعالى بإيجادِهنَّ إثْرَ وَصْفِه تعالى برُبوبيَّتِه تعالى لهُنَّ؛ تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على أنَّ ما لا يكونُ كذلك بمَعزِلٍ مِن الرُّبوبيَّةِ. ورُجوعُ الضَّميرِ إلى التَّماثيلِ أدْخَلُ في تَضليلِهم، وأظْهَرُ في إلْزامِ الحُجَّةِ عليهم؛ لِمَا فيه مِن التَّصريحِ المُغْني عنِ التَّأمُّلِ في كونِ ما يَعبُدونه مِن جُملةِ المخلوقاتِ[2].

٧- قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾

- بادَرَهُم أوَّلًا بالقولِ المُنبِّهِ على دَلالةِ العقْلِ، فلم يَنتفِعوا بالقولِ، فانتقَلَ إلى القولِ الدَّالِّ على الفِعْلِ الَّذي مآلُه إلى الدَّلالةِ التَّامَّةِ على عدَمِ الفائدةِ في عبارةِ ما يَتسلَّطُ عليه بالكسْرِ والتَّقطيعِ، وهو لا يَدفَعُ، ولا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ، ولا يَشعُرُ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣).

بما ورَدَ عليه من فَكِّ أجزائِه، فقال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾[1].

- قولُه: ﴿ وَتَٱللَّهِ ﴾ القسَمُ بالتَّاءِ فيه زِيادةُ معنًى عن القسَمِ بالواوِ، وهو التَّعجُّبُ؛ فالتَّاءُ تَختصُّ بقسَمٍ على أمْرٍ مُتعجَّبٍ منه، وتَختَصُّ باسْمِ الجَلالةِ؛ كأنَّه تَعجَّبَ مِن تَسهُّلِ الكيدِ على يَدِهِ وتأتِّيه؛ لأنَّ ذلك كان أمْرًا مَقنوطًا منه؛ لصُعوبتِه وتَعذُّرِه[2].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ في الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: فتَولَّوا إلى عِيدِهم، فأتَى إبراهيمُ الأصنامَ، فجعَلَهم جُذاذًا[3].

- وأتَى بضَميرِ مَن يَعقِلُ في قولِه: ﴿فَجَعَلَهُمْ ﴾؛ إذ كانت تُعْبَدُ[4]. وكذلك أُجْرِيَ على الأصنامِ ضَميرُ جمْعِ العُقلاءِ؛ مُحاكاةً لمَعنى كلامِ إبراهيمَ؛ لأنَّ قَومَه يَحسَبون الأصنامَ عُقلاءَ[5].

- قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ فيه استهزاءٌ بهم، واستجهالٌ لهم[6].

٩- قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٦).

تَقديرُه: فلمَّا رَجَعوا مِن عِيدِهم إلى آلهتِهم، ورَأَوا ما فُعِلَ بها، اسْتَفْهموا على سَبيلِ البحثِ والإنكارِ، فقالوا: مَن فعَلَ هذا[١]؟!

- قولُهم: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ استفهامٌ على طَريقةِ الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّشنيعِ، وإنَّما عَبَّروا عنها بما ذُكِرَ، ولم يُشيروا إليها بـ(هؤلاء) وهي بينَ أيدِيهم؛ مُبالَغةً في التَّشنيعِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه[٣].

- وفيه مُبالَغاتٌ؛ حيث دَلَّ إيقاعُ ﴿فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ صِلَةً للموصولِ على تَحقيقِ الخبَرِ، أي: هذا الفِعْلُ الشَّنيعُ الفظيعُ لا يَفْعَلُه إلَّا ظالمٌ، ودَلَّ (إنَّ) واللَّامُ في الخبَرِ على مَزيدِ التَّأكيدِ، ودَلَّ اللَّامُ الاستغراقيُّ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنَّه عريقٌ فيه، وهذه المُبالَغاتُ إنَّما ذَهَبوا إليها لاعتقادِهم أنَّها آلِهةٌ حَقيقةً يجِبُ تَوقيرُهم وإعظامُهم[٤].

١٠- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾ فيه حَذْفُ مُتعلِّقِ (يَذكُرُ)؛ لدَلالةِ القرينةِ عليه، أي: يذكُرُهم بتوعُّدٍ[٥].

- وفي قولِهم: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المُنتصبينَ للبحْثِ في القضيةِ لم يَكونوا يَعرِفونَ إبراهيمَ، أو أنَّ الشُّهداءَ أرادوا تَحقيرَه بأنَّه مَجهولٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

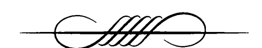
(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٩).

لا يُعْرَفُ، وإنَّما يُدْعى أو يُسمَّى إبراهيمَ[١].

١١- قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾

- قولُه: ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ فيه الإتيانُ بحَرفِ الاستعلاءِ (على)؛ لتَمكُّنِ البصَرِ فيه، حتَّى كأنَّ المَرْئِيَّ مَظروفٌ في الأعيُنِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٣٣).

الآيات (٦٢-٧٠)

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾: أي: رجَعوا عن الاعترافِ بالحقِّ إلى الباطلِ، وعادوا إلى جهلِهم وعِنادِهم، يُقال: نُكِس المريضُ: إذا خرَج عن مَرضِه، ثمَّ عاد إلى مثلِه، وأصلُ (نكس): يدُلُّ على قَلْبِ الشَّيءِ[1].

﴿ أُفّٖ ﴾: هو اسمُ فِعلٍ يُنبئُ عن التضَجُّرِ والاستِثقالِ، أو: صوتٌ يُنبئُ عن ذلك، والأُفُّ: الرَّديءُ مِن الكلامِ، وكلُّ ما غَلُظ منه وقَبُح، وأصلُ (أفف): يَدلُّ على تكرُّهِ الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: جيءَ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وسألَه قومُه مُنكِرينَ عليه: أأنت

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٠).

الذي كسَّرْتَ آلهتَنا يا إبراهيمُ؟ فقال: بل الذي كسَّرها هذا الصَّنَمُ الكبيرُ، فاسألوا آلهَتَكم عن ذلك إن كانت تتكَلَّمُ! فرَجَعوا إلى أنفُسِهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: إنَّكم أنتم الظَّالِمونَ. ثمَّ عادوا إلى جهلِهم وعِنادِهم فانقَلَبوا إلى الباطِلِ والانتصارِ لأصنامِهم، فقالوا: كيف نسألُها، وقد عَلِمْتَ أنَّها لا تَنطِقُ؟

قال إبراهيمُ مُوَبِّخًا لِقَومِه محقِّرًا لشأنِ الأصنامِ: كيف تَعبُدونَ أصنامًا لا تنفَعُ عابِديها ولا تَضُرُّهم؟! قُبحًا لكم ولآلهَتِكم التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ تعالى، أفلا تَعقِلونَ فتُدرِكونَ سُوءَ ما أنتم عليه؟ فقالوا: حَرِّقوا إبراهيمَ بالنَّارِ؛ غضَبًا لآلهتِكم إن كنتُم ناصرينَ لها. فأشْعَلوا نارًا عظيمةً وألقَوه فيها، فقال الله تعالى للنَّارِ: كوني بَرْدًا وسَلامًا على إبراهيمَ. فلم يَنَلْه فيها أذًى، ولم يُصِبْه مكروهٌ. وأراد القَومُ بإبراهيمَ كيدًا فأبطل اللهُ كَيدَهم، وجعَلَهم المغلوبينَ الأسفَلينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾.

أي: فلمَّا أُحضِرَ إبراهيمُ قال له قَومُه: أأنت الذي حطَّمتَ أصنامَنا التي نَعبُدُها يا إبراهيمُ[1]؟

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه[2]: بل الذي فعَل ذلك هذا الصَّنمُ الكبيرُ، فاسألوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٢) قال السعدي: (وهذا الكلامُ مِن إبراهيمَ المَقصِدُ منه إلزامُ الخَصمِ وإقامةُ الحُجَّةِ عليه؛ ولهذا قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ وأراد الأصنامَ المكَسَّرةَ اسألُوها لمَ كُسِّرت؟ والصَّنَمَ الذي لم يُكسَّرْ، اسألُوه: لأيِّ شَيءٍ كَسَّرَها؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦). =

الأصنامَ المكَسَّرةَ والصَّنمَ الكبيرَ الذي لم يُكَسَّرْ؛ لِيُخبِروكم بمن حطَّمَها إن كانوا يَستطيعونَ الكلامَ[1]!

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ النبيُّ عليه السَّلامُ قَطُّ إلَّا ثَلاثَ كَذِباتٍ[2]: ثِنتينِ في ذاتِ اللهِ؛ قَولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾

= وقال ابنُ الجوزي: (اختلف العُلَماءُ في وجهِ هذا القولِ مِن إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ على قولينِ: أحدهما: أنَّه وإن كان في صورةِ الكَذِبِ إلَّا أنَّ المرادَ به التَّنبيهُ على أنَّ مَن لا قُدرةَ له لا يَصلُحُ أن يكونَ إلهًا...، ومِثلُ هذا لا تُسَمِّيه العَرَبُ كَذِبًا. والثاني: أنَّه من معاريضِ الكلامِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠١).

(٢) قال ابن تيميَّة: (الكَذِبُ على الشَّخصِ حرامٌ كُلُّه، سواءٌ كان الرجلُ مُسلِمًا أو كافرًا، برًّا أو فاجرًا ... ولكنْ تُباح عند الحاجةِ الشَّرعيةِ المعاريضُ، وقد تُسمَّى كَذِبًا؛ لأنَّ الكلامَ يعني به المتكَلِّمُ معنًى، وذلك المعنى يريدُ أن يفهمَه المُخاطَب، فإذا لم يكنْ على ما يَعنيه فهو الكَذِبُ المحضُ، وإن كان على ما يعنيه ولكِنْ ليس على ما يفهَمُه المخاطَبُ، فهذه المعاريضُ، وهي كَذِبٌ باعتبارِ الإفهامِ، وإن لم تكنْ كَذِبًا باعتبار الغايةِ السَّائغةِ، ومنه قولُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم: «لم يَكذِبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذِباتٍ كُلُّهنَّ في ذاتِ الله...» وهذه الثلاثةُ مَعاريضُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٢٣).

وقال ابنُ القيم: (الكلامُ له نِسبتانِ: نِسبةٌ إلى المتكَلِّم وقَصدِه وإرادتِه، ونِسبةٌ إلى السَّامعِ وإفهامِ المتكَلِّم إيَّاه مَضمونَه؛ فإذا أخبَرَ المتكَلِّمُ بخبرٍ مُطابقٍ للواقعِ، وقَصَد إفهامَ المخاطَبِ؛ فهو صِدقٌ مِن الجِهَتينِ، وإن قَصَد خلافَ الواقِعِ، وقَصَد مع ذلك إفهامَ المخاطَبِ خِلافَ ما قَصَد، بل معنًى ثالثًا لا هو الواقِعُ ولا هو المرادُ؛ فهو كَذِبٌ مِن الجِهَتينِ بالنِّسبتَينِ معًا، وإن قَصَد معنًى مطابِقًا صَحيحًا، وقَصَد مع ذلك التَّعميةَ على المخاطَبِ، وإفهامَه خِلافَ ما قَصَده؛ فهو صِدقٌ بالنِّسبةِ إلى قَصْدِه، كَذِبٌ بالنِّسبةِ إلى إفهامِه، ومن هذا البابِ التَّوريةُ والمعاريضُ، وبهذا أَطلَقَ عليها إبراهيمُ الخَليلُ عليه السَّلامُ اسمَ الكَذِبِ، مع أنَّه الصَّادِقُ في خبَرِه، ولم يُخبِرْ إلَّا صِدقًا؛ فتأمَّلْ هذا الموضِعَ الذي أَشكَلَ على النَّاسِ). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٣٦).

[الأنبياء: ٦٣]، وواحِدةً في شأنِ سارةَ...)) الحديثَ[١].

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: فرَجَعوا إلى أنفسِهم[٢]، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: إنَّكم أنتم الظَّالِمونَ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) واللفظ له.

(٢) قال ابن جزي: (﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ أي: رجَعوا إليها بالفكرةِ والنظرِ، أو رجَعوا إليها بالملامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥).

وقال الشوكاني: (﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ أي: رَجَع بعضُهم إلى بعضٍ رجوعَ المنقطِعِ عن حُجَّتِه، المُتفطِّنِ لصِحَّةِ حُجَّةِ خَصمِه المراجِعِ لعقلِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

قيل المعنى: إنَّكم أنتم الظالمونَ بعبادتِكم من لا ينطِقُ، ولا يدفَعُ عن نفسِه شيئًا. وممن ذهب إلى هذا المعنى في الجملة: السمعاني، والبغوي، والنسفي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

قال الرسعني: (﴿ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي: الواضِعونَ العِبادةَ في غيرِ مَوضِعِها؛ حيث عبدتُم جَمادًا لا يَعقِلُ، ولا يَنفَعُ ولا يَدفَعُ. وهذا قَولُ ابنِ عبَّاسٍ وعامَّةِ المفَسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٣٥).

وقيل المعنى: فرجعوا إلى أنفُسِهم بالملامةِ في عَدَمِ احترازِهم وحراستِهم لآلهتِهم، فقالوا: ﴿ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي: في ترِكِكم لها مهملةً لا حافظَ عندَها. قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٠).

وممن ذهَب إلى هذا القولِ مِن السلفِ: وهبُ بنُ مُنبِّهٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٩).

وممن جمَع بينَ المعنيينِ السابقينِ: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤١).

وقيل المعنى: رجعوا إلى فِكرِهم وعقولِهم فقالوا: إنَّكم تظلِمونَ إبراهيمَ بسُؤالِكم إيَّاه عمَّن كسَّر الأصنامَ، وهذه الأصنامُ حاضرةٌ فلْنَسألْها هي عمَّن كسَّرها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير، والواحدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٣).

﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: ثم عادُوا إلَى جهلِهم وعِنادِهم، ورَجَعوا عن الاعترافِ بالحقِّ إلى الباطلِ، وإلى المكابرةِ والانتصارِ للأصنام، فقالوا: أنت تعلمُ أنَّ هؤلاءِ الأصنامَ لا تنطِقُ، فكيف تأمُرنا بسؤالِهم، ما تريدُ إلَّا التَّنَصُّلَ مِن جَريمَتِك[1]!

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ظَهَرت الحُجَّةُ عليهم، أخَذَ يُقَرِّعُهم ويوَبِّخُهم بعبادةِ ما لا ينفَعُ ولا يَضُرُّ، ثمَّ أبدى لهم التضَجُّرَ منهم ومِن مَعبوداتِهم[2].

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٤).

ممن قال: إنَّ معنى ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثمَّ غُلِبوا في الحُجَّةِ، فاحتَجُّوا على إبراهيمَ بما هو حُجَّةٌ له عليهم، وقالوا: كيف تأمُرُنا أن نسألَها وأنت تعلَمُ أنَّها لا تَنطِقُ؟! وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، ومكي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٧٧٢).

ونحوُ القولِ السابقِ قولُ مَن قال: إنَّ المرادَ: انقلبوا إلى المجادلةِ بعدَ ما استقاموا بالمراجعةِ، فشبَّه عودَهم إلى الباطلِ بصيرورةِ أسفلِ الشيءِ أعلاه. وممن اختار هذا القولَ: البيضاويُّ، وابن جزي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٥).

وقيل: المعنى: أدركَتْهم حَيرةُ سُوءٍ، فأطرقوا برُؤوسِهم في الأرضِ. وممن قال بذلك المعنى في الجملة: الثعلبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٠). وممن قال مِن السلفِ أنَّ المعنى أنَّه أدركَتْهم حيرةٌ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٩).

أي: قال إبراهيمُ مُوَبِّخًا لِقَومِه ومُنكِرًا عليهم: أفتَعبُدونَ أصنامًا لا تنفَعُكم شيئًا فتَرجونَها، ولا تَضُرُّكم شيئًا فتَخشَونَها؟ وقد عَلِمتُم أنَّها لم تمنَعْ نفسَها مِمَّن أرادها بسوءٍ، ولا تقدِرُ أن تنطِقَ إن سُئِلَت عمَّن يأتيها بسوءٍ فتُخبِرَ به، فلِمَ تَعبُدونَ ما كان هكذا[1]؟!

﴿ أُفِّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ أُفِّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: قُبْحًا لكم ولأصنامِكم، وما أخسَّكم أنتم وما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ[2]!

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: أفليست لكم عُقولٌ تُدرِكونَ بها قُبحَ ما تفعَلونَ مِن عبادتِكم أصنامًا لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، ولا تستَحِقُّ العبادةَ؛ فتَتركوا عبادتَها، وتَعبُدوا اللهَ الذي بِيَدِه النَّفعُ والضُّرُّ[3]؟!

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

قال السمعاني: (معناه: لا ينفعُكم إن عبدتموه، ولا يضرُّكم إن تركتُم عبادتَه). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٨٩).

قال الشوكاني: (في هذا تحقيرٌ لهم ولمعبوداتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نَبَّه إبراهيمُ عليه السَّلامُ قَومَه على قَبيحِ مُرتَكَبِهم، وغَلَبَهم بإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، لَاذُوا بالإيذاءِ له، والغَضَبِ لآلهتِهم، واختاروا أشَدَّ العذابِ، وهو الإحراقُ بالنَّارِ[1].

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: حَرِّقوا إبراهيمَ بالنَّارِ؛ انتِقامًا لأصنامِكم المحطَّمةِ إنْ كنتُم لها ناصرينَ[2].

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾.

أي: فأوقَدوا له نارًا لِيَحرِقوه، فلمَّا ألقَوا إبراهيمَ فيها قُلْنا لها: يا نارُ، كوني بردًا وسلامًا على إبراهيمَ. فأنجاه اللهُ منها، لم يَنَلْه فيها أذًى، ولا أحسَّ بمكروهٍ[3].

كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ((﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حينَ أُلقِي في النَّارِ، وقالها مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٢، ١٦٣).

ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]))[١].

وعن أُمِّ شَريكٍ رَضِي اللَّهُ عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أمَر بقتلِ الوَزَغِ[٢]، وقال: كان يَنفُخُ[٣] على إبراهيمَ عليه السَّلامُ))[٤].

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

أي: وأراد المُشرِكونَ أن يَكيدوا بإبراهيمَ[٥] فخاب سَعيُهم، ولم يحصُلْ لهم مُرادُهم، وجعَلَهم اللهُ هم المغلوبينَ الهالكينَ[٦].

كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) الوَزَغُ: جمعُ الوَزَغةِ: نوعٌ من السَّحالي الصَّغيرةِ، وهي التي يُقالُ لها: سامُّ أبرَصَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٨١)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار عمر (١/ ١٩٠).

(٣) كان ينفُخُ: أي: النارَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٣٥٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٥٩).

(٥) قيل: المرادُ بذلك: ما سبَق مِن إلقائِهم له في النَّارِ، حيثُ عزَموا على إحراقِه. وممن قال بذلك: السعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٧)، ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٣).

وقيل: المراد: أرادوا به مكرًا آخَرَ بعد خروجِه من النار. وممن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٣).

وقال الشنقيطي: (وجعْلُه تعالى إيَّاهم الأخسرينَ، أي: الذين هم أكثَرُ خُسرانًا؛ لِبُطلانِ كَيدِهم، وسلامتِه مِن نارِهم. وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضًا في سورة «الصافات» في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾، وكونُهم الأسفلينَ واضِحٌ؛ لعُلُوِّه عليهم، وسلامتِه مِن شَرِّهم، وكونُهم الأخسرينَ؛ لأنَّهم خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ، ذلك هو الخُسرانُ المبينُ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٣).

ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُلقِيَ في النَّارِ، والنَّارُ حارَّةٌ مُهلِكةٌ، فقال اللهُ لها: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، فكانت بَردًا وسلامًا عليه، فلم يَهلِكْ بها، ولم تَضُرَّه، فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبهذا نَعرِفُ أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أن يعتَمِدَ على الأسبابِ الحِسِّيَّةِ الظَّاهِرةِ، بل يعتَمِدُ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، ويفعَلُ الأسبابَ التي أذِنَ اللهُ تعالى فيها[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى إخبارًا عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ والمُعتَزِلةِ الذين يَنفُون الكلامَ عن اللهِ جَلَّ وعلا، فيَصِفونَه بما وصَفَ به المُشرِكونَ آلِهَتَهم، فقد قالوا لإبراهيمَ -كما حكَى الله تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾. أفيَجوزُ أن يكونَ إلهُ إبراهيمَ وآلِهَتُهم بصِفةٍ واحدةٍ؛ لا يَنطِقُ ذاك ولا هؤلاء؟! أليس كان عجْزُ آلهتِهم عن الكلامِ نَقصًا فيها، وأحَدَ علاماتِ تحَقُّقِ بطلانِ الإلهيَّةِ عنها؟! فأرَى هؤلاءِ المبتدعةَ لا يَرونَ إلَّا أن يَصِفوه بصِفةِ المَواتِ، وهذا هو التَّعطيلُ بعَينِه، نعوذُ باللهِ منه[2]!!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ أصلٌ في استِعمالِ المعاريضِ[3]، واحتجَّ العلماءُ بمِثلِه على جوازِ التَّعريضِ للمَظلومِ، وهو أنْ يعنيَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٥/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٩).

بكلامِه ما يحتَمِلُه اللَّفظُ، وإنْ لم يفهَمْه المُخاطَبُ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ في تَجويزِ أنْ يكونَ كَبيرُهم هذا الَّذي حطَّمَهم إخطارُ دليلِ انتفاءِ تعدُّدِ الآلهةِ؛ لأنَّه أوْهَمَهم أنَّ كَبيرَهم غَضِبَ مِن مُشارَكةِ تلك الأصنامِ له في المَعْبوديَّةِ، وذلك تدرُّجٌ إلى دليلِ الوَحدانيَّةِ، فإبراهيمُ في إنكارِه أنْ يكونَ هو الفاعِلَ أراد إلْزامَهم الحُجَّةَ على انتفاءِ أُلوهيَّةِ الصَّنمِ العظيمِ، وانتفاءِ أُلوهيَّةِ الأصنامِ المُحطَّمةِ بطَريقِ الأولَى، على نِيَّةِ أنْ يَكُرَّ على ذلك كلِّه بالإبطالِ، ويُوقِنَهم بأنَّه الَّذي حطَّمَ الأصنامَ، وأنَّها لو كانت آلِهةً لَدفعَتْ عن أنفُسِها، ولو كان كَبيرُهم كَبيرَ الآلهةِ لَدفَعَ عنها[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ * قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لَمَّا غَلَب إبراهيمُ عليه السَّلامُ قَومَه بالحُجَّةِ القاهرةِ، لم يجِدوا مَخلَصًا إلَّا بإهلاكِه، وكذلك المُبطِلُ إذا قَرَعَت باطِلَه حُجَّةُ فَسادِه، غَضِبَ على المحِقِّ، ولم يَبقَ له مَفزَعٌ إلَّا مُناصَبتُه والتشفِّي منه، كما فعل المُشرِكونَ من قريشٍ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين عَجَزوا عن المعارَضةِ[٣]، وقد جرتِ العادةُ بأنَّ المبطلَ إذا أُفْحِم بالدليلِ لجأ إلى ما عندَه مِن القوةِ؛ ليستعملَها ضدَّ الحقِّ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ اختار قَومُ إبراهيمَ أن يكونَ إهلاكُه عليه السَّلامُ بالإحراقِ؛ لأنَّ النَّارَ أهوَلُ ما يُعاقَبُ به وأفظَعُه[٥]،

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٥).

وهي سَبَبٌ للإعدامِ المحضِ، والإتلافِ بالكُلِّيَّةِ[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أمْرُ النَّارِ بأمْرِه الكَونيِّ القَدَريِّ أن تكونَ بَردًا وسَلامًا على إبراهيمَ يدُلُّ على أنَّه أنجاه مِن تلك النَّارِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿كُونِى بَرْدًا﴾ يدُلُّ على سلامتِه مِن حَرِّها، وقَولَه: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ يدُلُّ على سَلامتِه مِن شَرِّ بَردِها الذي انقلَبَت الحرارةُ إليه، وجاء مُصَرَّحًا به في قولِه تعالَى: ﴿فَأَنجَـٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2] [العنكبوت: ٢٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، لما كان المرادُ اختصاصَ إبراهيمَ عليه السلامُ بهذا، قيَّده به[3]. وعن أبي العاليةِ: (ولو لم يقُلْ: ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لكان بردُها باقيًا إلى الأبدِ)[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوٓا۟﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ قولِهم؛ كأنَّه قيلَ: فمَاذا فَعلُوا به عليهِ السَّلامُ بعدَ ذلكَ، هل أتَوا بِهِ أو لا؟ فقيلَ: أتَوا به، ثمَّ قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، اقتصارًا على حِكايةِ مُخاطبَتِهم إيَّاهُ عليه السَّلامُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إتيانَهم به، ومُسارعتَهم إلى ذلك أمْرٌ مُحقَّقٌ، غَنِيٌّ عن البَيانِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٠).

- والاستفهامُ في قولِهم: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ﴾ استفهامُ تقريرٍ، أي: فما الذي جرَّأك، وما الذي أوجَبَ لك الإقدامَ على هذا الأمرِ[1]؟

- وقيل: في الآية فَنٌّ طريفٌ يُسمَّى تَجاهُلَ العارِفِ، فهي مِن التَّجاهُلِ المُوجَبِ الجاري مَجرَى التَّقريرِ[2].

٢- قولُه: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ هذا من مَعاريضِ الكلامِ الحَسنةِ، والقولُ فيه أنَّ قَصْدَ إبراهيمَ صَلواتُ اللهِ عليه لم يكُنْ إلى أنْ يَنسِبَ الفِعْلَ الصَّادِرَ عنه إلى الصَّنمِ، وإنَّما قصَدَ تَقريرَهُ لنفْسِه، وإثْباتَه لها على أُسلوبٍ تَعريضيٍّ، يَبلُغُ فيه غرَضَه مِن إلْزامِهم الحُجَّةَ وتَبكيتِهم؛ استهزاءً بهم، وإثباتًا للقادِرِ. أو أنَّ الأصنامَ غاظَتْه حين أبصَرَها مُصْطفَّةً مُرتَّبةً، وكان غَيظُ كَبيرِها أكبَرَ وأشَدَّ؛ لِمَا رأى مِن زِيادةِ تَعظيمِهم له، فأسنَدَ الفِعْلَ إليه؛ لأنَّه هو الَّذي تَسبَّبَ لاستهانتِه بها، وحَطمِه لها، والفِعْلُ كما يُسنَدُ إلى مُباشِرِه يُسنَدُ إلى الحامِلِ عليه. ويجوزُ أنْ يكونَ حِكايةً لِمَا يَقودُ إلى تَجويزِه مَذْهبَهم، كأنَّه قال لهم: ما تُنكِرون أنْ يفعَلَهُ كبيرُهم؛ فإنَّ مِن حَقِّ مَن يُعبَدُ ويُدْعى إلهًا أنْ يَقدِرَ على هذا وأشدَّ منه[3].

- وقيل: (بل) في ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ تَقْتضي نَفْيَ ما دَلَّ على كَلامِهم مِن استفهامِه، وقولُه: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ هذا الخبرُ مُسْتعمَلٌ في معنى التَّشكيكِ، أي: لعلَّه فعَلَه كَبيرُهم؛ إذ لم يَقصِدْ إبراهيمُ نِسْبةَ التَّحطيمِ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٥).

الصَّنمِ الأكبرِ؛ لأنَّه لم يَدَّعِ أنَّه شاهَدَ ذلك، ولكنَّه جاء بكلامٍ يُفِيدُ ظَنَّه بذلك، حيث لم يَبْقَ صَحيحًا مِن الأصنامِ إلَّا الكبيرُ[1].

- قولُه: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ تَعريضٌ؛ أراد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يُبيِّنَ لهم أنَّ مَن لا يَتكلَّمُ ولا يَعلَمُ ليس بمُستحِقٍّ للعِبادةِ، ولا يَصِحُّ في العَقْلِ أنْ يُطلَقَ عليه أنَّه إلهٌ، فأخرَجَ الكلامَ مُخرَجَ التَّعريضِ لهم بما يُوقِعُهم في الاعترافِ بأنَّ الجَماداتِ الَّتي عبَدُوها ليست بآلهةٍ؛ لأنَّهم إذا قالوا: لا يَنطِقون، قال لهم: فكيف تَعبُدون مَن يَعجِزُ عن النُّطقِ، ويَقصُرُ عن أنْ يَعلَمَ بما يقَعُ عنده في المكانِ الَّذي هو فيه؟! فهذا الكلامُ مِن فَرْضِ الباطلِ مع الخَصمِ حتَّى تَلْزمَه الحُجَّةُ، ويَعترِفَ بالحقِّ؛ فإنَّ ذلك أقطَعُ لشُبهتِه، وأدفَعُ لمكابرتِه[2].

- ولم يقُلْ عليه السَّلامُ: (إنْ كانوا يَسْمعون)، أو (يَعقِلون)، مع أنَّ السُّؤالَ مَوقوفٌ على السَّمعِ والعقْلِ أيضًا؛ لأنَّ نَتيجةَ السُّؤالِ هو الجوابُ، وعدَمَ نُطْقِهم أظهَرُ، وتَبكيتَهم بذلك أدخَلُ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مُفيدةٌ للحصرِ، أي: أنتم ظالِمونَ لا إبراهيمُ[4].

٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ تَمثيلٌ لِتَغيُّرِ رأْيِهم عن الصَّوابِ، كما قالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إلى مُعاودَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٠، ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٣).

الضَّلالِ بهَيئةِ مَن تغيَّرَت أحوالُهم من الانتصابِ على الأرجُلِ إلى الانتصابِ على الرُّؤوسِ مَنكوسينَ؛ فهو مِن تَمثيلِ المعقولِ بالمحسوسِ، والمقصودُ به التَّشنيعُ، وحَرْفُ (على) للاستعلاءِ، أي: عَلَتْ أجسادُهم فوقَ رُؤوسِهم. ويحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ كِنايةً عن تَطَأْطُؤِ رُؤوسِهم وتَنكيسِها إلى الأرضِ على سَبيلِ الخجَلِ والانكسارِ[1].

- قولُه: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ جَوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ، معمولٌ لقولٍ مَحذوفٍ في مَوضعِ الحالِ، أي: قائلينَ: لقد علِمْتَ ما هؤلاء يَنطِقون[2].

- جُملةُ: ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ تُفِيدُ تَقوِّي الاتِّصافِ بانعدامِ النُّطقِ، وذلك بسبَبِ انعدامِ آلَتِهِ، وهي الألْسُنُ[3].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ فيه تَبكيتٌ لهم[4]. والهمزةُ في قولِه: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٣، ١٠٤).
لكن قال الشوكاني: (وهو ضعيفٌ، لأنَّه لم يَقُلْ: نكَسوا رؤوسَهم بفتحِ الكافِ، وإسنادِ الفعلِ إليهم، حتَّى يَصِحَّ هذا التفسيرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٩). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١٨/١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠٤/١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٣٥).

٦- قوله تعالى: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

- التَّنوينُ في ﴿ أُفٍّ ﴾ يُسمَّى تَنوينَ التَّنكيرِ، والمُرادُ به التَّعظيمُ(١).

- وقولُه: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوضِعِ الإضمارِ؛ لمَزيدِ استقباحِ ما فَعَلوا(٢).

- وقولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ استفهامُ تَوبيخٍ وإنكارٍ(٣).

٧- قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

- قولُه: ﴿حَرِّقُوهُ ﴾ التَّحريقُ مُبالَغةٌ في الحَرْقِ، أي: حَرْقًا مُتلِفًا. وأسنَدَ قولَ الأمْرِ بإحراقِه إلى جَميعِهم؛ لأنَّهم قَبِلوا هذا القولَ(٤).

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ فيه: تَحريضٌ وتَلهيبٌ لِحَميَّتِهم(٥).

٨- قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

- جاءت جُملةُ: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ مَفصولةً عمَّا قبْلَها؛ إمَّا لأنَّها وقعَتْ كالجوابِ عن قولِهم: ﴿حَرِّقُوهُ﴾، فأشبَهَتْ جُمَلَ المُحاوَرةِ، وإمَّا لأنَّها استئنافٌ عن سُؤالٍ يَنشَأُ عن قِصَّةِ التَّآمُرِ على الإحراقِ، وبذلك يَتعيَّنُ تَقديرُ جُملةٍ أُخرى، أي: فألْقَوه في النَّارِ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٠٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ذِكْرُ (سَلامًا) بعْدَ ذِكرِ البرْدِ كالاحتراسِ؛ لأنَّ البرْدَ مُؤْذٍ بدوامِهِ ربَّما إذا اشتَدَّ، فعَقَّبَ ذِكْرَه بذِكْرِ السَّلامِ لذلك. وإنَّما ذكَرَ ﴿بَرۡدٗا﴾، ثمَّ أتبَعَ بـ (سَلامًا) ولم يَقتصِرْ على ﴿بَرۡدٗا﴾؛ لإظهارِ عَجيبِ صُنْعِ القُدرةِ؛ إذ صيَّرَ النَّارَ بَرْدًا[١].

- وقولُه: ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فيه وضْعُ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، حيث لم يقُلْ: (عليه)؛ كَرامةً لهذا المُسمَّى[٢].

٩- قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا ...﴾ تَذييلٌ لِمَا سبَقَهُ[٣].

- وتَعريفُ جُزأيِ الجُملةِ في قولِه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ يُفِيدُ القصْرَ، وهو قَصْرٌ للمُبالَغةِ؛ كأنَّ خَسارتَهم لا تُدانِيها خَسارةٌ، وكأنَّهم انفَرَدوا بوَصْفِ الأخسرينَ؛ فلا يصدُقُ هذا الوصْفُ على غَيرِهم[٤].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾، وقال في سُورةِ (الصَّافاتِ): ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨]، فجاء في مَوضِعٍ: ﴿ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾، وفي مَوضِعٍ: ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾؛ ووجْهُه: أنَّ في سُورةِ (الأنبياءِ) أخبَرَ فيها اللهُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ثمَّ أخبَرَ عنِ الكُفَّارِ لَمَّا ألْقَوهُ في النَّارِ وأرادوا به كَيدًا ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾، والكيدُ: سَعْيٌ في مَضرَّةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

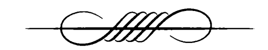
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٧).

لِتُورِدَ على غَفلةٍ، فذكَرَ مُكايدةً بينهم وبينَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فكادَهُم ولم يَكِيدُوه، فخسِرَتْ تجارَتُهم، وعادت عليهم مُكايدَتُهم؛ لأنَّه كسَرَ أصنامَهم، ولم يَبْلُغوا مِن إحْراقِه مُرادَهم، فذَكَر ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾؛ لأنَّهم خَسِروا فيما عامَلَهم به وعامَلوهُ مِن المُكايَدةِ الَّتي أُضِيفَت إليهما. وأمَّا الآيةُ الَّتي في سُورةِ (الصَّافاتِ): فإنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ عن الكُفَّارِ فيها بما اقْتَضى مِن ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾؛ وهو أنَّه قال: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]، فبَنَوا له بِناءً عاليًا، ورَفَعوهُ فوقَه ليَرْمُوا به مِن هناك إلى النَّارِ الَّتي أجَّجُوها، فلمَّا عَلَّوا ذلك البِناءَ وحَطُّوه منه إلى أسفَلَ، عادوا هم الأسفلينَ؛ لأنَّهم أُهْلِكوا في الدُّنيا، وسَفُلَ أمْرُهم في الأُخرى، واللهُ تعالى نجَّى نَبيَّه عليه السَّلامُ، وأعلاهُ عليهم؛ فلذلك اخْتُصَّتْ هذه الآيةُ بقولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[1] [الصافات: ٩٨].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّ اللهَ تعالَى قد جعَلَ في الخُسرانِ المُبينِ مَن خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ، وأعْلَمَنا تعالى أنَّ الأخسرينَ لا يُقامُ لهم وَزْنٌ في القيامةِ؛ فلا أَدْوَنَ حالًا مِن هؤلاء. ولمَّا أراد قومُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ به الكيدَ، ألْحَقَهم تعالى بهؤلاءِ عُقوبةً تُوافِقُ مُرتكَبَهم وسُوءَ انتحالِهم، والأخسرونَ هم الأسفلونَ، وهذا كان مَطلَبَ الكافرِ في الآخرةِ وتَمنِّيه لو بلَغَهُ إلْحاقَ مَن أضَلَّهُ مِن الجنِّ والإنسِ بهذا النَّمطِ؛ فالصِّفتانِ مِن الخُسرانِ والسَّفالةِ غايةُ حالةِ الكافرِ، ومَن كان مِن الأسفلينَ فقد خسِرَ خُسرانًا مُبينًا، فلا تضادَّ بين الصِّفتينِ سِوى أنَّ السُّفولَ لَاحِقٌ في ذاتِ المُسفلِ، والخُسرانَ حقيقةٌ في خارِجٍ عنه، فالسُّفولُ أبلَغُ، فَقُدِّمَ ما هو

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٠٥، ٩٠٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٨، ١٧٩)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٥٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٦).

لاحِقٌ خارجيٌّ، وأُخِّرَ ما لا يَتعدَّى ذاتَ المُتَّصفِ تكمِلةً وتَتمَّةً؛ إذ هو أبلَغُ على ما يجِبُ وعلى ما قدَّمنا مِن رَعْيِ التَّرتيبِ، والتَّسفُّلُ (ضِدُّ) التَّعالي؛ فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ ويُناسِبُ[1].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٥٠، ٣٤٩).

الآيات (٧١-٧٥)

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَافِلَةً﴾: أي: زيادةً وفَضلًا، وأصلُ (نفل): يدُلُّ على عَطاءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: ونجَّينا إبراهيمَ ولوطًا وأخرَجْناهما إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها للعالَمينَ، ووهَبْنا لإبراهيمَ ابنَه إسحاقَ وحفيدَه يَعقوبَ زِيادةً على ذلك، وكلٌّ مِن إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ جعَلَه اللهُ صالحًا مُطيعًا له، وجعَلْنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ قُدوةً للنَّاسِ يَدْعونَهم بأمْرِنا إلى عِبادة اللهِ وطاعتِه، وأوحَينا إليهم فِعْلَ الخيراتِ مِن العَمَلِ، وإقامَ الصَّلاةِ، وإيتاءَ الزَّكاةِ، فامتَثَلوا لذلك، وكانوا مُنقادينَ مُطيعينَ لله وَحْدَه دون مَن سِواه.

وآتَينا لُوطًا النبُوَّةَ وفَصلَ القَضاءِ بين الخُصومِ، وعِلمًا عَظيمًا بأمرِ اللهِ ودينِه، ونجَّيناه مِن أهلِ القَريةِ الذين كانوا يعملونَ الخبائثَ؛ إنَّهم كانوا أهلَ سَوءٍ وقُبحٍ، خارجينَ عن طاعةِ الله. وأدخَلْناه في رحمتِنا بإنجائِه ممَّا حلَّ بقومِه، وبإدخالِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

الجنَّةَ في الآخِرةِ؛ لأنَّه كان من الطَّائعين الذين يَعمَلونَ بطاعةِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ٧١ ﴾.

أي: ونجَّينا إبراهيمَ ولوطًا مِن أعدائِهما الكافِرينَ، فأخرَجْناهما إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها للعالَمينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ٧٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بعد ذِكرِه لإنعامِه على إبراهيمَ وعلى لوطٍ عليهما السَّلامُ بأن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٨).

قال ابن جرير: (لا خِلافَ بين جميع أهل العِلمِ أنَّ هِجرةَ إبراهيمَ مِن العراقِ كانت إلى الشام، وبها كان مُقامُه أيام حياتِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٥).

ونسب الشنقيطي القول بأنها أرض الشام إلى الجمهور. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٥).

وقيل: المراد بقوله: ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾: بيت المقدس. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥).

قال ابن عاشور: (والأرض: هي أرضُ فلسطين). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٨). وذكر ابنُ كثيرٍ أنَّ المرادَ: الأرضُ المقدسةُ مِن بلادِ الشام. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٣).

وقال القرطبي: (وقيل لها: مُباركةٌ؛ لكثرةِ خِصبِها وثمارِها وأنهارِها، ولأنَّها معادِنُ الأنبياءِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٥).

وقال ابن عاشور: (وصَفَها الله بأنَّه باركها للعالَمينَ، أي: للنَّاسِ، يعني الساكنينَ بها؛ لأنَّ الله خلقها أرضَ خِصبٍ ورخاءِ عَيشٍ، وأرضَ أمنٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٨).

نجَّاهما إلى الأرضِ المباركةِ؛ أتبَعَه بذِكرِ غَيرِه مِن النِّعَمِ(١).

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾.

أي: وأعْطَينا إبراهيمَ ابنَه إسحاقَ، وأعْطَيناه حَفيدَه يَعقوبَ بنَ إسحاقَ زيادةً، وفَضلًا منَّا(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٥، ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٥، ١٦٦).

وممن قال بأنَّ المرادَ بالنافلةِ: يعقوبُ عليه السلامُ: مقاتل بن سليمان، والزجاج، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيم، واختاره النيسابوري، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣١٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩١).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي: زيادةً؛ لأنَّه دعا في إسحاقَ، وزِيدَ يَعقوبَ مِن غَيرِ دعاءٍ، فكان ذلك نافِلةً، أي: زيادةً على ما سأل؛ إذ قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠]. ويُقالُ لوَلَدِ الوَلَدِ نافِلةٌ؛ لأنَّه زيادةٌ على الوَلَدِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وقتادةُ، وابنُ زيد، والحكمُ بنُ عُتَيْبةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٣).

وممَّن قال بأنَّ كُلًّا من إسحاقَ ويَعقوبَ كان نافلةً لإبراهيمَ: ابن عطية -وهو الظاهرُ مِن اختيارِه-، والرازي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٨، ١٠٩).

قال الرازي: (لأنَّه تعالَى جَمَع بينَهما، ثُمَّ ذَكَر قولَه: ﴿ نَافِلَةً ﴾، فإذا صَلُحَ أنْ يكونَ وصفًا لهما فهو أولَى). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٠).

وقال ابن عاشور: (النافلةُ: الزيادةُ غيرُ الموعودةِ؛ فإنَّ إبراهيمَ سأل ربَّه، فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠]، أراد الوَلَدَ، فوُلِدَ له إسماعيلُ، ثمَّ وُلِدَ له إسحاقُ عن غيرِ =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾.

أي: وكُلًّا من إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ جعَلْنا طائِعينَ لله، مُجتَنِبين محارِمَ اللهِ[1].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّه أعطاهم رُتبةَ الصَّلاحِ في أنفُسِهم؛ ذكَرَ أنَّه أعطاهم

= مسألةٍ،كما في سورةِ «هودٍ»، فكان نافلةً، ووُلِدَ لإسحاقَ يعقوبُ، فكان أيضًا نافِلةً). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٨، ١٠٩).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: عطاءٌ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠١).

قال ابن جرير: (النافلةُ: الفَضلُ مِن الشَّيءِ يَصيرُ إلى الرجُلِ مِن أيِّ شَيءٍ كان ذلك، وكِلَا ولَدَيه إسحاقَ ويعقوبَ كان فضلًا من اللهِ، تفَضَّلَ به على إبراهيمَ، وهِبَةً منه له. وجائزٌ أن يكون عنى به أنَّه آتاهما إيَّاه جميعًا نافلةً منه له، وأن يكونَ عنى أنَّه آتاه نافلةً يَعقوبَ، ولا بُرهانَ يدُلُّ على أيِّ ذلك المرادُ مِن الكلامِ، فلا شيءَ أَولى أن يقالُ في ذلك مِمَّا قال الله: ووَهَبَ اللهُ لإبراهيمَ إسحاقَ ويَعقوبَ نافِلةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٧).

وقال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿نَافِلَةً﴾ فيه وجهانِ مِن الإعرابِ، فعلى قَولِ مَن قال: النَّافِلةُ: العَطِيَّةُ، فهو ما ناب عن المُطلَقِ مِن «وَهَبْنَا» أي: وهَبْنا له إسحاقَ ويَعقوبَ هِبةً. وعليه النَّافِلةُ: مَصدَرٌ جاء بصيغةِ اسمِ الفاعِلِ، كالعاقِبةِ والعافيةِ. وعلى أنَّ النافلةَ بمعنى الزِّيادةِ، فهو حالٌ مِن «يَعْقُوبَ» أي: وهبنا له يَعقوبَ في حالِ كَونِه زيادةً على إسحاقَ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٩).

رُتبةَ الإصلاحِ لِغَيرِهم، فقال مُعَظِّمًا لإمامتِهم[1]:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

أي: وجعَلْنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أئمَّةً يَقتَدي بهم النَّاسُ في طاعةِ اللهِ، ويَدْعونَ النَّاسَ بأمْرِنا[2] إلى عبادةِ اللهِ، واتِّباعِ أمْرِه، واجتنابِ نَهْيِه[3].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾.

أي: وأوحَينا إلى إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أن يفعَلوا هم وقَومُهم الطَّاعاتِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ[4].

﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

أي: وكانوا لنا طائِعينَ بإخلاصٍ وذُلٍّ وخُضوعٍ وخُشوعٍ، يَفعَلونَ ما يأمُرونَ النَّاسَ به، ويجتَنِبونَ ما يَنهونَهم عنه[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٤٩).

(٢) قوله: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ قيل: معناه: بأمرِ الله إيَّاهم بذلك. وممن اختاره: ابنُ جرير، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٤١).

وقيل: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بإذنِنا. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جُزي، وابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠٥).

وقيل: معنى ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بما أنزَلْنا عليهم مِن الوحيِ. وممن قال بذلك: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩١).

قال القرطبي: (ومعنى ﴿بِأَمْرِنَا﴾: أي: بما أنْزَلْنا عليهم مِن الوحيِ والأمرِ والنَّهيِ، فكأنَّه قال: يَهْدونَ بكتابِنا). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٠، ١١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله سُبحانَه بعد بيانِ ما أنعَمَ به على إبراهيمَ عليه السَّلامُ، أتبَعَه بذِكرِ نِعَمِه على لوطٍ عليه السَّلامُ لَمَّا جمَعَ بينَهما مِن قَبلُ[١].

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

أي: وآتَينا لوطًا النُّبُوَّةَ، وآتيناه عِلمًا عَظيمًا في شريعتِه، وفَهمًا ومعرفةً بأمرِ دينِه، وما يقَعُ به الحُكمُ بين الخُصومِ[٢].

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾.

= (ص: ٥٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٨).

ممن اختار أنَّ المرادَ بالحكمِ النبوةُ: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، والرسعني، والقرطبي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿حُكْمًا﴾ أي: فصلَ القضاءِ بينَ الخصومِ: ابن جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن عطية، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٧).

قال القرطبي: (العلمُ: المعرفةُ بأمرِ الدِّينِ، وما يقعُ به الحكمُ بينَ الخصومِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦).

أي: ونجَّينا لوطًا مِن أهلِ القَريةِ[1] الذين كانوا يفعَلونَ الأفعالَ الشَّنيعةَ القبيحةَ؛ كالكُفرِ، وإتيانِ الذُّكورِ، وغيرِ ذلك، فأخرَجْناه منها، ولم يُصِبْه ما أصابَهم مِن العذابِ والهلاكِ[2].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾.

أي: وذلك لأنَّهم كانوا أصحابَ عملٍ سَيِّءٍ، خارجينَ عن طاعةِ الله[3].

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾.

أي: وأدخَلْنا لوطًا في رَحمَتِنا بإنجائِنا له مِن عذابِ قَومِه في الدُّنيا، وبإدخالِه

---

(١) قال الرازي: (قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ المرادُ: أهلُ القريةِ؛ لأنَّهم هم الذين يعمَلونَ الخبائِثَ دونَ نَفْسِ القريةِ، ولأنَّ الهلاكَ بهم نزَل، فنجَّاه الله تعالى مِن ذلك). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٨).

قال الشنقيطي: (والخبائثُ التي كانت تعملُها جاءت موضَّحةً في آياتٍ مِن كتاب الله: منها: اللِّواطُ، وأنَّهم هم أوَّلُ مَن فعلَه مِن الناسِ، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]. ومن الخبائث المذكورةِ: إتيانُهم المنكَرَ في ناديهم، وقَطْعُهم الطريقَ، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. ومن أعظم خبائِثِهم: تكذيبُ نبيِّ الله لوطٍ، وتهديدُهم له بالإخراجِ مِن الوطَنِ، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٩).

الجنَّةَ في الآخِرةِ[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((احتَجَّت النَّارُ والجَنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارونَ والمتكَبِّرون، وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ. فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهذه: أنتِ عذابي أُعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ -وربما قال: أصيبُ بكِ مَن أشاءُ، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحَمُ بكِ من أشاءُ، ولكُلِّ واحدةٍ منكما مِلؤُها))[٢].

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

أي: أدخَلْناه في رَحمتِنا؛ لأنَّه من الأنبياءِ الطَّائعينَ لله، العامِلينَ بوَحيِ اللهِ، المُستَقيمينَ على أمرِ اللهِ ونَهْيِه[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ هذا مِن أكبَرِ نِعَمِ اللهِ على عَبدِه؛ أن يكونَ إمامًا يَهتدي به المُهتَدونَ، ويمشي خَلفَه السَّالِكونَ، وذلك لَمَّا صَبَروا وكانوا بآياتِ الله يُوقِنونَ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فيه أنَّ مَن صلَحَ لِيَكونَ قُدوةً في دينِ اللهِ، فالهدايةُ مَحتومةٌ عليه، مأمورٌ هو بها مِن جهةِ الله، ليس له أن يُخِلَّ بها، ويتثاقَلَ عنها، وأوَّلُ ذلك أن يهتديَ بنَفْسِه؛ لأنَّ الانتِفاعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٦).

بهُداهُ أعَمُّ، والنُّفوسَ إلى الاقتداءِ بالمَهْدِيِّ أمْيَلُ[1]، وهذا الهَدْيُ هو تزكيةُ نُفوسِ النَّاسِ، وإصلاحُها، وبثُّ الإيمانِ، ويشمَلُ هذا شؤونَ الإيمانِ وشُعَبَه وآدابَه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا﴾ جمَع بينَ إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ في كونِ لوطٍ معه -مع ما كان بيْنَهما مِن القَرابةِ والشَّرِكةِ في النبُوَّةِ- مَزيدَ إنعامٍ[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ دَليلٌ على أنَّ الفِرارَ بالدِّينِ مِن دارِ الكُفرِ إلى بلَدٍ يتمَكَّنُ فيه الفارُّ بدينِه مِن إقامةِ دينِه- واجِبٌ، وهذا النَّوعُ من الهِجرةِ وُجوبُه باقٍ بلا خلافٍ بين العُلَماءِ في ذلك[4].

٣- دلَّ القرآنُ العَظيمُ على بَرَكةِ الشَّامِ في خمسِ آياتٍ: قَولُه: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾، وقَولُه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، والله تعالى إنَّما أورثَ بني إسرائيلَ أرضَ الشَّامِ. وقولُه: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وقَولُه: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقولُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٥).

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨] الآيَةَ، فهذه خَمسُ آياتٍ نُصوصٌ(١).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ دلالةٌ على أنَّ أفعالَ العبادِ حادثةٌ بمشيئةِ الله وقُدْرَتِه وخَلْقِه(٢).

٥- قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ هذه القِصَّةُ التي قَصَّ اللهُ مِن نَبَأِ إبراهيمَ وقَومِه: تَذكيرٌ منه بها قَومَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قُرَيشٍ أنَّهم قد سَلَكوا في عبادتِهم الأوثانَ، وأذاهم مُحمَّدًا على نَهْيِه عن عبادتِها، ودُعائِهم إلى عبادةِ اللهِ مُخلِصينَ له الدِّينَ- مَسْلَكَ أعداءِ أبيهم إبراهيمَ ومخالفَتِهم دينَه؛ وأنَّ مُحَمَّدًا في براءتِه مِن عبادتِها، وإخلاصِه العبادةَ لله، وفي دُعائِهم إلى البَراءةِ مِن الأصنامِ، وفي الصَّبرِ على ما يَلقَى منهم في ذلك- سالِكٌ مِنهاجَ أبيه إبراهيمَ، وأنَّه مُخرِجُه مِن بينِ أظهُرِهم كما أخرجَ إبراهيمَ مِن بينَ أظهُرِ قَومِه -حين تمادَوا في غَيِّهم- إلى مُهاجَرِه مِن أرضِ الشَّامِ؛ ومُسَلٍّ بذلك نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا يَلقَى مِن قَومِه مِن المكروهِ والأذى، ومُعْلِمُه أنَّه مُنَجِّيه منهم، كما نجَّى أباه إبراهيمَ مِن كَفَرةِ قَومِه(٣).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ في تسميةِ العملِ بالخبائثِ دليلٌ على أنَّ الأنجاسَ قد تكونُ فعلًا، وتكونُ ذاتيَّةً(٤).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٠، ٣١١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٠).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الصَّلاحُ هو السَّبَبُ لدُخولِ العَبدِ برَحمةِ الله، كما أنَّ الفَسادَ سَبَبٌ لحرمانِه الرَّحمةَ والخَيرَ، وأعظَمُ النَّاسِ صَلاحًا الأنبياءُ عليهم السَّلامُ؛ ولهذا يَصِفُهم بالصَّلاحِ، وقال سليمانُ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(1)[النمل: ١٩].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ضُمِّن الفعلُ (نجَّيْناه) معنى (أخْرَجْناه) بنجاتِنا إلى الأرضِ؛ ولذلك تعدَّى (نجَّيناه) بـ (إلى). ويَحتمِلُ أن يكونَ (إلى) متعلقًا بمحذوفٍ، أي: منتهيًا إلى الأرضِ؛ فيكونَ في موضِعِ الحالِ، ولا تضمينَ في ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ على هذا(2).

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾

- إعادةُ فِعْلِ (جعَلَ) في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (وأئمَّةً يَهْدون)، بعطْفِ ﴿أَئِمَّةً﴾ على ﴿صَالِحِينَ﴾؛ اهتمامًا بهذا الجَعْلِ الشَّريفِ، وهو جَعْلُهم هادينَ للنَّاسِ بعْدَ أنْ جعَلَهم صالحينَ في أنفُسِهم؛ فأُعِيدَ الفِعلُ ليكونَ له مَزيدُ استقرارٍ، ولأنَّ في إعادةِ الفِعْلِ إعادةَ ذِكْرِ المفعولِ الأوَّلِ، وفي تلك الإعادةِ مِن الاعتناءِ ما في الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ كما يَظهَرُ بالتأمُّلِ(3).

---

(1) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

(2) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٢).

(3) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٠٩).

- قولُه: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ مِن عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ دَلالةٌ على فَضْلِهما وإنافَتِهما، وتَنويهٌ بشأْنِهما؛ لأنَّ بالصَّلاةِ صَلاحَ النَّفْسِ؛ إذ الصَّلاةُ تَنْهى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، وبالزَّكاةِ صَلاحَ المُجتمَعِ لكِفايةِ عَوَزِ المُعْوِزينَ[1]؛ ولأنَّ مَن كَمَّلَهما كما أُمِرَ، كان قائمًا بدِينِه، ومَن ضَيَّعَهما كان لِمَا سِواهما أضْيَعَ، ولأنَّ الصَّلاةَ أفضَلُ الأعمالِ التي فيها حَقُّه، والزَّكاةَ أفضَلُ الأعمالِ التي فيها الإحسانُ لخَلقِه[2].

- وحسُنَ هنا قولُه: ﴿وَإِقَامَ﴾ بغيرِ تاءٍ، دونَ قولِه: (وإقامة): أنَّه قابَلَ ﴿وَإِيتَآءَ﴾ وهو بغَيرِ تاءٍ؛ فتقَعُ المُوازَنةُ بين قولِه: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[3].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ خصَّهم بذِكْرِ ما كانوا مُتميِّزينَ به على بَقيَّةِ النَّاسِ مِن مُلازَمةِ العِبادةِ للهِ تعالى، كما دَلَّ عليه فِعْلُ الكونِ (كَانُوا) المُفيدُ تَمكُّنَ الوصْفِ، ودلَّتْ عليه الإشارةُ بتَقديمِ المجرورِ ﴿لَنَا﴾ إلى أنَّهم أفْرَدوا اللهَ بالعِبادةِ؛ فلم يَعْبُدوا غيرَه قطُّ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١]؛ ولأجلِ البُعْدِ أُعِيدَ فِعْلُ الإيتاءِ؛ ليَظهَرَ عَطْفُه على ﴿ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١]، ولم يُعَدْ في قِصَّةِ نُوحٍ عَقِبَ هذه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٦).

وأُعْقِبَت قِصَّةُ إبراهيمَ بقِصَّةِ لُوطٍ للمُناسَبةِ، وخُصَّ لُوطٌ بالذِّكْرِ مِن بين الرُّسلِ؛ لأنَّ أحوالَهُ تابعةٌ لأحوالِ إبراهيمَ في مُقاوَمةِ أهْلِ الشِّرْكِ والفسادِ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قَدَّمَ مفعولَ (آتَيْنا) وهو (لُوطًا) اهْتمامًا به؛ لِيُنبِّهَ على أنَّه مَحَلُّ العِنايةِ؛ إذ كان قد تأخَّرَ ذِكْرُ قِصَّتِه بعْدَ أنْ جَرَى ذِكْرُه تبَعًا لذِكرِ إبراهيمَ؛ تَنبيهًا على أنَّه بُعِثَ بشَريعةٍ خاصَّةٍ، وإلى قومٍ غيرِ القومِ الَّذين بُعِث إليهم إبراهيمُ، وإلى أنَّه كان في مواطنَ غيرِ المواطِنِ الَّتي حَلَّ فيها إبراهيمُ(٢).

- قولُه: ﴿وَعِلْمًا﴾ التَّنوينُ فيه للتَّعظيمِ؛ لأنَّه في سِياقِ الامتنانِ(٣).

- في قولِه: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ عبَّرَ عنها بالواحدةِ، بالرَّغمِ مِن أنَّ قُراهم كانت سَبْعًا؛ لاتِّفاقِ أهْلِها على الفاحشةِ(٤). وقيل: أفرَدها؛ تنبيهًا على عمومِها بالقلعِ والقلبِ، وأنَّه كان في غايةِ السهولةِ والسرعةِ(٥).

- وإنَّما لم يَذكُرْ ما عليه قومُ لُوطٍ مِن الشِّركِ؛ استغناءً بِذِكْرِ الفواحشِ الفظيعةِ الَّتي كانت لهم سُنَّةً؛ فإنَّها أثَرٌ مِن الشِّرْكِ(٦).

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٨).

الآيتان (٧٦-٧٧)

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْكَرْبِ﴾: أي: الغمِّ الشَّديدِ، وما حَلَّ بالمكذِّبينَ من الطُّوفانِ والغَرَقِ، وأصلُ (كرب): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- نوحًا حين نادى ربَّه مِن قَبلِ إبراهيمَ ولُوطٍ أن يَنصُرَه اللهُ على قَومِه، فاستجَبْنا له دُعاءَه، فنجَّيناه وأهلَه المؤمنينَ به مِن الغَمِّ الشَّديدِ، ونَصَرْناه مِن القَومِ الذين كذَّبوا بآياتِنا الدَّالَّةِ على صِدقِه، إنَّهم كانوا قومًا يُسيئُونَ بالشِّركِ، وتكذيبِ الرَّسولِ، فأغرَقْناهم بالطُّوفانِ أجمعينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قِصَّةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهو أبو العَرَبِ، وتَنجِيَتَه مِن أعدائِه؛ ذكَرَ قِصَّةَ أبي العالَمِ الإنسيِّ كُلِّهم، وهو الأبُ الثَّاني بعدَ آدَمَ؛ لأنَّه ليس

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٦/ ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٦).

أحَدٌ إلَّا مِن نَسْلِه؛ مِن سام وحام ويافِث[1].

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- نوحًا حينَ دعا رَبَّه -مِن قَبلِ إبراهيمَ ولوطٍ- أن يَنصُرَه اللهُ على قَومِه الكافرينَ، وأن يُهلِكَهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٧-١١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦].

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾.

أي: فاستجَبْنا لنوحٍ دُعاءَه، فأغرَقْنا قَومَه الكافرينَ، ونجَّيناه معَ أهلِه المؤمِنينَ مِن الغَمِّ الشَّديدِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٧).

قيل: المرادُ بالكربِ العظيمِ: الطوفانُ الذي أغرقَ قومَ نوحٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

وممن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٠).

قال ابن عاشور: (الكَربُ العَظيمُ: هو الطوفانُ. والكربُ: شِدَّةُ حُزنِ النَّفسِ بسَبَبِ خَوفٍ أو =

﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾.

أي: ونجَّينا نوحًا وحمَيناه مِن قَومِه الذين كذَّبوا بحُجَجِنا الدَّالَّةِ على رِسالتِه[١]، فلا ينالونَه بسوءٍ[٢].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

أي: نصَرْنا نوحًا، وأهلَكْنا قَومَه؛ لأنَّهم كانوا قومًا يُسيئُونَ أعمالَهم بالشِّركِ والكُفرِ، وتكذيبِ الرَّسولِ، ومَعصيةِ اللهِ، فأغرَقْناهم كُلَّهم؛ كبيرَهم وصَغيرَهم[٣].

= حُزنٍ. ووجهُ كَونِ الطوفانِ كَربًا عَظيمًا: أنَّه يَهولُ النَّاسَ عندَ ابتدائِه وعندَ مَدِّه، ولا يزال لاحِقًا بمواقِعِ هُروبِهم حتى يَعُمَّهم، فيَبقَوا زمنًا يذوقونَ آلامَ الخَوفِ فالغَرقِ، وهم يَغرَقونَ ويَطفُونَ حتى يموتوا بانحباسِ التنفُّسِ، وفي ذلك كُلِّه كَربٌ مُتكَرِّرٌ؛ فلذلك وُصِفَ بالعَظيمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

وقيل معنى قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: مِن الشدَّةِ والتكذيبِ والأذى. وممن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤).

وممَّن جمع بين القولين: الزمخشريُّ، والرسعني، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٧٥).

وممن قال مِن السلفِ: إن المرادُ بالكربِ العظيمِ: الغرقُ وتكذيبُ قومِه: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٧).

وقال مقاتلُ بنُ سليمان: (﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني: كذَّبوا بنزولِ العذابِ عليهم في الدُّنيا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٤).

كما قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الذاريات: ٤٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أنَّ النَّجاةَ مِن الشَّرِّ لا تستلزِمُ حصولَه! بل تستلزِمُ انعقادَ سببِه، فمَن طلَبه أعداؤُه ليُهلِكوه ولم يتمكَّنوا منه؛ يُقالُ فيه: «نجَّاه الله منهم»؛ ومعلومٌ أنَّ نوحًا لم يغرَقْ ثمَّ خُلِّص! بل نُجِّي مِن الغرقِ الذي أهلَك الله به غيرَه[1].

٢- مِن الأدلةِ على وجودِ الله: الحِسُّ، ومِن ذلك ما يُشاهَدُ ويُسمَعُ مِن إجابةِ الدَّاعينَ، وغَوْثِ المكْروبينَ؛ ما يدلُّ دلالةً حِسِّيَّةً قاطعةً على وجودِه تعالى، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ ﴾، وما زالَتْ إجابةُ الدَّاعينَ أمرًا مشهودًا إلى يومِنا هذا لمَن صدَق اللُّجوءَ إلى الله تعالى، وأتَى بشرائطِ الإجابةِ[2].

٣- في قولِه تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ سؤالٌ؛ أنَّ الآيةَ الكريمةَ ذُكِر فيها أنَّ نوحًا وأهلَ بيتِه قد نَجَوْا مِن الفيضانِ، ولكنْ في قولِه تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ إلى قولِه: ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣] فيه أنَّ أحدَ أولادِ نوحٍ قد غرِقَ؟

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٨٢).

الجواب: أنَّه لا تناقضَ؛ لأنَّ ابنَ نوحٍ لم يكُنْ مِن أهلِه، كما قال تعالى لنوحٍ لمَّا سأَلَه عن ابنِه: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[1] [هود: ٤٦].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أنَّ الانتقامَ يُسمَّى نصرةً وانتصارًا[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ عُطِفَ ﴿وَنُوحًا﴾ على (لُوطًا)، أي: آتينا نُوحًا حُكْمًا وعِلْمًا؛ فحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لـ (آتينا)؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: آتيناهُ النُّبوَّةَ حينَ نادانَا[3].

- قولُه: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ فائدةُ ذِكْرِ هذه القَبْليَّةِ التَّنبيهُ على أنَّ نَصْرَ اللهِ أولياءَه سُنَّتُه المُرادةُ له؛ تَعريضًا بالتَّهديدِ للمُشرِكين المُعانِدين؛ لِيتذكَّروا أنَّه لم تَشُذَّ عن نَصْرِ اللهِ رُسَلَه شاذَّةٌ ولا فاذَّةٌ[4].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فيه وَصْفُ الكرْبِ بالعظيمِ؛ تَهويلًا[5].

٢- قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ في إسنادِ الانتِصارِ إليه تعالى تَهويلٌ لأمْرِ النَّصرِ[6].

---

(١) يُنظر: ((دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم)) للمطيري (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٨).

- قولُه: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ عُدِّيَ (نَصَرْنَاهُ) بحَرْفِ (مِن)؛ لِتَضمينِه معنى المَنْعِ والحِمايةِ، وهو أبلَغُ مِن تَعديَتِه بـ (على)؛ لأنَّه يدُلُّ على نَصْرٍ قَوِيٍّ تَحصُلُ به المَنَعةُ والحِمايةُ، فلا يَنالُه العدُوُّ بشَيءٍ. وأمَّا نَصْرُه عليه فلا يدُلُّ إلَّا على المُدافَعةِ والمَعونةِ. ووَصْفُ القومِ بالموصولِ؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الغرَقِ الَّذي سيُذْكَرُ بعْدُ[1]. وقيل: لَمَّا كان جُلُّ نُصرَتِه النَّجاةَ، وكانت غَلَبةُ قَومِه بغيرِ يَدَيه بل بأمرٍ أجنبيٍّ منه؛ حَسُنَ أن يكونَ (نَصَرْنَاهُ مِنْ) ولا يتمَكَّنُ هنا (على) كما يتمَكَّنُ في أمرِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع قَومِه[2].

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه، وتَمهيدٌ لِمَا بعْدَه من قولِه تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾؛ فإنَّ الإصرارَ على تكذيبِ الحقِّ، والانهماكَ في الشَّرِّ والفسادِ ممَّا يُوجِبُ الإهلاكَ قطْعًا[3].

- وإضافةُ (قَومٍ) إلى (السَّوءِ) فيه إشارةٌ إلى أنَّهم عُرِفوا به[4].

- و﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ النَّصبِ في ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾؛ لإفادةِ أنَّه لم يَنْجُ مِن الغرَقِ أحَدٌ مِن القومِ ولو كان قَريبًا مِن نُوحٍ؛ فإنَّ اللهَ قد أغرَقَ ابنَ نُوحٍ. وفي هذا تَهديدٌ لقُريشٍ؛ لئلَّا يَتَّكِلوا على قَرابتِهم بمحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٨-٨٠)

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْحَرْثِ﴾: أي: الزَّرعِ، أو البُستانِ، وأصْلُ (حرث): يدُلُّ على إلقاءِ البَذرِ في الأرضِ، وتَهيئتِها للزَّرعِ[1].

﴿نَفَشَتْ﴾: أي: رعَتْ لَيلًا، والنَّفشُ: الرَّعيُ باللَّيلِ، وأصلُ (نفش): يدُلُّ على انتشارٍ[2].

﴿لَبُوسٍ﴾: أي: الدُّروعِ، سُمِّيت لَبُوسًا؛ لأنَّها تُلبَسُ، واللَّبوسُ عندَ العَرَبِ: السِّلاحُ كُلُّه، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠، ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦١)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٨٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٦٧١). ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم =

﴿لِتُحْصِنَكُم﴾: أي: لِتَمنَعَكم وتَحمِيَكم، وأصلُ (حصن): يدلُّ على حِفظٍ وحِياطةٍ[1].

﴿بَأْسِكُمْ﴾: أي: حَرْبِكم، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضاهاها[2].

مُشكِلُ الإعراب:

قَوْلُه تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾

قولُه: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ مَنصوبٌ عطفًا على ﴿الْجِبَالَ﴾، أو مَفعولٌ معه[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- نبيَّ اللهِ داودَ وابنَه سُلَيمانَ، إذ يَحكُمانِ في شأنِ زَرعٍ عَدَت عليه غَنَمُ قومٍ آخرينَ، وانتَشَرَت فيه ليلًا فأتلَفَتْه، وكنَّا لحُكمِهم شاهِدينَ لا يخفَى علينا شيءٌ، فَفَهَّمْنا سُليمانَ تلك القضيَّةَ، وكُلًّا مِن داودَ وسليمانَ أعطَينا نُبُوَّةً وعِلمًا، وذَلَّلْنا مع داودَ الجِبالَ والطَّيرَ يُسَبِّحنَ معه إذا سبَّحَ، وكُنَّا فاعلينَ ذلك. وعلَّمنا داودَ صِناعةَ الدُّروعِ؛ لتحميَ المحارِبينَ مِن وَقْعِ السِّلاحِ فيهم، فهل أنتم شاكِرونَ نِعمةَ الله عليكم حيثُ أجراها على يَدِ عَبدِه داودَ؟

= (ص: ٢٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٢٠) (١١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((البسيط)) للواحدي ((١٥/ ١٤٣))، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٠٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٨٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المقصودُ ذِكرَ نِعَمِ الله تعالى على داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ؛ ذكَرَ أوَّلًا النِّعمةَ المُشتَرِكةَ بيْنهما، ثمَّ ذكَرَ ما يختَصُّ به كُلُّ واحدٍ منهما مِنَ النِّعَمِ[1].

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ[2]- خبَرَ داودَ وسُلَيمانَ حينَ يَحكُمانِ[3] في شأنِ الزَّرعِ أو الغَرسِ[4] الذي انتَشَرَت فيه غَنَمُ قَومٍ آخرينَ في اللَّيلِ، فَرَعَت في البُستانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣).

(٢) ممَّن ذهب إلى هذا التقديرِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).
قال ابن عطية: (ويحتَمِلُ عندي ويَقوَى أن يكونَ المعنى: وآتينا داودَ، عطفًا على قولِه تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، والمعنى على هذا التأويلِ مُتَّسِقٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٠). واختاره ابن عاشور في ((تفسيره)) (١٧/ ١١٥).

(٣) قال القرطبي: (لم يُرِدْ بقَولِه: ﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ﴾ الاجتِماعَ في الحُكمِ وإن جمَعَهما في القولِ؛ فإنَّ حُكمَينِ على حُكمٍ واحدٍ، لا يجوزُ، وإنَّما حكَمَ كُلُّ واحدٍ منهما على انفرادِه، وكان سليمانُ الفاهِمَ لها بتفهيمِ الله تعالى إيَّاه). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧).

(٤) قال ابن جرير: (الحرثُ: إنما هو حَرثُ الأرضِ. وجائزٌ أن يكون ذلك كان زرعًا، وجائز أن يكون غرْسًا، وغيرُ ضائرٍ الجهلُ بأي ذلك كان). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١).
وقال ابن القيم: (الحَرثُ: هو البستان، وقد رويَ أنه كان بستانَ عِنَبٍ، وهو المسمَّى بالكَرْمِ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٢٤٥).
ونسَب الواحدي القولَ بأنَّ الحرثَ كان كَرْمًا قد نبَتَتْ عناقيدُه إلى أكثرِ المفسرينَ، وقال: =

وأكَلَت ما في أشجارِه[1].

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾.

أي: وكنا لحُكمِ داودَ وسُلَيمانَ والمُتحاكِمين إليهما عالِمينَ لا يخفَى علينا شيءٌ[2].

= (وهو قولُ ابنِ مسعودٍ، ومسروقٍ ومَعْمَرٍ، وشُرَيحٍ، وابنِ عباسٍ في روايةِ عطاءٍ). ((البسيط)) (١٥/ ١٣٢).

ونسَب الرازي إلى أكثرِ المفسِّرينَ أَنَّ الحرثَ هو الزَّرعُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٤).

وقال البقاعي: (﴿يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ الذي أنبَت الزرعَ، وهو مِن إطلاقِ اسمِ السببِ على المسبِّبِ، كالسماءِ على المطرِ والنبتِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

قال ابن الجوزي: (وفي المشارِ إليه قولان: أحدُهما: داودُ وسليمانُ، فذكرهما بلَفظِ الجَمعِ؛ لأنَّ الاثنينِ جمعٌ، هذا قول الفرَّاء. والثاني: أنهم داود وسليمانُ والخصومُ، قاله أبو سليمان الدمشقي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٢).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ: الفرَّاءُ، ويحيى بنُ سلام، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُليمي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٠٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩٣).

وممَّن قال بالقول الثاني: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، ومكي، والزمخشري، وابنُ عطية، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، وأبو حيان، والبقاعي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٧٨٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير =

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

أي: ففهَّمْنا تلك القضيَّةَ سُلَيمانَ[1].

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

أي: وكلًّا مِن داودَ وسُلَيمانَ آتَينا نُبُوَّةً، وعِلمًا بدينِ اللهِ وأحكامِه[2].

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

= القاسمي)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

قال ابنُ عطية: (وقوله تعالى: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ يريدُ: داودَ وسليمانَ والخصمينِ؛ لأنَّ الحكمَ يُضافُ إلى جميعِهم، وإن اختَلفت جهاتُ الإضافةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٤).

وقال أبو حيان: (والضَّميرُ في ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ عائدٌ على الحاكمينِ والمحكومِ لهما وعليهما، وليس المصدرُ هنا مُضافًا إلى فاعلٍ ولا مفعولٍ، ولا هو عاملٌ في التَّقديرِ... وكأنَّ المعنَى: وكنَّا للحكمِ الَّذي صَدَر في هذه القضيَّةِ شاهِدينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

قال السعدي: (قضى فيه داودُ عليه السلامُ بأنَّ الغَنَمَ تكون لصاحِبِ الحرث؛ نظرًا إلى تفريطِ أصحابها، فعاقَبَهم بهذه العقوبةِ، وحكم فيها سُلَيمانُ بحُكمٍ مُوافِقٍ للصواب؛ بأنَّ أصحابَ الغَنَمِ يَدفَعونَ غَنَمَهم إلى صاحِبِ الحَرثِ فينتَفِعُ بدَرِّها وصوفِها، ويقومونَ على بستانِ صاحِبِ الحَرثِ حتى يعودَ إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حالِه ترادًّا ورجع كلٌّ منهما بما له، وكان هذا من كمالِ فَهمِه وفِطنتِه عليه السَّلامُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: فهَّمْناه هذه القضيَّةَ، ولا يدُلُّ ذلك أنَّ داود لم يُفَهِّمْه اللهُ في غيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨). ويُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣١).

مناسبتُها لما قبلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ ما يَختَصُّ بكلٍّ منهما مِن كَرامتِه تعالى، إثْرَ بَيانِ كَرامتِه العامَّةِ لهما[1].

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

أي: وذلَّلْنا مع داودَ الجِبالَ والطَّيرَ يُسَبِّحْنَ[2] بمِثلِ تَسبيحِه إذا سَبَّحَ؛ مُعجِزةً له[3]، وكنَّا فاعلينَ ذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٩).

(٢) قال الشنقيطي: (التحقيقُ: أنَّ تَسبيحَ الجبالِ والطَّيرِ -مع داودَ- المذكورَ تسبيحٌ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ الله جلَّ وعلا يجعَلُ لها إدراكاتٍ تُسَبِّحُ بها، يعلَمُها هو جلَّ وعلا، ونحن لا نعلمُها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٣) قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ وذلك لطِيبِ صَوتِه بتلاوةِ كتابِه الزَّبورِ، وكان إذا ترَنَّم به تقِفُ الطيرُ في الهواءِ، فتُجاوِبُه، وترُدُّ عليه الجِبالُ تأويبًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣١).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يقولُ: وكنَّا قد قَضينا أنَّا فاعِلو ذلك، ومُسَخِّرو الجبالِ والطيرِ في أمِّ الكتابِ مع داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٨).

وقال البقاعي: (أي: مِن شأنِنا الفِعلُ لأمثالِ هذه الأفاعيلِ، ولكُلِّ شَيءٍ نريدُه بما لنا مِنَ العَظَمةِ المحيطةِ؛ فلا تَستكثِروا علينا أمرًا وإن كان عندكم عَجَبًا). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٥٦).

وقال الشنقيطيُّ: (والظَّاهِرُ أنَّ قولَه: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ مُؤكِّدٌ لِقَولِه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾، والموجِبُ لهذا التأكيدِ أنَّ تسخيرَ الجبالِ وتَسبيحَها أمرٌ عَجَبٌ خارِقٌ للعادة، مَظِنَّةٌ لأن يُكَذِّبَ به الكَفَرةُ الجَهَلةُ!). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٣٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠)﴾.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ قراءاتٌ:

١- قراءةُ ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بتاءٍ مَضمومةٍ، على التأنيثِ، أي: لِتُحصِنَكم هذه الصَّنعةُ(١).

٢- قراءةُ ﴿لِنُحْصِنَكُم﴾ بنونٍ مضمومةٍ، على أنَّ الله تعالى يخبِرُ عن نَفسِه، أي: لِنُحصِنَكم نحنُ من بأسِكم بواسطةِ هذه الدُّروعِ(٢).

٣- قراءة ﴿لِيُحْصِنَكُم﴾ بياءٍ مَضمومةٍ، على التذكيرِ، أي: لِيُحصِنَكم الله تعالى، أو: ليحصِنَكم هذا اللَّبوسُ(٣).

(١) قرأ بها ابنُ عامر، وحفصٌ عن عاصمٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٩)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٨).

(٢) قرأ بها شعبةُ عن عاصمٍ، ورُويسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٩)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٤). =

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾.

أي: وعلَّمْنا داودَ كيفيَّةَ صِناعةِ الدُّروعِ لكم؛ لِتَقيَكم في القتالِ مِن سلاحِ أعدائِكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾.

أي: فهل أنتم -أيُّها النَّاسُ- شاكِرو اللهِ على تيسيرِه لكم نِعمةَ الدُّروعِ[2]؟

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ في هذا تنبيهٌ على أنَّ العِلمَ أفضَلُ الكَمالاتِ وأعظَمُها؛ وذلك لأنَّ الله تعالى قَدَّمَ ذِكرَه هاهنا على سائِرِ النِّعَمِ الجليلةِ، مِثلُ: تَسخيرِ الجِبالِ والطيرِ، والريحِ والجِنِّ، وإذا كان العِلمُ مُقَدَّمًا على أمثالِ هذه الأشياءِ، فما ظَنُّك بغَيرِها[3]؟!

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٩).

قال ابنُ جزي: (قُرِئ بالياءِ والتاءِ والنونِ، فالنونُ لله تعالى، والتاءُ للصنعةِ، والياءُ لداودَ أو للبوس). ((التسهيل)) (٢/ ٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٠).

قال السعدي: (علَّم الله داودَ عليه السَّلامُ صنعةَ الدُّروعِ، فهو أوَّلُ مَن صنَعَها وعُلِّمَها، وسَرَت صناعتُه إلى مَن بَعدَه، فألانَ اللهُ له الحديدَ، وعَلَّمَه كيف يَسرُدُها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ...﴾ دلالةٌ على أنَّ العَمَلَ والمهنةَ ليستا نَقصًا؛ لأنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا يُمارِسونَها[١]، والآيةُ أصلٌ في اتِّخاذِ الصَّنائِعِ والأسبابِ، وهو قَولُ أهلِ العُقولِ والألبابِ، لا قَولُ الجَهَلةِ الأغبياءِ القائلينَ بأنَّ ذلك إنما شُرِعَ للضُّعَفاءِ؛ فالسَّبَبُ سُنَّةُ الله في خَلقِه، فمَن طعَنَ في ذلك فقد طَعَن في الكِتابِ والسُّنَّة، ونَسَب مَن ذَكَرْنا إلى الضَّعفِ وعَدَمِ المنَّةِ، فالصَّنعةُ يَكُفُّ بها الإنسانُ نَفسَه عن النَّاسِ، ويَدفَعُ بها عن نَفسِه الضَّررَ والباسَ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ الاجتِهادِ في الأحكامِ، ووُقوعِه للأنبياءِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أصلٌ في اختلافِ الاجتِهادِ، وفي العَمَلِ بالرَّاجِحِ، وفي مراتِبِ التَّرجيحِ[٤].

٣- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ إنْ قيل: فكيف نَقَض داودُ حُكمَه باجتهادِ سُلَيمانَ؟

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

فالجوابُ عنه مِن وَجهَينِ؛ أحدُهما: يجوزُ أن يكونَ داودُ ذَكَر حُكمَه على الإطلاقِ، وكان ذلك منه على طَريقِ الفُتيا، فذَكَرَه لهم لِيُلزِمَهم إيَّاه، فلمَّا ظهر له ما هو أقوى في الاجتِهادِ منه عاد إليه.

الثَّاني: أنَّه يجوزُ أن يكونَ اللهُ أوحى بهذا الحُكمِ إلى سُلَيمانَ، فلَزِمَه ذلك، ولأجْلِ النَّصِّ الواردِ بالوَحيِ رأى أن يَنقُضَ اجتِهادَه؛ لأنَّ على الحاكِمِ أن ينقُضَ حُكمَه بالاجتهادِ إذا خالف نصًّا[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ استدَلَّ به مَن قال برُجوعِ الحاكِمِ بعد قضائِه عن اجتِهادِه إلى أرجحَ منه[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ هذا دليلٌ على أنَّ الحاكِمَ قد يُصيبُ الحَقَّ والصَّوابَ، وقد يُخطِئُ ذلك، وليس بمَلومٍ إذا أخطأ مع بَذْلِ اجتِهادِه[3].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ فهذه القضيَّةُ التي تضَمَّنَتْها الآيةُ مَظهَرٌ مِن مظاهِرِ العَدلِ، ومَبالِغِ تَدقيقِ فِقهِ القَضاءِ، والجَمعِ بين المصالِحِ، والتفاضُلِ بينَ مراتِبِ الاجتهادِ، واختِلافِ طُرُقِ القَضاءِ بالحَقِّ مع كونِ الحَقِّ حاصِلًا للمُحِقِّ، فمَضمونُها أنَّها الفِقهُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

الدِّينِ الذي جاء به المُرسَلونَ مِن قَبلُ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النَّاسَ متفاوِتونَ في الأفهامِ، ولو كان الفَهمُ متماثِلًا لَمَا خُصَّ به سُليمانُ(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دَلالةٌ على أهميَّةِ الفَهمِ، وأنَّ العلمَ ليس كلَّ شَيءٍ(٣).

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فقد خَصَّ أحَدَ النبيَّينِ الكريمَينِ بالتَّفهيمِ مع ثنائِه على كُلٍّ منهما بأنَّه أُوتيَ عِلمًا وحُكمًا، فهكذا إذا خَصَّ اللهُ أحَدَ العالِمَينِ بعِلمِ أمرٍ وفَهمَه لم يوجِبْ ذلك ذَمَّ مَن لم يحصُلْ له ذلك من العُلَماءِ، بل كلُّ مَنِ اتَّقى الله ما استطاعَ فهو مِن أولياءِ الله المتَّقينَ، وإن كان قد خَفِيَ عليه مِن الدِّينِ ما فَهِمَه غيرُه(٤). فالعلماءُ المجتهدون؛ للمصيبِ منهم أجرانِ، وللآخَرِ أجرٌ واحدٌ، وكلٌّ منهم مطيعٌ لله بحسَبِ استطاعتِه؛ ولا يُكَلِّفُه اللهُ ما عجزَ عن عِلْمِه(٥).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أصلٌ في عُذرِ المُجتَهِدِ إذا أخطأ الاجتِهادَ، أو لم يهتَدِ إلى المُعارِضِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ في مَعرِضِ الثَّناءِ على داودَ وسُلَيمانَ عليهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٥، ١١٦).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية)) (٢/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٣/ ٤١).

السَّلامُ[1].

١١- استُدلَّ بقَولِ الله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ على تَضمينِ أربابِ المَواشي ما أفسَدَت باللَّيلِ دُونَ النَّهارِ؛ لأنَّ النَّفْشَ لا يَكونُ إلَّا باللَّيلِ[2].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿ كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ في موضِعَينِ مِن كتابِه؛ أحَدُهما: قَولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾، والثَّاني: قَولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فتأمَّلْ قولَه: ﴿ كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ في هذَينِ المَوضِعَينِ، المتضَمِّنَ للصُّنعِ العَجيبِ الخارِجِ عن العادةِ: كيف تَجِدُه كالدَّليلِ على ما أخبَرَ به، وأنَّه لا يَستَعصي على الفاعِلِ حَقيقةً، أي: شَأنُنا الفِعلُ، كما لا يَخفى الجَهرُ والإسرارُ بالقَولِ على مَن شَأنُه العِلمُ والخِبرةُ، ولا تَصعُبُ المَغفِرةُ على مَن شَأنُه أن يَغفِرَ الذُّنوبَ، ولا الرِّزقُ على مَن شَأنُه أن يَرزُقَ العِبادَ -سُبحانَه وبِحَمدِه[3]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان حَدَّادًا[4].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ دليلٌ على أنَّ الاحتِرازاتِ ليست تَنقُصُ في التوكُّلِ؛ إذْ كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٣، ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٣٩٨).

اللهُ جلَّ وتعالى قد جَعَلَ الدِّرعَ صيانةً في الحُروبِ، وجعَلَها في النِّعَمِ التي طالب بشُكرِها، وإذا كان ذلك كذلك، فالمكاسِبُ كلُّها، وإعدادُ الأقواتِ غيرُ مؤثِّرةٍ في الثِّقةِ بالخالِقِ؛ ولا مَعدودةٍ في عِدَادِ خوفِ فَواتِ الرِّزقِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ فيه الإتيانُ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَحۡكُمَانِ﴾ حِكايةً للحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ صُورتِها[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ للحُكْمِ، ومُفيدٌ لِمَزيدِ الاعتناءِ بشأْنِه[٣].

- وفيه مِن فُنونِ البَلاغةِ: ما يُعرَفُ بجَمْعِ المُختلِفِ والمُؤتلِفِ، وهو عبارةٌ عن إرادةِ المُتكلِّمِ التَّسويةَ بين مَمدوحينِ، فيأْتي بمَعانٍ مُؤتَلِفةٍ في مَدْحِهما، ثُمَّ يَرومُ بعْدَ ذلك تَرجيحَ أحَدِهما على الآخرِ بزِيادةِ فَضْلٍ لا يَنقُصُ مَدْحَ الآخَرِ، فيأْتي لأجْلِ ذلك التَّرجيحِ بمَعانٍ تُخالِفُ معانِيَ التَّسويةِ؛ فهنا ساوَى أوَّلَ الآيةِ بين داودَ وسُليمانَ عليهما السَّلامُ في أهْلِيَّةِ الحُكْمِ، ثمَّ رجَّحَ آخِرَها سُليمانَ بقولِه: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾، فسوَّى في الحُكمِ والعِلمِ، وزاد في فَضْلِ سُليمانَ بالفَهمِ، وحصَلَ الالْتِفاتُ، فأَتى بما يقومُ مَقامَ تلك الزِّيادةِ الَّتي يُرجَّحُ بها سُليمانُ؛ لِتُرشِدَ إلى المُساواةِ في الفضْلِ، لِتكونَ فَضيلةُ السِّنِّ

(١) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وما يَستتبِعُها مِن وَفْرةِ التَّجارِبِ وحُنْكةِ الحياةِ قائمةً مَقامَ الزِّيادةِ الَّتي رُجِّحَ بها سُليمانُ في الحُكْمِ؛ فساوتِ الآيةُ الكريمةُ بيْن داودَ وسُليمانَ في التَّأهُّلِ للحُكْمِ، وشرَّكَت بيْنهما فيه، حيث قالت: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾، وأخبَرَتْ أنَّ اللهَ سُبحانَه فهَّمَ سُليمانَ إصابةَ الحُكْمِ، ففضَلَ أباهُ بذلك بعْدَ المُساواةِ، ثمَّ الْتَفَتْ سُبحانَه إلى مُراعاةِ حَقِّ الوالِدِ، فقال: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فرَجَعا بذلك إلى المُساواةِ بعْدَ تَرجيحِ سُليمانَ؛ لِيُعلِّمَ الولَدَ بذلك بِرَّ الوالِدِ ويُعرِّفَه ما له عليه من الحقِّ، حتَّى إذا فكَّرَ النَّاظِرُ في هذا الكلامِ، وقال: مِن أين جاءتِ المُساواةُ في الحُكْمِ والعلمِ بعْدَ الإخبارِ بأنَّ سُليمانَ فَهِمَ مِن الحُكْمِ ما لم يَفْهَمْه أبوه؟ عَلِم أنَّ حَقَّ الأُبوَّةِ قام مَقامَ تلك الفضيلةِ، فحصَلَتِ المُساواةُ. وحصَلَ في هذا الكلامِ ضَرْبٌ آخَرُ من المحاسِنِ يُقالُ له: الالْتِفاتُ؛ وذلك في قولِه تعالى فيها: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾، وأدْمَجَ في هذا الالْتِفاتِ ضَرْبًا آخَرَ مِن المَحاسِنِ يُقالُ له: التَّنكيتُ؛ فإنَّ النُّكتةَ الَّتي مِن أجْلِها جُمِعَ الضَّميرُ الَّذي كان مِن حَقِّه أنْ يكونَ مُثنًّى هي الإشارةُ إلى أنَّ هذا الحُكْمَ مُتَّبَعٌ يَجِبُ الاقتداءُ به؛ لأنَّه عَينُ الحقِّ ونَفْسُ العدْلِ، وكيف لا يكونُ كذلك وقد أخبَرَ سُبحانه أنَّه شاهِدٌ له؟! أي: هو مُراعًى بعَينِه عَزَّ وجَلَّ. ويجوزُ أنْ يكونَ جُمِعَ الضَّميرُ الَّذي أُضِيفَ إليه الحُكْمُ مِن أجْلِ أنَّ الحُكْمَ يَستلزِمُ حاكِمًا، ومَحكومًا له، ومَحكومًا عليه؛ فجُمِعَ الضَّميرُ لأجْلِ ذلك(١).

٢- قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٨)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (١/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٤٤- ٣٤٦).

ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

- صِيغَةُ التَّفهيمِ في قولِه: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ تُفِيدُ شِدَّةَ حُصولِ الفِعْلِ أكثَرَ مِن صِيغةِ الإفهامِ؛ فدَلَّ على أنَّ فَهْمَ سُليمانَ في القضيَّةِ كان أعمَقَ(١).

- قولُه: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تَذييلٌ؛ للاحتراسِ لدَفْعِ تَوهُّمِ أنَّ حُكْمَ داودَ كان خطَأً أو جَورًا، وإنَّما كان حُكْمُ سُليمانَ أصوبَ(٢).

- و(مع) ظَرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعْلِ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ به لإظهارِ كَرامةِ دَاودَ(٣).

- وقُدِّمَتِ الجِبالُ على الطَّيرِ؛ لأنَّ تَسخيرَها وتَسبيحَها أعجَبُ وأدَلُّ على القُدرةِ، وأدخَلُ في الإعجازِ؛ لأنَّها جَمادٌ والطَّيرَ حيوانٌ، إلَّا أنَّه غيرُ ناطقٍ(٤).

- قولُه: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لجُملةِ (سَخَّرْنَا)، أو حالٌ مُبيِّنةٌ، وذِكْرُها هنا استطرادٌ وإدماجٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١١٩).

والإدماجُ، لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغَرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيُقرن الغرضَ المسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدون خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [القصص: =

- وجُملةُ: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ تَذييليَّةٌ مُعترِضةٌ بين الإخبارِ عمَّا أُوتِيَهُ داودُ[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ فيه فضْلُ هذه الصَّنعةِ؛ إذ أسنَدَ تَعليمَها إيَّاهُ إليه تعالى[2].

- قولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أمْرٌ وارِدٌ على صُورةِ الاستفهامِ؛ للمُبالَغةِ أو التَّقريعِ[3]؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ مُستعمَلٌ في استبطاءِ عدَمِ الشُّكرِ، ومُكَنًّى به عن الأمْرِ بالشُّكرِ، وكان العُدولُ عن إيلاءِ (هل) الاستفهاميَّةِ بجُملةٍ فِعْليَّةٍ إلى الجُملةِ الاسميَّةِ، مع أنَّ لـ(هل) مَزِيدَ اختصاصٍ بالفِعْلِ، فلم يقُلْ: (فهلْ تَشكُرون)، وعدَلَ إلى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾؛ لِيَدُلَّ العُدولُ عنِ الفِعْليَّةِ إلى الاسميَّةِ على ما تَقْتضيهِ الاسميَّةُ من مَعنى الثَّباتِ والاستمرارِ، أي: فهلْ تَقرَّرَ شُكْرُكم وثبَتَ؛ لأنَّ تَقرُّرَ الشُّكرِ هو الشَّأنُ في مُقابَلةِ هذه النِّعمةِ[4].

= ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٢).

الآيتان (٨١-٨٢)

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَاصِفَةً﴾: أي: شَديدةَ الهُبوبِ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وسخَّرْنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ شَديدةَ الهُبوبِ، تجري بأمْرِه إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها، وقد أحاط عِلمُنا بجَميعِ الأشياءِ، وسَخَّرنا لسُلَيمانَ مِن الشَّياطينِ شَياطينَ يغوصونَ في البَحرِ يَستَخرِجونَ له اللآلئَ والجواهِرَ، وكانوا يَعمَلونَ أعمالًا أخرى غيرَ الغَوصِ مما يريدُه منهم، وكُنَّا لهم حافظينَ، فلا يَقدِرونَ على الامتِناعِ مِمَّا يُريدُه منهم، ولا يتمَرَّدونَ على طاعتِه، ولا يتعَرَّضونَ له بسُوءٍ ولا لأحدٍ مِنَ النَّاسِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه النِّعَمَ التي خَصَّ داودَ عليه السَّلامُ بها، ذكَرَ بعدَه النِّعَمَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢١).

التي خَصَّ بها سُلَيمانَ عليه السَّلامُ[1].

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾.

أي: وسَخَّرْنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ، والحالُ أنَّها شديدةُ الهُبوبِ[2].

قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ: ١٢].

﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾.

أي: تجري الريحُ بأمرِ سُلَيمانَ طائِعةً له، فتعودُ إلى الأرضِ التي بارك اللهُ فيها[3].

كما قال تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٦].

﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣١)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٤ - ٢٣٦).

والمرادُ بقولِه: ﴿ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ أرضُ الشامِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١١٠).

وقيل: المرادُ بها فلسطين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (١٥/ ١٤٥).

قال الشنقيطي: (والمرادُ بأنه بارك فيها: أنَّه أكثَرَ فيها البَرَكةَ والخَيرَ بالخِصبِ والأشجارِ والثِّمارِ والمياه، كما عليه جُمهورُ العُلَماءِ. وقال بعضُ العلماء: المرادُ بأنَّه بارك فيها أنَّه بعث الأنبياءَ منها. وقيل غيرُ ذلك. والعِلمُ عند الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ١١٠).

أي: وكُنَّا بجَميعِ الأشياءِ مِن أمرِ سُلَيمانَ وغَيرِه عالِمينَ، لا يخفَى علينا شَيءٌ، عالِمينَ بتَدبيرِه، ومِن ذلك أنَّنا وضَعْنا هذا التَّخصيصَ في المحَلِّ الذي يليقُ به مِن الأماكِنِ والأناسيِّ[1].

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى تَسخيرَ الرِّيحِ له، وهي جِسْمٌ شَفَّافٌ لا يَعقِلُ، وهي لا تُدرَكُ بالبصَرِ؛ ذكَرَ تَسخيرَ الشَّياطينِ له، وهم أجسامٌ لَطيفةٌ تَعقِلُ، والجامِعُ بينهما أيضًا سُرعةُ الانتقالِ[2].

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾.

أي: وسَخَّرنا لسُلَيمانَ مِن الشَّياطينِ مَن يغوصونَ له في البَحرِ؛ لِيَستخرِجوا اللآلئَ والجواهِرَ وغيرَ ذلك[3].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ [ص: ٣٧].

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: ويعمَلُ الشَّياطينُ لِسُلَيمانَ أعمالًا أخرى غيرَ الغَوصِ؛ كعملِ المحاريبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٦).

والتَّماثيلِ، والجِفانِ والقُدورِ الرَّاسياتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٢- ١٣].

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾.

أي: وكُنَّا للشَّياطينِ الذين يَعمَلونَ لسُلَيمانَ حافِظينَ، فلا يتمَرَّدونَ على طاعتِه، أو يَزيغونَ عن أمْرِه، أو يُبَدِّلونَ أو يُغَيِّرونَ، أو يُوجَدُ منهم فَسادٌ فيما هم مُسَخَّرونَ فيه، ولا يُؤذُونَ نبيَّ اللهِ سُلَيمانَ، ولا يتعَرَّضونَ بسُوءٍ لأحدٍ مِنَ النَّاسِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- وصَفَ اللهُ تعالى الرِّيحَ المذكورةَ هنا في سورةِ (الأنبياء) بأنَّها عاصِفةٌ، أي: شَديدةُ الهُبوبِ، ووصَفَها في سورةِ (ص) بأنَّها تَجري بأمرِه رُخاءً، والعاصِفةُ غيرُ التي تجري رُخاءً، فكيف يُجمَعُ بينهما؟

والجوابُ: من أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّها عاصِفةٌ في بَعضِ الأوقاتِ، ولَيِّنةٌ رُخاءٌ في بَعضِها؛ بحَسَبِ الحاجةِ، كأنْ تَعصِفَ ويشتَدَّ هُبوبُها في أوَّلِ الأمرِ، حتى تَرفَعَ البِساطَ الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٦).

قال ابنُ جرير: (﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ يقولُ: وكُنَّا لأعمالِهم ولأعدادِهم حافِظينَ، لا يَؤُودُنا حِفظُ ذلك كُلِّه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٣).

عليه سُلَيمانُ وجُنودُه، فإذا ارتفَعَ سارت به رُخاءً حيث أصاب[1]، أو يكونَ ذلك باختِلافِ الأحوالِ؛ فإذا أراد سُلَيمانُ عليه السَّلامُ الإسراعَ في السَّيرِ سارت عاصِفةً، وإذا أراد اللِّينَ سارت رُخاءً، والمقامُ قَرينةٌ على أنَّ المرادَ المُواتاةُ لإرادةِ سُلَيمانَ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ المُشعِرُ باختِلافِ مَقصدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ منها[2].

الثَّاني: أنَّها كانت في نَفسِها رَخيَّةً طَيِّبةً كالنَّسيمِ، فإذا مَرَّت بكُرسِيِّه أبعَدَت به في مُدَّةٍ يَسيرةٍ، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، فكان جَمعُها بينَ الأمرَينِ: أن تكونَ رُخاءً في نَفسِها، وعاصِفةً في عَمَلِها، مع طاعَتِها لسُلَيمانَ، وهُبوبِها على حَسَبِ ما يُريدُ ويَحتَكِمُ[3].

الثَّالث: أنَّ الرُّخاءَ في البُداءةِ، والعصْفَ بعْدَ ذلك[4].

الرَّابع: أنَّها كانت رخاءً في ذهابِه، وعاصفةً في رجوعِه إلى وطنِه؛ لأنَّ عادةَ المسافرينَ الإسراعُ في الرجوعِ[5].

٢- قال الله تعالى هنا: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وقال في سورةِ (ص): ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، والسُّؤالُ هو أنَّه هنا في سورةِ (الأنبياء) خَصَّ جَرْيَها به بكَونِه إلى الأرضِ التي بارك فيها للعالَمينَ، وفي سورةِ (ص) قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقَولُه: ﴿حَيْثُ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧).

أَصَابَ ﴾ يدُلُّ على التَّعميمِ في الأمكِنةِ التي يُريدُ الذَّهابَ إليها على الرِّيحِ؟

والجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴾ يدلُّ على أنَّها تجري بأمْرِه حَيثُ أراد مِن أقطارِ الأرضِ، وقولَه: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾؛ لأنَّ مَسْكَنَه فيها وهي الشَّامُ، فترُدُّه إلى الشَّامِ، وعليه فقولُه: ﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴾ في حالةِ الذَّهابِ، وقولُه: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ في حالةِ الإيابِ إلى محَلِّ السُّكنى، فانفَكَّت الجِهةُ؛ فزال الإشكالُ[1].

٣- في تَسخيرِ أكثَفِ الأجسامِ لدَاودَ وهو الحَجرُ؛ إذ أنطَقَهُ بالتَّسبيحِ، والحديدُ؛ إذ جعَلَ في أصابعِه قُوَّةَ النَّارِ حتَّى لانَ له الحديدُ، وعَمِلَ منه الزَّرَدَ[2]، وتَسخيرِ ألْطَفِ الأجسامِ لسُليمانَ، وهو الرِّيحُ، والشَّياطينُ وهم من نارٍ، وكانوا يَغوصونَ في الماءِ، دليلٌ واضحٌ على باهِرِ قُدرتِه، وإظهارِ الضِّدِّ من الضِّدِّ، وإمكانِ إحياءِ العظْمِ الرَّميمِ، وجَعْلِ التُّرابِ الْيابِسِ حيوانًا، فإذا أخبَرَ به الصَّادقُ وجَبَ قَبولُه واعتقادُ وُجودِه[3].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث عبَّرَ هنا باللَّامِ، وعبَّرَ بـ (مع) في قولِه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ ﴾؛ للدَّلالةِ على ما بين التَّسخيرينِ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) الزَّرَدَ: أي: الدُّروعَ المَزرودةَ المُتداخِلةَ حَلَقاتُها بعضُها في بعضٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٩).

مِن التَّفاوُتِ؛ فإنَّ تَسخيرَ ما سُخِّرَ له عليه السَّلامُ من الرِّيحِ وغيرِها، كان بطَريقِ الانقيادِ الكُلِّيِّ له، والامتثالِ بأمْرِه ونَهْيِه والمَقْهوريَّةِ تحْتَ مَلكوتِه، وأمَّا تَسخيرُ الجِبالِ والطَّيرِ لداودَ عليه السَّلامُ فلم يكُنْ بهذه المَثابةِ؛ بل بطَريقِ التَّبعيَّةِ له عليه السَّلامُ، والاقتداءِ به في عِبادةِ اللهِ عزَّ وعَلا[1]. أو: أنَّه لَمَّا اشْتَرَكَ داودُ والجبالُ في التَّسبيحِ ناسَب ذِكْرُ (معَ) الدَّالَّةِ على الاصطحابِ، ولَمَّا كانت الرِّيحُ مُستخدَمةً لسُليمانَ أُضيفَتْ إليه بلامِ التَّمليكِ لأنَّها في طاعتِه وتحتَ أمرِه[2].

- قولُه: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ في الختامِ؛ فإنَّه لمَّا كانت هذه الاختصاصاتُ في غايةِ الغَرابةِ من المَعهودِ، أخبَرَ تعالى أنَّ عِلْمَه مُحيطٌ بالأشياءِ، يُجْرِيها على ما سبَقَ به عِلْمُه[3].

- جُملةُ: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ جُملةٌ تَذييليَّةٌ مُعترِضةٌ بينَ الجُمَلِ المَسوقةِ لذِكْرِ عِنايةِ اللهِ بسُليمانَ[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ﴾ جَمَع الضَّميرَ في ﴿يَغُوصُونَ﴾؛ حَمْلًا على معنى ﴿مَن﴾، وحسَّنَ ذلك تَقدُّمُ جَمْعٍ قبْلَه وهو ﴿الشَّيَاطِينِ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧).

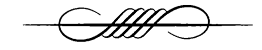
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠).

- ودَلَّ الغَوصُ في قولِه: ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ على المُغاصِ فيه، وعلى ما يُغاصُ لاستخراجِه وهو الجَوهرُ؛ فلذلك لم يُذْكَرْ. وقولُه: ﴿لَهُۥ﴾ أي: لسُليمانَ؛ لأنَّ الغائصَ قد يَغوصُ لنفْسِه ولغَيرِه، فذكَرَ أنَّ الغوصَ ليس لأنفُسِهم، إنَّما هو لأجْلِ سُليمانَ وامتثالِهم أمْرَه[1].

- قولُه: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ تذييلٌ لقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[2].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٨٧).

الآيتان (٨٣-٨٤)

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- عَبْدَنا أيوبَ إذ نادى ربَّه عزَّ وجَلَّ أنِّي قد أصابني الضُّرُّ، وأنت أرحَمُ الرَّاحمينَ، فاكشِفْه عنِّي. فاستجَبْنا له دُعاءَه، ورفَعْنا عنه الضُّرَّ والبلاءَ، ورَدَدْنا عليه ما فَقَده من أهلٍ ووَلَدٍ مُضاعفًا؛ فَعَلْنا به ذلك رحمةً منَّا، وتذكيرًا للذين يَعبُدونَ اللهَ؛ لِيَكونَ قُدوةً لكُلِّ صابرٍ على البلاءِ، راجٍ رحمةَ رَبِّه.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ[١] -يا محمَّدُ- أيوبَ حين نادى ربَّه بأنِّي أصابني الضَّرَرُ والبلاءُ، وأنت أرحَمُ من يرحَمُ، فارحَمْني بكَشفِ ضُرِّي[٢].

---

(١) وممَّن قال بأنَّ قولَه تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ متعلقٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكرْ: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٧).

وقال ابنُ عاشور: (عطفٌ على ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي: وآتينا أيوبَ حكمًا وعلمًا إذ نادى ربَّه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ [ص: ٤١].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياءُ، ثمَّ الصالحونَ، ثمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبتلى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِه، فإنْ كان في دِينِه صَلابةٌ زيدَ في بلائِه، وإن كان في دِينِه رِقَّةٌ خُفِّفَ عنه، وما يزالُ البلاءُ بالعَبدِ حتى يمشيَ على ظَهرِ الأرضِ ليس عليه خَطيئةٌ))[١].

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤ ﴾.

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ ﴾.

أي: فاستجَبْنا دُعاءَ أيوبَ، فأزَلْنا ما حلَّ به مِن ضَرَرٍ وبَلاءٍ[٢].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أيوبَ نبيَّ اللهِ كان في بلائِه ثمانيَ عَشْرةَ سَنةً، فرَفَضه القريبُ والبعيدُ إلَّا رَجُلَينِ مِن إخوانِه كانا مِن أخَصِّ إخوانِه، كانا يَغدُوانِ إليه، ويَرُوحانِ إليه، فقال أحدُهما لصاحِبِه: أتعلَمُ، واللهِ لقد أذنَبَ أيوبُ ذنبًا ما أذنَبه أحَدٌ! قال صاحِبُه:

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٤٨١)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١٤٨١) واللفظ له.

قال الترمذي: (حسن صحيح)، وقال ابن القيم في ((طريق الهجرتين)) (١٩٣): (ثابت)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٤٥)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٩٨): (حسن صحيح).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٧).

وما ذاك؟ قال: منذُ ثمانيَ عَشرةَ سَنةً لم يرحَمْه اللهُ فيكشِفَ عنه! فلمَّا راحا إليه لم يصبِرِ الرجُلُ حتى ذكَرَ ذلك له، فقال أيوبُ: لا أدري ما يقولُ، غيرَ أنَّ الله يعلَمُ أنِّي كُنتُ أمُرُّ على الرجُلَينِ يتنازَعانِ فيَذكُرانِ اللهَ[1]، فأرجِعُ إلى بيتي فأكَفِّرُ عنهما؛ كراهيةَ أن يُذكَرَ اللهُ إلَّا في حَقٍّ! قال: وكان يخرجُ إلى حاجتِه فإذا قضى حاجَتَه أمسكَتِ امرأتُه بيَدِه حتى يَبلُغَ، فلمَّا كان ذاتَ يومٍ أبطأ عليها، وأوحيَ إلى أيوبَ في مكانِه أن: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطأَتْه فلَقِيَتْه ينتَظِرُ، وأقبل عليها قد أذهَبَ اللهُ ما به من البلاءِ، وهو على أحسَنِ ما كان، فلمَّا رأَتْه قالت: أيْ بارَكَ اللهُ فيك، هل رأيتَ نبيَّ اللهِ هذا المُبتَلى؟ واللهِ على ذلك ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ به منك إذ كان صَحيحًا! قال: فإنِّي أنا هو! وكان له أندرانِ[2]: أندَرٌ للقَمحِ، وأندَرٌ للشَّعيرِ، فبَعَثَ اللهُ سحابتَينِ، فلمَّا كانت إحداهما على أندَرِ القَمحِ أفرَغَت فيه الذَّهَبَ حتى فاض، وأفرَغَت الأخرى على أندَرِ الشَّعيرِ الوَرِقَ حتى فاض))[3].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((بينا

---

(١) فيَذكُرانِ اللهَ: أي: يحلِفانِ به، وقيل: فيذكران الله، أي: على وجهِ الاستغفارِ. يُنظر: ((الفائق في غريب الحديث)) للزمخشري (٢/ ١١١)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٣).

(٢) الأندَرُ: الموضِعُ الذي يُجمَعُ فيه الطَّعامُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٠٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٤/ ١٩٤).

(٣) أخرجه البزار (٦٣٣٣)، وأبو يعلى (٣٦١٧) واللفظ له، وابن حبان (٢٨٩٨)، والحاكم (٤١١٥). صحَّحه ابنُ حبان، والحاكم وقال: (على شرطِ الشيخين)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (١/ ٢٠٨): (غريبٌ رفعُه جدًّا، والأشبهُ أن يكونَ موقوفًا)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ٢١١): (رجال البزار رجال الصحيح)، وصحَّح إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ١٤٢)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٨٥): (أصحُّ ما ورَد)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٧).

أيوبُ يغتَسِلُ عُريانًا، فخَرَّ عليه جرادٌ[1] مِن ذَهَبٍ، فجعل أيوبُ يحتَثي[2] في ثَوبِه، فناداه رَبُّه: يا أيوبُ، ألم أكُنْ أغنَيتُك عمَّا ترى؟ قال: بلى وعِزَّتِك، ولكِنْ لا غِنى بي عن بركَتِك))[3].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

أي: وآتينا أيوبَ أهلَه الذين فقَدَهم، ورزَقْناه معهم آخرينَ مِثلَ عَدَدِهم زيادةً على ذلك[4].

(١) الجراد: اسْمُ جنسٍ، واحِدُه جَرادَةٌ: وهو جِنسٌ من الحَشَراتِ؛ سُمِّيَ به لأنَّه يَجرِدُ الأرضَ فيأكُلُ كُلَّ ما عليها. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١/ ٣٣٣)، ((معجم متن اللغة)) (١/ ٥٠٣).

(٢) يَحتَثي: أي: يأخُذُ بيَدِه ويَرمي في ثوبه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١/ ٣٣٣).

(٣) رواه البخاري (٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٠١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

قال ابن الجوزيِّ: (قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ يعني: أولادَه ومِثلَهم معهم، فيه أربعةُ أقوالٍ: أحدها: أنَّ الله تعالى أحيا له أهلَه بأعيانِهم، وآتاه مِثلَهم معهم في الدُّنيا، قاله ابنُ مسعودٍ، والحَسَنُ، وقتادةُ. وروى أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: كانت امرأتُه ولَدَت له سبعةَ بنينَ وسَبْعَ بناتٍ، فنُشِروا له، ووَلَدت له امرأتُه سبعةَ بنين وسبعَ بنات. والثاني: أنَّهم كانوا قد غُيِّبوا عنه ولم يموتوا، فآتاه إيَّاهم في الدُّنيا ومِثلَهم معَهم في الآخرةِ، رواه هشامٌ عن الحسنِ. والثالث: آتاه اللهُ أجورَ أهلِه في الآخرةِ، وآتاه مِثلَهم في الدنيا، قاله نَوْفٌ، ومجاهدٌ. والرابع: آتاه أهلَه ومِثلَهم معَهم في الآخرةِ، حكاه الزجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٥ - ٣٦٧).

قال الزجَّاج: (أكثَرُ التفاسير أنَّ الله جلَّ ثناؤه أحيا مَن مات مِن بنيه وبناتِه، ورزقه مِثلَهم مِن الوَلَدِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٤٠١).

وقال السَّمعاني: (قولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، والحسنُ: ردَّ إليه أهلَه وأولادَه بأعيانِهم، وهذا هو القَولُ المعروفُ، وظاهِرُ القرآنِ يدُلُّ عليه). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠٠).

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [ص: ٤٣].

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

أي: ردَدْنا لأيوبَ أهلَه ومِثلَهم معهم؛ رحمةً منَّا به(١).

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

أي: وتذكيرًا للذين يَعبُدونَ اللهَ؛ لِيَعتبِروا بقصةِ أيوبَ، ويَصبِروا كما صبَرَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى عن أيوبَ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هذا من بابِ حُسْنِ الأدَبِ في السُّؤالِ والدُّعاءِ، فقولُ القائِلِ لِمَن يُعَظِّمُه ويَرغَبُ إليه: أنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٧).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ يقولُ: وتذكِرةً للعابدينَ رَبَّهم فعَلْنا ذلك به؛ لِيَعتَبِروا به ويعلَموا أنَّ الله قد يبتلي أولياءَه ومَن أحَبَّ مِن عبادِه في الدُّنيا بضُروبٍ مِنَ البلاءِ في نَفسِه وأهلِه ومالِه، مِن غَيرِ هوانٍ به عليه، ولكِنْ اختبارًا منه له؛ لِيَبلُغَ بصَبرِه عليه واحتِسابِه إيَّاه وحُسنِ يَقينِه، مَنزِلَتَه التي أعَدَّها له تبارك وتعالى مِنَ الكرامةِ عندَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٧، ٣٦٨).

وقال ابنُ عاشور: (الذِّكرى: التذكيرُ بما هو مَظِنَّةٌ أن يُنسى أو يُغفَلَ عنه. وهو معطوفٌ على ﴿رَحْمَةً﴾ فهو مفعولٌ لأجلِه، أي: وتَنبيهًا للعابدينَ بأنَّ اللهَ لا يَترُكُ عِنايَتَه بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٨).

جائِعٌ، أنا مريضٌ- حُسْنُ أدبٍ في السُّؤالِ، وإن كان في قَولِه: أطعِمْني وداوِني ونحوِ ذلك ممَّا هو بصيغةِ الطَّلَبِ- طَلَبٌ جازِمٌ مِن المَسؤولِ؛ فذاك فيه إظهارُ حالِه، وإخبارُه على وَجهِ الذُّلِّ والافتقارِ المتضَمِّنِ لسُؤالِ الحالِ، وهذا فيه الرَّغبةُ التامَّةُ والسؤالُ المحضُ بصيغةِ الطَّلَبِ[1].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جَمَعَ أيوبُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في هذا الدُّعاءِ بينَ: حقيقةِ التَّوحيدِ، وإظهارِ الفَقرِ والفاقةِ إلى رَبِّه، ووجودِ طَعْمِ المحبةِ في المُتَمَلَّقِ له، والإقرارِ له بصِفةِ الرَّحمةِ، وأنَّه أرحَمُ الرَّاحمينَ، والتوسُّلِ إليه بصفاتِه سُبحانَه، وشِدَّةِ حاجتِه، وهو فَقرُه، ومتى وَجَدَ المُبتلَى هذا كُشِفَ عنه بَلواه[2].

٣- قال العُلَماءُ: ولم يكُنْ قَولُ أيوبَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ جَزَعًا؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، بل كان ذلك دُعاءً منه، والجَزَعُ في الشكوى إلى الخَلقِ لا إلى اللهِ تعالى، والدُّعاءُ لا يُنافي الرِّضا[3]، ويَعقوبُ عليه السَّلامُ وعَدَ بالصَّبرِ الجَميلِ، فقال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]، والنبيُّ إذا وعَدَ لا يُخلِفُ، ثمَّ قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]؛ فالشَّكوى إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ لا تُنافي الصَّبرَ، وإنَّما ينافي الصَّبرَ شَكوى اللهِ[4].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّه تعالى فَعَل ذلك لكي يُتفكَّرَ فيه، فيكونَ داعيةً للعابدينَ في الصبرِ والاحتسابِ[5]، فإنهم إذا ذكروا

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٧٦).

بلاءَ أيوبَ وصبرَه عليه ومحنتَه له، وهو أفضلُ أهلِ زمانِه، وطَّنوا أنفسَهم على الصبرِ على شدائدِ الدنيا نحوَ ما فعَل أيوبُ، فيكونُ هذا تنبيهًا لهم على إدامةِ العبادةِ، واحتمالِ الضررِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ألْطَفَ أيُّوبُ في السُّؤالِ؛ حيث ذكَرَ نفْسَه بما يُوجِبُ الرَّحمةَ، وذَكَر ربَّهُ بغايةِ الرَّحمةِ، ولم يُصرِّحْ بالمطلوبِ، ولم يُعيِّنِ الضُّرَّ الَّذي مَسَّه(٢).

٢- قَولُه تعالى هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾، مع قَولِه تعالى في (ص): ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣]، فيه الدَّلالةُ الواضِحةُ على أنَّ أصحابَ العُقولِ السَّليمةِ مِن شَوائِبِ الاختِلالِ هم الذين يَعبُدونَ اللهَ وحْدَه ويُطيعونَه، وهذا يؤيِّدُ قولَ مَن قال مِن أهلِ العِلمِ: إنَّ مَن أوصى بشَيءٍ مِن مالِه لأعقَلِ النَّاسِ: أنَّ تلك الوَصيَّةَ تُصرَفُ لأتقَى النَّاسِ، وأشَدِّهم طاعةً لله تعالى؛ لأنَّهم هم أولو الألبابِ، أي: العُقولِ(٣).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

- التَّعبيرُ بالمَسِّ في قولِه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ حِكايةٌ لِمَا سلَكَهُ أيُّوبُ في دُعائِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٧).

مِن الأدَبِ مع اللهِ؛ إذ جعَلَ ما حَلَّ به مِن الضُّرِّ كالمَسِّ الخفيفِ[1].

- الألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلضُّرُّ﴾ للجِنْسِ؛ فتعُمُّ الضُّرَّ في البدَنِ والأهْلِ والمالِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ لمَّا كان ثَناءُ أيُّوبَ تَعريضًا بالدُّعاءِ، فرَّعَ عليه قولَه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾، والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾ للمُبالَغةِ في الإجابةِ[3].

- قولُه: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ﴾ الكشْفُ مُستعمَلٌ في الإزالةِ السَّريعةِ، وفيه تَشبيهٌ؛ شُبِّهَت إزالةُ الأمراضِ والأضرارِ المُتمكِّنةِ الَّتي يُعْتادُ أنَّها لا تَزولُ إلَّا بطُولٍ، بإزالةِ الغطاءِ عنِ الشَّيءِ في السُّرعةِ[4].

- الموصولُ في قولِه: ﴿مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ مَقصودٌ منه الإبهامُ، ثمَّ تَفسيرُه بـ (مِنْ) البَيانيَّةِ؛ لقصْدِ تَهويلِ ذلك الضُّرِّ؛ لكثرةِ أنواعِه بحيث يَطولُ عَدُّها[5].

- قولُه: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وُصِفَتِ الرَّحمةُ بأنَّها من عندِ اللهِ؛ تَنويهًا بشأْنِها بذِكْرِ العِنديَّةِ الدَّالَّةِ على القُرْبِ المُرادِ به التَّفضيلُ[6].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٢٨).

- قولُه: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ فيه مِن العُمومِ بحيث صارتِ الجُملةُ تَذييلًا(١)، وخصَّ العابدينَ بالذكر؛ لأنَّهم يختصُّون بالانتفاعِ بذلك(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾، وقال في سُورةِ (ص): ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣]، فقال في الأُولى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾، وقال في الأُولى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ في سُورةِ (الأنبياءِ) عن أيُّوبَ عليه السَّلامُ بأنَّه نادى ربَّه، وشكا إليه ما مَسَّه مِن الضُّرِّ؛ فكأنَّه لمَّا قال: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾، قال: مَسَّني مِن عندك يا رَبِّ ما تَعلَمُ، وأنت الأكرَمُ الأرحَمُ، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤]، أي: كما كان الضُّرُّ مِن عندنا، كان كشْفُه والرَّحمةُ مكانَه مِن عندنا.

وأمَّا قولُه هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾، فالمعنى: فَعَلْنا به ما فَعلناهُ رَحمةً له مِنَّا، وتَذكِرةً لمَن عبَدَ اللهَ بعْدَه بإخلاصٍ منه، فلا يَحُولُ عن حَمْدِه وطاعتِه مع ما يُصَبُّ عليه من شَدائدِ الدُّنيا ومَصائبِها الَّتي يُنزِلُها اللهُ به، بلْ يثبُتُ معها على إدامةِ العبادةِ وإمدادِها بالزِّيادةِ، كما فعَلَه أيُّوبُ عليه السَّلامُ.

وأمَّا في سُورةِ (ص): فإنَّ اللهَ تعالى لمَّا أخبَرَ فيها عنه أنَّه قال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، وشَكا إلى اللهِ تعالى ما يَلحَقُه مِن أذى الشَّيطانِ بوَسوسَتِه إليه، أغاثَهُ اللهُ برَحمةٍ منه مُضافةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٧٦).

إليه، مُختصَّةٍ بإرادتِه، فهذا فرْقُ ما بين قولِه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤] و﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ [ص: ٤٣]، وأيضًا لَمَّا بدَأَ القِصَّةَ بقولِه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ﴾، ختَمَ بقولِه: ﴿مِّنَّا﴾؛ لِيكونَ آخِرُ الآيةِ مُلائمًا لأوَّلِ الآيةِ.

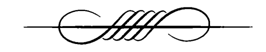
وأمَّا قولُه: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣] فلِأنَّ أُولي الألبابِ أعَمُّ من العابدينَ، واستدفاعُ وَساوسِ الشَّيطانِ أعَمُّ من الاستشفاءِ للأبدانِ، فخَصَّ كلَّ آيةٍ بما اقتضاهُ صَدْرُ الكلامِ وتَعريضُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ بالسُّؤالِ(١).

- وفيه وَجْهٌ آخرُ: أنَّه لمَّا ورَدَ في الأنبياءِ تلطُّفُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فلمَّا تلطَّفَ في سُؤالِه، ولم يُفصِحْ عليه السَّلامُ تلطُّفًا وتَضرُّعًا بعظيمِ ما أصابَهُ من البَلاءِ إفصاحَهُ في آيةِ (ص) بقولِه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، فبُنِيَ كلٌّ من الآيتينِ على ما يُناسِبُه، فقيل جوابًا على عظيمِ تَضرُّعِه وتلطُّفِه في قولِه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ ما يُلائِمُ لَطيفَ هذه الشَّكوى، وعلى قولِه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ ما يُناسِبُ إفصاحَه بهذه البَلوى، فقيل بِناءً على الأوَّلِ: ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾، وقيل بِناءً على الثَّانيةِ: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ [ص: ٤٢]، لمَّا وقَعَ ذِكْرُ الشَّيطانِ، وأنَّه السَّببُ في ذلك الامتحانِ، جُووِبَ باستعمالِ سبَبٍ فقيل له: اركُضْ برِجْلِك واغتسِلْ، وذلك يُذهِبُ عنك ما مسَّكَ به الشَّيطانُ. وحين لم يَذكُرْ عليه السَّلامُ واسطةً، جُووِبَ برَفْعِ ما به بغيرِ واسطةِ سبَبٍ، فقيل جوابًا لقولِه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾. وبُنِي على الأوَّلِ قولُه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾؛ لتمكُّنِ (عندَ) فيما قصَد، وعلى الثاني: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾؛ إذ ليس موقعُها موقعَ ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾. ثم قيل في

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٠٧- ٩١١).

الأُولَى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ مناسبةً لما تقدَّم، وقيل في الثانيةِ: ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مناسبةً أيضًا؛ إذ اعتبارُ أولي الألبابِ يُورِثُهم مقامَ العابدينَ، وهو أسنَى مقامٍ، وقد جرَى معَ (كل) مقامٍ ما يناسِبُه[1].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٥٠، ٣٥١).

الآيات (٨٥-٨٨)

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: أي: نُضَيِّقَ عليه، مِن قَولِهم: قَدَرْتُ على فُلانٍ: إذا ضَيَّقْتَ عليه، وقيل: نَقْدِرُ: بمعنى نُقَدِّرُ، والمعنى لن نُقَدِّرَ عليه ما قَدَّرْنا مِن كَونِه في بطنِ الحوتِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْلِ، كُلٌّ هؤلاء من الصَّابرينَ، فاستحَقُّوا الذِّكرَ بالثَّناءِ الجَميلِ، وأدخَلْناهم في رَحمَتِنا؛ إنَّهم من الصَّالحينَ الجامِعينَ لخِصالِ الخَيرِ.

واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- صاحِبَ الحُوتِ؛ يُونُسَ عليه السَّلامُ، إذ خرَج مِن قَومِه غاضِبًا عليهم؛ لعدَمِ إيمانِهم، فظَنَّ يُونُسُ أنَّنا لن نُعاقِبَه هذه العُقوبةَ، فنُضَيِّقَ عليه بحَبسِه في بَطنِ الحُوتِ، فنادى رَبَّه في الظُّلُماتِ تائبًا مُعترِفًا بظُلمِه، قائلًا: لا إلهَ إلَّا أنت سُبحانَك، إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمينَ. فاستجَبْنا له دُعاءَه، وخلَّصْناه مِن الغَمِّ والشِّدَّةِ، وكما نجَّيْنا يونُسَ مِن غَمِّه حين دَعانا، كذلك نُنْجِي المؤمِنينَ مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٧)، ((تفسير الطبري)) (١٦/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٧٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٣/ ٣٧٣).

كُرَبِهم وهمومِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى صبرَ أيوبَ عليه السَّلامُ وانقطاعَه إليه؛ أتبَعَه بذِكرِ هؤلاءِ؛ فإنَّهم كانوا أيضًا مِن الصَّابرينَ على الشَّدائِدِ والمِحَنِ والعبادةِ[1].

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إسماعيلَ بنَ إبراهيمَ، وإدريسَ، وذا الكِفْلِ[2].

﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨، ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

اختلَف العلماءُ في ذي الكِفْلِ، هل هو نبيٌّ أم لا؟ فذهب الواحديُّ والشوكاني -ونسَبه للجمهورِ- إلى أنَّه ليس نبيًّا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩٦).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: أبو موسى الأشعري، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

وذهب الرازي، وابنُ كثير، والعُليمي، والسعدي إلى أنَّه نبيٌّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

قال ابن كثير: (وأمَّا ذو الكِفْلِ فالظَّاهرُ مِنَ السِّياقِ أنَّه ما قُرِنَ معَ الأنبياءِ إلَّا وهو نَبِيٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: الحسنُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

وتوقَّفَ ابنُ جرير في ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨).

ويُنظر في سببِ تسميتِه بذلك: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

أي: كلٌّ منهم مِن الصَّابرينَ على الابتلاءاتِ، وعلى فِعلِ الطَّاعاتِ، واجتنابِ السَّيِّئاتِ[١].

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾.

أي: وأدخَلْنا إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ في رَحمتِنا[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((احتَجَّت النَّارُ والجَنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارونَ والمتكَبِّرون، وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ، فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهذه: أنتِ عذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ -وربما قال: أصيبُ بكِ مَن أشاءُ، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحَمُ بكِ من أشاءُ، ولكُلِّ واحدةٍ منكما مِلؤُها))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٨).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿رَحْمَتِنَا﴾ هنا: الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: يحيى بنُ سلام، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٨).

وقيل: المرادُ بها: النبوةُ. وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٣).

وممن جمَع بينَ القولينِ السابقينِ، فقال: المرادُ بها: النُّبوَّةُ والجنَّةُ: الواحدي، والبغوي، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٠).

(٣) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) واللفظ له.

﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: أدخَلْناهم في رَحمَتِنا؛ لأنَّهم مِنَ الكامِلينَ في الصَّلاحِ، الجامِعينَ لخِصالِ الخَيرِ، المُطيعينَ لله[1].

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- يُونُسَ صاحِبَ الحُوتِ حينَ ذَهَب غاضِبًا على قَومِه مِن أجْلِ رَبِّه؛ لِكُفرِهم به، وعِصيانِهم له، بعدَما دعاهم إليه[2].

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾.

أي: فظَنَّ يُونُسُ أنَّنا لن نُعاقِبَه هذه العُقوبةَ، فنُضَيِّقَ عليه بحَبسِه في بَطنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٩٦).

قال السمعاني: (الصلاحُ اسمٌ يجمعُ جميعَ خِصالِ الخيرِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٠ - ٢٤٢).

قال الرازي: (لا خِلافَ في أنَّ ذا النُّونِ هو يونُسُ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ النونَ هو السَّمَكةُ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٧٨).

وقال ابن كثير: (يونُسُ بنُ مَتَّى عليه السَّلامُ بَعَثه الله إلى أهلِ قَريةِ «نِينَوى»، وهي قريةٌ مِن أرضِ المَوصِلِ، فدعاهم إلى اللهِ، فأبَوا عليه وتمادَوا على كُفرِهم؛ فخرج مِن بينِ أظهُرِهم مُغاضِبًا لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٦).

وقال ابنُ جُزي: (أدركَه ضَجَرٌ منهم، فخرج عنهم؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، ولا يَصِحُّ قَولُ مَن قال: مُغاضِبًا لرَبِّه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨).

الحُوتِ(١).

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فنادَى يونُسُ رَبَّه وهو في الظُّلُماتِ(٢) فقال: لا إلهَ إلَّا أنتَ، أُنزِّهُك عن

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٠-٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٠).

قال الشنقيطي: (وقولُه: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ فيه وجهانِ مِن التَّفسيرِ لا يُكَذِّبُ أحدُهما الآخَرَ:

الأوَّلُ: أنَّ المعنى: لن نَقدِرَ عليه، أي: لن نضَيِّقَ عليه في بطنِ الحُوتِ، ومِن إطلاقِ «قَدَرَ» بمعنى «ضَيَّقَ» في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] أي: ويضَيِّقُ الرِّزقَ على من يشاءُ...

الوجه الثاني: أنَّ معنى ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: لن نَقضِيَ عليه ذلك، وعليه: فهو من القَدَرِ والقَضاءِ. «وقَدَرَ» بالتخفيفِ تأتي بمعنى «قَدَّرَ» المضعَّفة، ومنه قَولُه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] أي: قَدَّره الله). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤٠).

وقال ابنُ عاشور: (وعندي فيه تأويلانِ آخرانِ، وهما: أنَّه ظَنَّ وهو في جَوفِ الحُوتِ أنَّ اللهَ غيرُ مُخَلِّصِه في بَطنِ الحُوتِ؛ لأنَّه رأى ذلك مُستحيلًا عادةً، وعلى هذا يكونُ التَّعقيبُ بحَسَبِ الواقِعِ، أي: ظَنَّ بعد أن ابتَلَعه الحوتُ، وأمَّا نداؤُه رَبَّه فذلك توبةٌ صدَرَت منه عن تقصيرِه أو عَجَلتِه، أو خَطأِ اجتهادِه؛ ولذلك قال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ مبالغةً في اعترافِه بظُلمِ نَفسِه،... أو أنَّه ظَنَّ بحَسَبِ الأسبابِ المعتادةِ أنَّه يُهاجِرُ مِن دارِ قَومِه، ولم يظُنَّ أنَّ اللهَ يَعوقُه عن ذلك؛ إذ لم يسبِقْ إليه وحيٌ مِنَ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) قال ابن جرير: (لا شَكَّ أنَّه قد عنى بإحدى الظُّلُماتِ: بَطنَ الحوتِ، وبالأُخرَى: ظُلمةَ البحرِ، وفي الثالثةِ اختلافٌ، وجائزٌ أن تكون تلك الثالثةُ ظُلمةَ الليل، وجائزٌ أن تكون كونَ الحوتِ في جوفِ حُوتٍ آخر. ولا دليلَ يدُلُّ على أيِّ ذلك مِن أيٍّ، فلا قَولَ في ذلك أولى بالحَقِّ مِن التَّسليمِ لظاهِرِ التنزيلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٣، ٣٨٤).

وقال القرطبي: (يصِحُّ أن يُعبَّرَ بالظُّلُماتِ عن جوفِ الحُوتِ الأولِ فقط، كما قال: ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] وفي كل جِهاتِه ظُلمةٌ، فجَمْعُها سائِغٌ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٣).

وقيل: المراد بالظُّلُمات: ظلمةُ الحوتِ والبَحرِ واللَّيلِ. نسبه الرسعني لأكثر المفسرين، وممن =

جَميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ، إنِّي كُنتُ ظالِمًا لِنَفسي بمَعصِيَتِك حينَ خَرَجْتُ مِن قَومي[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٤].

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾.

أي: فأجَبْنا دُعاءَ يُونُسَ، ونَجَّيْناه مِن الغَمِّ والشِّدَّةِ التي وقَعَ فيها، فأخرَجْناه مِن بَطنِ الحُوتِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٥، ١٤٦].

= قال به: ابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٢).

وممن ذهب إلى هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والضحاكُ، والحسنُ، وعمرُو بنُ ميمون، وابنُ جُرَيجٍ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٢).

قال القرطبي: (﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يريدُ فيما خالفَ فيه مِن تَرْكِ مُداومةِ قومِه والصَّبرِ عليهم. وقيل: في الخروجِ مِن غيرِ أن يُؤذَنَ له). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٢).

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وكما نجَّيْنا يونُسَ مِن غَمِّه حين دَعانا، كذلك نُنْجِي المؤمِنينَ مِن غُمومِهم وكُرَبِهم إذا دَعَونا بإخلاصٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((دَعوةُ ذي النُّونِ إذ دعا وهو في بَطنِ الحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإنَّه لم يَدْعُ بها رجُلٌ مُسلِمٌ في شَيءٍ قَطُّ إلَّا استجابَ اللهُ له))(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دَعوةُ ذي النُّونِ فيها مِن كَمالِ التَّوحيدِ والتَّنزيهِ للرَّبِّ تعالى، واعتِرافِ العَبدِ بظُلمِه وذَنبِه، ما هو مِن أبلَغِ أدويةِ الكَربِ والهَمِّ والغَمِّ، وأبلَغِ الوسائِلِ إلى اللهِ سُبحانَه في قَضاءِ الحوائِجِ؛ فإنَّ التَّوحيدَ والتَّنزيهَ يتضَمَّنانِ إثباتَ كُلِّ كَمالٍ لله، وسَلْبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٤٩٢)، وأحمد (١٤٦٢).

حسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٤/ ٩٣)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٧١): (رجالُه رجالُ الصحيح غير إبراهيمَ بنِ محمد بن سعدِ بن أبي وقاصٍ، وهو ثقةٌ)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٦)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٠٥).

كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ وتَمثيلٍ عنه- والاعتِرافَ بالظُّلمِ يتضَمَّنُ إيمانَ العَبدِ بالشَّرعِ والثَّوابِ والعِقابِ، ويُوجِبُ انكِسارَه ورُجوعَه إلى اللهِ، واستقالتَه عَثرَتَه، والاعتراف بعُبوديَّتِه، وافتقارَه إلى رَبِّه، فهاهنا أربعةُ أمورٍ قد وقع التوسُّلُ بها: التَّوحيدُ، والتَّنزيهُ، والعُبوديَّةُ، والاعتِرافُ[1].

٢- في قَولِه تعالى عن يونُسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّهليلَ والتَّسبيحَ يَجْليانِ الغُمومَ، ويُنجِيانِ مِن الكرْبِ والمصائِبِ، فحقيقٌ على مَن آمَنَ بكتابِ اللهِ أنْ يجعَلَها ملجأً في شَدائِدِه، ومَطيَّةً في رَخائِه؛ ثِقةً بما وَعدَ اللهُ المؤمنينَ مِن إلحاقِهم بذي النُّونِ في ذلك؛ حيث يقولُ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ترغيبٌ للمُؤمِنينَ في الإيمانِ؛ بالثَّباتِ عليه، والازديادِ منه؛ إذْ عَلِموا نجاةَ المُؤمِنينَ السَّابِقينَ[3]. وهو وَعدٌ وبِشارةٌ لكُلِّ مُؤمِنٍ وقَعَ في شِدَّةٍ وغَمٍّ أنَّ اللهَ تعالى سيُنجيه منها، ويَكشِفُ عنه ويخَفِّفُ؛ لإيمانِه، كما فعَل بيُونسَ عليه السَّلامُ[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (المقدمة/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢٩).

جمَع هؤلاءِ الثَّلاثةَ في سِلكٍ واحدٍ؛ لاشتراكِهم في خَصيصةِ الصَّبرِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، جرَى ذلك لمناسبةِ ذكرِ المثلِ الأشهرِ في الصبرِ، وهو أيوبُ عليه السلامُ(1).

٢- في قَولِه تعالى عن يونُسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتِرافٌ بالذَّنبِ، وهو يتضَمَّنُ طَلَبَ المَغفِرةِ؛ فإنَّ الطَّالِبَ السَّائِلَ تارةً يَسأَلُ بصيغةِ الطَّلَبِ، وتارةً يَسأَلُ بصيغةِ الخَبَرِ: إمَّا بوَصفِ حالِه، وإمَّا بوَصفِ حالِ المَسؤولِ، وإمَّا بوَصفِ الحالَينِ؛ كقَولِ نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فهذا ليس صيغةَ طَلَبٍ، وإنَّما هو إخبارٌ عن اللهِ أنَّه إنْ لم يغفِرْ له ويرحَمْه خَسِرَ، ولكِنَّ هذا الخبَرَ يتضَمَّنُ سُؤالَ المَغفِرةِ، وكذلك قَولُ آدَمَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] هو مِن هذا البابِ، ومِن ذلك قَولُ موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]؛ فإنَّ هذا وَصفٌ لحالِه بأنَّه فقيرٌ إلى ما أنزَلَ اللهُ إليه مِنَ الخيرِ، وهو متضَمِّنٌ لِسُؤالِ اللهِ إنزالَ الخَيرِ إليه(2).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

- جُملةُ: ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ استئنافٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن الأمْرِ بذِكْرِهم(3).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٢).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

- قَوْله: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ أبلغ من قَوْله: (ورحمناهم)؛ لِأَن قَوْله: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ يَقْتَضي أَنَّهم غُمِروا بالرَّحْمَةِ، وقَولُه: (ورحمناهم) يَقْتَضِي أَنَّه أصابَهم رحمتَه[١].

- جُملةُ: ﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ تَعليلٌ لإدخالِهم في الرَّحمةِ، وتَذييلٌ للكلامِ يُفِيدُ أنَّ تلك سُنَّةُ اللهِ مع جَميعِ الصَّالحينَ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ ...﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ، أي: فكان ما كان مِن المُساهَمةِ والْتِقامِ الحوتِ، فنادَى... إلخ[٣].

- ولَفظةُ ﴿ الظُّلُمَاتِ ﴾ جاءتْ جمْعًا؛ قيل: لشِدَّةِ تكاثُفِها، فكأنَّها ظُلمةٌ مع ظُلمةٍ[٤]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

- وجُملةُ: ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ ﴾ تَفسيريَّةٌ؛ لأنَّه سبَقَ قولُه: ﴿فَنَادَىٰ ﴾[٥].

- قولُه: ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ مُبالَغةٌ في اعترافِه بظُلْمِ نَفْسِه؛ حيث أسنَدَ إليه فِعْلَ الكونِ الدَّالَّ على رُسوخِ

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٣).

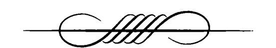
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٢).

الوَصْفِ، وجعَلَ الخبَرَ أنَّه واحدٌ مِن فَريقِ الظَّالمينَ، وهو أدَلُّ على أرْسخيَّةِ الوَصْفِ. وتَقْديمُه الاعتِرافَ بالتَّوحيدِ مع التَّسبيحِ كَنَّى به عن انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّدبيرِ، وقُدرتِه على كلِّ شَيءٍ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

- السِّينُ والتَّاءُ في ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ للمُبالَغةِ في الإجابةِ[2].

- قولُه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تَذييلٌ، والإشارةُ بـ (كَذَلِكَ) إلى الإنجاءِ الَّذي أنْجى به يُونسَ، أي: مثْلَ ذلك الإنجاءِ نُنْجِي المُؤمِنينَ. وفي هذا تَعريضٌ للمُشرِكينَ من العرَبِ بأنَّ اللهَ مُنْجِي المُؤمِنينَ من الغَمِّ والنَّكدِ الَّذي يُلاقونَه من سُوءِ مُعامَلةِ المُشرِكين إيَّاهم في بِلادِهم[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٨٩-٩٠)

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾: أي: راغِبينَ في الجنَّةِ، وخائِفينَ مِن النَّارِ، وأصلُ (رغب): يدُلُّ على طَلَبٍ لِشَيءٍ. وأصلُ (رهب): يدُلُّ على خَوفٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- زكريَّا حين دعا رَبَّه قائِلًا: رَبِّ، لا تترُكْني وَحيدًا لا عَقِبَ لي، وهَبْ لي وارِثًا يقومُ بأمرِ الدِّينِ في النَّاسِ مِن بَعدي، وأنت خَيرُ الباقينَ وخَيرُ مَن يخلُفُني بخيرٍ. فاستجَبْنا له دُعاءَه، ووهَبْنا له ولَدًا اسمُه يَحيى، وجعَلْنا زوجَتَه وَلُودًا صالحةً للحَملِ والولادةِ؛ إنَّ زكريَّا وزَوجَه ويحيَى كانوا يُبادِرونَ إلى فِعلِ الطَّاعاتِ وكُلِّ خَيرٍ، ويَدْعُونَنا راغِبينَ فيما عِندَنا، خائِفينَ مِن عذابِنا، وكانوا لنا خاضِعينَ مُتواضِعينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان حاصِلُ أمرِ يونُسَ عليه السَّلامُ أنَّه خَرَج مِن بَطنٍ لم يُعهَدِ الخُروجُ مِن مِثلِه، عَطَف عليه قِصَّةَ زكريَّا عليه السَّلامُ في هِبَتِه له ولَدًا مِن بَطنٍ لم يُعهَدِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٥) (٢/ ٤٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٨١).

الحَملُ مِن مِثلِه، في العُقمِ واليَأسِ[(١)].

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- زكريَّا حينَ نادَى ربَّه، فقال: رَبِّ، لا تترُكْني وَحيدًا بلا وَلَدٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا * وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ [مريم: ٢ - ٦].

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾.

أي: فارزُقْني وارِثًا مِن نَسلي يَقومُ بالدِّينِ مِن بَعدي، وأنت خيرُ الباقينَ بعدَ مَوتِ العبادِ، وخَيرُ مَن يخلُفُني بخَيرٍ، وأنا أعلمُ أنَّك لن تُضَيِّعَ دينَك، ولكِنْ لا تَقطَعْ فَضيلةَ القيامِ بأمرِ الدِّينِ وهِبةِ العِلمِ والحِكمةِ عَن عَقِبي[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

ونسب الماوردي هذا القولَ المذكورَ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

قال الرازي: (أمَّا قولُه: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ ففيه وجهانِ: أحدُهما: أنَّه عليه السَّلامُ إنَّما ذَكَره في جملةِ دعائِه على وجهِ الثَّناءِ على ربِّه؛ ليكشِفَ عن علمِه بأنَّ مآلَ الأمورِ إلى اللَّه تعالَى. والثَّاني: كأنَّه عليه السَّلامُ قالَ: إنْ لم ترزُقْني مَن يرثُني فلا أُبالي؛ فإنَّكَ خيرُ وارثٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٨٢).

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾.

أي: فاستَجَبْنا لزكريَّا دُعاءَه، ورزَقْناه ولَدًا اسمُه يحيى[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

أي: وأصلَحْنا لزكريَّا امرأتَه العقيمَ، فجعَلْناها وَلودًا صالِحةً للحَملِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٦).
نسَب الواحدي القولَ بأنَّ المرادَ بإصلاحِ زوجِه أنَّها كانت عاقِرًا فجعَلها اللَّهُ وَلودًا- نسبه إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٧٩).
قال الشنقيطي: (فهذا الإصلاحُ هو كونُها صارت تَلِدُ بعد أن كانت عقيمًا. وقَولُ مَن قال: إنَّ إصلاحَها المذكورَ هو جَعلُها حَسَنةَ الخُلُقِ بعد أن كانت سَيِّئةَ الخُلُقِ: لا ينافي ما ذُكِرَ؛ لجوازِ أن يجمَعَ له بين الأمرينِ فيها، مع أنَّ كونَ الإصلاحِ هو جَعْلَها ولودًا بعد العُقمِ هو ظاهِرُ السِّياقِ، وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، ومجاهِدٍ، وغَيرِهم. والقَولُ الثَّاني يُروى عن عطاءٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٦٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٢).
وممن اختار الجمعَ بين القولين السابقين: ابن جرير، والسمرقندي، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٢).
قال ابن جرير: (والصوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أصلَحَ لزكريَّا زَوجَه، كما =

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

أي: إنَّ زكريَّا وزَوجَه ويحيَى كانوا يُبادِرونَ إلى فِعلِ الطَّاعاتِ، وما يُقرِّبُهم إلينا[١].

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

أي: وكانوا يَدْعُوننا[٢]؛ رَغبةً منهم في ثوابِ اللهِ ورَحمتِه، ورَهبةً مِن عذابِه وغَضَبِه[٣].

= أخبَرَ تعالى ذِكرُه، بأن جعَلَها وَلُودًا حَسَنةَ الخُلُقِ؛ لأنَّ كُلَّ ذلك من معاني إصلاحِه إيَّاها، ولم يَخْصُصِ اللهُ جلَّ ثناؤه بذلك بَعضًا دونَ بَعضٍ في كتابِه، ولا على لِسانِ رَسولِه، ولا وضَعَ على خصوصِ ذلك دَلالةً؛ فهو على العُمومِ ما لم يأتِ ما يَجِبُ التَّسليمُ له بأنَّ ذلك مرادٌ به بعضٌ دونَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٢) قيل: المرادُ بالدُّعاءِ هنا: المسألةُ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: القرطبي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٧).

وقيل: المراد بالدُّعاءِ في هذا الموضع: العبادةُ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٩).

قال ابنُ جرير: (وعنى بالدُّعاءِ في هذا الموضِعِ: العِبادةَ، كما قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٨٩).

وممن جمَع بينَ معنيَي الدُعاءِ: ابنُ عُثيمين. فقال: (في هذه الآيةِ الكريمة وصَفَ اللهُ تعالى الخُلَّصَ من عبادِه بأنَّهم يَدْعُونَ الله تعالى رغَبًا ورَهَبًا مع الخُشوعِ له، والدُّعاءُ هنا شامِلٌ لدُعاء العبادةِ ودُعاءِ المسألة). ((شرح ثلاثة الأصول)) (ص: ٦٠).

وقال ابنُ عطية: (المعنى أنَّهم يَدْعون في وقتِ تعبُّدِهم، وهم بحالِ رغبةٍ ورجاءٍ، ورهبةٍ وخوفٍ في حالٍ واحدةٍ؛ لأنَّ الرغبةَ والرهبةَ متلازمان). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٧).

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

أي: وكانوا لنا مُتواضِعينَ خاضِعينَ، مُتذَلِّلينَ لا يَستكبِرونَ عن عبادتِنا ودُعائِنا، قد انكَسَرت قلوبُهم لله، وسكَنَت عن الالتِفاتِ إلى غَيرِه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ بَعدَما كانت عاقِرًا، لا يَصلُحُ رَحِمُها للوِلادةِ، فأصلَحَ اللهُ رَحِمَها للحَملِ؛ لأجْلِ نَبيِّه زكريَّا، وهذا من فوائِدِ الجَليسِ والقَرينِ الصَّالحِ؛ أنَّه مُبارَكٌ على قَرينِه[2].

٢- قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ فهُم يَدْعونَ الله رغبةً فيما عندَه، وطَمَعًا في ثوابِه، معَ خوفِهم مِن عقابِه وآثارِ ذُنوبِهم، والمؤمِنُ ينبغي أن يسعى إلى الله تعالى بين الخَوفِ والرَّجاءِ، ويُغَلِّب الرَّجاءَ في جانِبِ الطَّاعةِ لِيَنشطَ عليها ويؤَمِّلَ قَبولَها، ويُغَلِّب الخَوفَ إذا هَمَّ بالمعصيةِ لِيَهرَبَ منها، وينجوَ مِن عِقابِها[3].

٣- الدِّينُ كُلُّه رَغبةٌ ورَهبةٌ؛ فالمؤمِنُ هو الرَّاغِبُ الرَّاهِبُ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، وفي الدُّعاءِ عند النَّومِ: ((اللهُمَّ أسلَمْتُ نَفسي إليك، ووجَّهتُ وَجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٠)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٠)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).
قال ابنُ القيِّم: (الخشوعُ في أصلِ اللُّغةِ: الانخِفاضُ، والذُّلُّ، والسُّكونُ... وأجمع العارِفونَ على أنَّ الخُشوعَ محَلُّه القلبُ، وثَمَرتُه على الجوارِحِ، وهي تُظهِرُه). ((مدارج السالكين)) (١/ ٥١٦، ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٦٠).

وألجأتُ ظَهري إليك؛ رَغبةً ورَهبةً إليك))[١]، فلا تجِدُ المؤمِنَ أبدًا إلَّا راغِبًا وراهِبًا، والرَّغبةُ والرَّهبةُ لا تقومُ إلَّا على ساقِ الصَّبرِ؛ فرَهبتُه تَحمِلُه على الصَّبرِ، ورَغبتُه تقودُه إلى الشُّكرِ[٢].

٤- مِن أنواعِ العِباداتِ التي يَظهَرُ فيها الذُّلُّ والخُشوعُ لله عزَّ وجلَّ: الدُّعاءُ؛ قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، فمِمَّا يَظهَرُ فيه الذُّلُّ مِنَ الدُّعاءِ: رَفْعُ اليَدينِ، وافتقارُ القَلبِ في الدُّعاءِ، وانكِسارُه لله عزَّ وجَلَّ، واستِشعارُه شِدَّةَ الفاقةِ إليه والحاجةِ، وإظهارُ الذُّلِّ باللِّسانِ في نَفسِ السُّؤالِ، والدُّعاءُ والإلحاحُ فيه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يدُلُّ على أنَّ (الواو) لا تُفيدُ التَّرتيبَ؛ لأنَّ إصلاحَ الزَّوجِ مُقَدَّمٌ على هِبةِ الوَلَدِ، مع أنَّه تعالى أخَّرَه في اللَّفظِ[٤].

٢- كان أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِي اللهُ عنه يقولُ في خُطبتِه: (أمَّا بَعدُ، فإنِّي أُوصيكم بتَقوى اللهِ، وأن تُثْنوا عليه بما هو أهلُه، وأن تَخلِطوا الرَّغبةَ بالرَّهبةِ، وتَجمَعوا الإلحافَ بالمسألةِ؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أثنى على زكريَّا وأهلِ بَيتِه، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٨٨) واللفظ له، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البَراء بن عازبٍ رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٨٢).

لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾)(١).

٣- الصُّوفيَّةُ بَعضُهم أو كثيرٌ منهم يُبالِغونَ في تعظيمِ مَقامِ المحبَّةِ، ولا يُعَظِّمونَ مَقامَ الرَّجاءِ والخَوفِ، بل ربَّما استَنقَصوا مقامَ الرَّجاءِ والخَوفِ، وهذا من أغلاطِهم، كما يُروى عن بَعضِهم قَولُه: (أنا لا أعبدُ اللهَ حُبًّا ورَغبةً في جنَّتِه، ولا خَوفًا مِن نارِه)! بمعنى: أنَّه لا يَعبُدُه إلَّا بدافِعِ الحبِّ فقط، وهذا غَلَطٌ؛ فالله تعالى أمَرَ بخَوفِه ورجائِه، وأثنى على أوليائِه بالخَوفِ والرَّجاءِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾(٢).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

- جُملةُ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، وأطلَقَ الفَرْدَ على مَن لا ولَدَ له؛ تَشبيهًا له بالمُنفرِدِ الَّذي لا قَرينَ له، فشَبَّهَ مَن لا ولَدَ له بالفَرْدِ؛ لأنَّ الولَدَ يُصَيِّرُ أباهُ كالشَّفعِ؛ لأنَّه كجُزءٍ منه(٣).

- قولُه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ثَناءٌ لتَمهيدِ الإجابةِ، أي: أنت الوارِثُ الحقُّ؛ فاقْضِ عليَّ مِن صِفَتِك العَلِيَّةِ شيئًا، ودَلَّ ذِكْرُ ذلك على أنَّه سأَلَ الولَدَ لأجْلِ أنْ يَرِثَه كما في آيةِ سُورةِ (مَريَم): ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، وحُذِفَت هاتِه الجُملةُ؛ لدَلالةِ المَحْكيِّ هنا عليها(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٨) (٣٥٥٧٢)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (١/ ٣٥)، والحاكم (٣٤٤٧) وصحَّح إسناده.

(٢) يُنظر: ((شرح كلمة الإخلاص)) لابن رجب (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

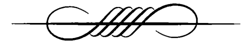
٢- قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تَعليلٌ لِمَا فُصِّلَ مِن فُنونِ إحسانِه تعالى المُتعلِّقةِ بالأنبياءِ المَذْكورينَ، أي: كانوا يُبادِرونَ في وُجوهِ الخيراتِ مع ثَباتِهم واستقرارِهم في أصْلِ الخيرِ، وهو السِّرُّ في إيثارِ كَلمةِ (فِي) على كَلمةِ (إلى) المُشعِرةِ بخِلافِ المقصودِ، مِن كَونِهم خارِجينَ عن أصْلِ الخَيراتِ مُتوجِّهينَ إليها[1].

- وحَرْفُ التَّأكيدِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ مُفِيدٌ مَعنى التَّعليلِ والتَّسبُّبِ، وأفاد فِعْلُ الكَونِ أنَّ ذلك كان دأْبَهم وهِجِّيراهم[2].

- قولُه: ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ وَصْفٌ لمَصدرِ (يَدْعُونَنَا)؛ لبَيانِ نَوعِ الدُّعاءِ بما هو أعَمُّ في جِنْسِه، أو يُقدَّرُ مُضافٌ، أي: ذَوي رغَبٍ ورهَبٍ؛ فيكونُ مِن إقامةِ المُضافِ إليه مُقامَه، فأخَذَ إعرابَه[3].

- وذكَرَ فِعْلَ الكَونِ أيضًا في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ ذلك كان دأْبَهم وهِجِّيراهم[4].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))(١٧/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩١-٩٤)

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ أي: اختَلَفوا، وتفرَّقوا، وأصلُ (قطع): يدُلُّ على صَرمٍ، وإبانةِ شيءٍ مِن شيءٍ[١].

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾: أي: لاجحودَ لعملِه، ولا تضييعَ لجزائِه، وأصلُ (كفر): يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ، والسعيُ: المشيُ السريعُ، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في الأفعالِ المحمودةِ[٢].

مشكلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

قَولُه: ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خبَرُ لـ﴿إِنَّ﴾، ونُصِبَ ﴿أُمَّةً﴾ على الحالِ من ﴿أُمَّتُكُمْ﴾، أو نُصِبَ على البدَلِ مِن ﴿هَذِهِ﴾، فيكونُ قد فُصِلَ بالخبَرِ بين البَدَلِ والمُبدَلِ منه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- مَريمَ التي حَفِظَت فَرْجَها مِنَ الحَرام، فأرسلَ اللهُ إليها جِبريلَ عليه السَّلامُ، فنفخَ في جَيبِ قَميصِها، فوصَلَت النَّفخةُ إلى فَرجِها، فحَمَلت بعِيسى عليه السَّلامُ، وجعَلها الله هي وابنَها علامةً للناسِ تدلُّهم على قُدرتِه.

إنَّ مِلَّةَ الإسلامِ أيُّها الناسُ هي مِلَّتُكم الَّتي يَجِبُ أن تكونوا عليها لا تنحرِفونَ عنها، مِلَّةً واحِدَةً غيرَ مختلفةٍ. واللهُ سُبحانَه وتعالى ربُّكم فاعبُدوه -أيُّها النَّاسُ- وَحْدَه لا شَريكَ له. لكِنَّ النَّاسَ تفرَّقوا في الدِّينِ شِيَعًا وأحزابًا، وكُلُّهم راجِعونَ إلينا ومُحاسَبونَ على ما فَعَلوا. فمَن عَمِلَ مِن صالحِ الأعمالِ طاعةً لله وعبادةً له وهو مُؤمِنٌ، فلا يُضِيعُ اللهُ عَمَلَه ولا يُبطِلُه، بل يُثيبُه عليه يومَ القيامةِ، وإنَّا نكتُبُ أعمالَه الصَّالِحةَ كُلَّها، وسيَجِدُ ما عَمِلَه في كتابِه يومَ يُبعَثُ بعدَ مَوتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّه خَرَق العادةَ في إبداعِ يحيى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بينَ والِدَينِ لا يُولَدُ لِمِثلِهما، تلاه بإبداعِ ابنِ خالتِه عيسى عليه السَّلامُ الذي هو عَلَمٌ للسَّاعةِ، على حالٍ أغرَبَ مِن حالِه، فأخرَجَه مِن أُنثى بلا ذَكَرٍ[1]، فقال تعالى:

= (٢/ ٩٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٠).

قال ابن كثير: (هكذا قرن تعالى قِصَّةَ مَريمَ وابنِها عيسى عليه السَّلامُ بقِصَّةِ زكريَّا وابنِه يحيى =

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- مَريمَ التي حَفِظَت فَرْجَها من الحَرامِ، فأمَرْنا جبريلَ أن يَنفُخَ الرُّوحَ في جَيبِ درعِها[1]، فبَلَغَت النَّفخةُ فَرْجَها، فحَمَلت بعِيسى[2].

= عليهما السَّلامُ، فَيذكُرُ أوَّلًا قصَّةَ زكريا، ثمَّ يُتبِعُها بقِصةِ مَريمَ؛ لأنَّ تلك مُوطِّئةٌ لهذه؛ فإنَّها إيجادُ وَلَدٍ مِن شيخٍ كبيرٍ قد طعَنَ في السِّنِّ، ومِن امرأةٍ عجوزٍ عاقرٍ لم تكن تَلِدُ في حالِ شَبابِها، ثم يذكُرُ قِصَّةَ مَريمَ، وهي أعجَبُ؛ فإنَّها إيجادُ وَلَدٍ مِن أنثى بلا ذكَرٍ، هكذا وقعَ في سورة «آل عمران»، وفي سورةِ «مريم»، وهاهنا ذكَرَ قِصَّةَ زكريا، ثم أتبَعَها بقِصَّةِ مَريمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧١).

(١) دِرْعُ المرأةِ: قميصُها. وجَيْبُ القَميصِ: طَوقُه الذي يَنفَتِحُ على العُنُقِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٠٦)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

قال ابن تيميَّةَ: (ذكر المفَسِّرونَ أنَّ جِبريلَ نفَخَ في جَيبِ دِرعِها، والجَيبُ: هو الطَّوقُ الذي في العُنُقِ، ليس هو ما يسَمِّيه بعضُ العامَّةِ جَيبًا، وهو ما يكونُ في مُقَدَّمِ الثَّوبِ لوَضعِ الدَّراهِمِ ونَحوِها... وذكر أبو الفرج وغيرُه قولين: هل كانت النَّفخةُ في جَيبِ الدِّرعِ، أو في الفَرجِ؟ فإنَّ مَن قال بالأوَّلِ قال: في فَرْجِ دِرعِها، وإنَّ مَن قال هو مَخرَجُ الوَلَدِ قال: الهاءُ كنايةٌ عن غيرِ مذكورٍ؛ لأنَّه إنَّما نفَخَ في دِرعِها لا في فَرْجِها، وهذا ليس بشيءٍ، بل هو عدولٌ عن صريحِ القرآنِ. وهذا النَّقلُ إن كان ثابتًا لم يُناقِضِ القرآنَ، وإن لم يكن ثابتًا لم يُلتَفَتْ إليه؛ فإنَّ مَن نقَلَ أنَّ جِبريلَ نفَخَ في جَيبِ الدِّرعِ، فمُراده أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكشِفْ بدَنَها، وكذلك جبريلُ كان إذا أتى النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعائشةُ متجَرِّدةٌ لم ينظُرْ إليها متجَرِّدةً؛ فنفَخَ في جَيبِ الدِّرعِ فوصَلَت النَّفخةُ إلى فَرْجِها. والمقصودُ إنما هو النَّفخُ في الفَرجِ، كما أخبَرَ الله به في آيتينِ، وإلَّا فالنَّفخُ في الثَّوبِ فقط من غيرِ وُصولِ النَّفخِ إلى الفَرجِ مُخالِفٌ للقرآنِ، مع أنَّه لا تأثيرَ له في حصولِ الولَدِ، ولم يقُلْ ذلك أحَدٌ من أئمَّةِ المُسلِمينَ، ولا نقَلَه أحَدٌ عن عالمٍ مَعروفٍ مِن السَّلَفِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢٦٢، ٢٦٣).

وقال السعدي: (أي: واذكُرْ مَريمَ -عليها السَّلامُ- مُثنيًا عليها، مُبيِّنًا لِقَدْرِها، شاهِرًا لشَرَفِها، فقال: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي: حَفِظَتْه من الحرامِ وقِربانِه، بل ومِنَ الحَلالِ؛ فلم =

كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

أي: وجعَلْنا مَريمَ وابنَها عيسى عَلامةً عَظيمةً للنَّاسِ(١) تدُلُّهم على اللهِ، وعلى قُدرتِه وعَظيمِ سُلْطانِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)﴾.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

أي: إنَّ مِلَّةَ الإسلامِ(٣) ....

= تتزوَّجْ لاشتغالِها بالعبادةِ، واستغراقِ وَقتِها بالخِدمةِ لرَبِّها.

وحينَ جاءها جِبريلُ في صورةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ تامِّ الخَلقِ والحُسنِ ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾، فجازاها اللهُ من جِنسِ عَمَلِها، ورَزَقَها ولدًا مِن غيرِ أبٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(١) قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾: للنَّاسِ في زمانِ مريمَ وعيسى. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨١١).

وقيل: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: لِمَن عاصَرهما مِن عالَمِي زمانِها فمَن بَعدَهم. وممن اختار ذلك: ابن عطية، وأبو حيان، وهو ظاهِرُ اختيارِ البقاعي، والسعدي. ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٣) ممن اختار المعنى المذكورَ، وأنَّ المرادَ بالإشارةِ في قوله: ﴿هَذِهِ﴾: ملةُ الإسلامِ: =

أيُّها الناسُ [١] هي مِلَّتُكم [٢] الَّتي يَجِبُ أن تُحافِظوا على حدودِها، وتُراعوا حقوقَها،

= الزمخشري، والرسعني، والنسفي، وأبو حيان، والعليمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٦٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٨٤).

وقال أبو حيان: (ويحتمِلُ أنْ تكونَ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارَةً إلى الطَّريقةِ الَّتي كانَ عليها الأنبياءُ المذكورونَ مِن توحيدِ اللَّهِ تعالَى هي طريقَتُكم ومِلَّتُكم طريقةً واحدةً لا اختلافَ فيها في أُصولِ العقائدِ، بل ما جاءَ به الأنبياءُ مِن ذلك هو ما جاءَ به محمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤).

وقيل: إنَّ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارةٌ إلى الأنبياءِ والرسلِ عليهم السلامُ. وهو اختيارُ البقاعي، والسعدي، يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٨٤، ٨٥).

(١) ممن اختار أنَّ الخطابَ للناسِ: ابن جرير، ومكي، والزمخشري، والألوسي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٢)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٨١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

وقيل: الخطابُ لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وهو ظاهرُ اختيارِ مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٢).

وقيل: هو خطابٌ لمعاصري الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممن اختاره: أبو حيان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤).

وقيل: هو خطابٌ للأنبياءِ عليهم السلامُ. قاله أبو سليمان الدمشقي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٦٦).

(٢) ممن اختار أنَّ المرادَ بالأمَّةِ: الملةُ والدِّينُ والشريعةُ في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، والنسفي، والألوسي ونسَبه للجمهورِ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤)، =

وأنْ تكونوا عليها، لا تنحرِفونَ عنها، مِلَّةً واحِدَةً، غيرَ مختلفةٍ[1].

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

أي: وأنا -لا غيري- مَنْ خلَقْتُكم وربَّيْتُكم بنِعَمي، فما دام أنَّ الرَّبَّ واحِدٌ والدِّينَ واحِدٌ، فأفرِدُوني بالعِبادةِ، ولا تُشرِكوا بي، ولا تختَلِفوا في ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ

= ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والسُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٢)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧١).

قال الألوسي: (وقيل: إنَّ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارةٌ إلى جماعةِ الأنبياءِ المذكورينَ عليهم السلامُ، والأُمَّةُ بمعنى الجماعةِ، أي: إنَّ هؤلاء جماعتُكم التي يلزمُكم الاقتداءُ بهم، مجتمعينَ على الحقِّ، غيرَ مختلفينَ. وفيه جهةُ حُسْنٍ، كما لا يخفَى، والأوَّلُ أحسنُ وعليه جمهورُ المفسرينَ، وهو المرويُّ عن ابنِ عباسٍ ومجاهدٍ وقتادةَ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٨٥).

وممن اختار هذا القولَ: البقاعيُّ، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

قال السعدي: (﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: هؤلاءِ الرُّسلُ المذكورونَ هم أُمَّتُكم وأئِمَّتُكم الذين بهم تأْتمُّون، وبهَدْيِهم تقتدونَ، كلُّهم على دينٍ واحدٍ، وصراطٍ واحدٍ، والربُّ أيضًا واحدٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٦).

عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥١- ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أنا أَولى النَّاسِ بعِيسى [1] ابنِ مَريمَ في الأُولى والآخرةِ. قالوا: كيفَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الأنبياءُ إخوةٌ مِن عَلَّاتٍ [2]، وأمَّهاتُهم شَتَّى، ودينُهم واحِدٌ، فليس بيننا نبيٌّ)) [3].

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾.

أي: وتفرَّق النَّاسُ [4] في دينِهم الذي شرَعَه اللهُ لهم، فصاروا فيه فِرَقًا وأحزابًا

---

(١) أَولى النَّاسِ بعِيسى: أخصُّهم به، وأقربُهم إليه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٠٧).

(٢) أولادُ العَلَّاتِ: الذين أمهاتُهم مُختلفةٌ وأبوهم واحِدٌ؛ أراد أنَّ إيمانَهم واحدٌ، وشرائِعَهم مُختلفةٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

(٣) رواه مسلم (٢٣٦٥).

(٤) ممن اختار أنَّ الضميرَ يرجعُ إلى الناسِ أو جميعِ الخلقِ: ابن جرير، والسمعاني، وابن كثير، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٦).

وقيل: المرادُ: المشركون؛ ذمَّهم الله تعالى؛ لمخالفتِهم الحقَّ، واتخاذِهم آلهةً مِن دونِ الله. وممن اختاره: القرطبي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤١).

قال الشوكاني: (والمقصودُ بالآيةِ المشركونَ، ذَمَّهم اللَّهُ بمخالفةِ الحقِّ واتِّخاذِهم آلهةً مِن دونِ اللَّهِ. وقيلَ: المرادُ جميعُ الخلقِ، وأنَّهم جَعلوا أمرَهم في أديانِهم قِطَعًا وتَقَسَّموه بينَهم؛ فهذا موحِّدٌ، وهذا يهودِيٌّ، وهذا نصرانيٌّ، وهذا مجوسِيٌّ، وهذا عابدُ وثنٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٣). =

شَتَّى[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾.

أي: كُلُّ أولئك المتفَرِّقينَ المُختَلِفينَ في دينِ اللهِ صائِرونَ إلينا يَومَ القيامةِ، فنحكُمُ بينهم ونُجازيهم على أعمالِهم؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ[2].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤ ﴾.

= وقال ابن عاشور: (ويجوزُ أنْ تكونَ الضَّمائرُ عائدةً إلى أُمَمِ الرُّسلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤١).

وممن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

وقيل: المرادُ: أهلُ الكتابِ. واختاره ابنُ أبي زمنين، وقصَره الرسعني على اليهودِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

قال الواحدي: (الصَّحيحُ أنَّ هذا إخبارٌ عن جميعِ مُخالفي شريعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ يقولُ: اختَلَفوا في الدينِ فصاروا فيه فِرَقًا وأحزابًا. ويجوزُ أن يكونَ هذا الاختلافُ راجِعًا إلى اختلافِ أهلِ كُلِّ مِلَّةٍ، كاختلافِ اليَهودِ فيما بينَهم، واختلافِ النَّصارى، وهذا هو الظَّاهِرُ. ويجوز أن يرجِعَ إلى مخالفَتِهم دينَ الحَقِّ). ((البسيط)) (١٥/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾.

أي: فمَن يعمَلْ مِن[1] الأعمالِ الصَّالحةِ وهو مُؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه، والحالُ أنَّه مُوحِّدٌ لله تعالى مُخلِصٌ له في عَمَلِه؛ فلن يجحَدَ اللهُ عَمَلَه ولن يُضيعَه، بل يُثيبُه عليه يومَ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

أي: ونحن نكتُبُ أعمالَه الصَّالِحةَ كُلَّها، صَغيرَها وكَبيرَها، لا نَترُكُ منها شَيئًا، وما كتَبْناه غيرُ ضائعٍ، بل هو باقٍ لصاحِبِه؛ لِنُطلِعَه عليه يومَ الجَزاءِ، ونجازيَه على ما قدَّمَ[3].

---

(١) قال الواحدي: (قال صاحِبُ النظمِ [أبو علي الجُرْجاني]: «مِنْ» هاهنا للتَّبعيضِ، أي: ومَن يعمَلْ شَيئًا مِن الصالحات، أي: مِن أداءِ الفَرائضِ، وغيرِها مِن صِلةِ الرَّحِمِ، ونَصرِ المظلومِ، ومَعونةِ الضَّعيفِ، ونحو ذلك من أعمالِ البِرِّ). ((البسيط)) (١٥/ ٩٠).
وقال القرطبيُّ: («مِنْ» للتبعيضِ لا للجِنسِ؛ إذْ لا قُدرةَ للمُكَلَّفِ أن يأتيَ بجَميعِ الطَّاعاتِ كُلِّها، فَرضِها ونَفْلِها). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٠،٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٠).
قال الواحدي: (المعنى: نأمُرُ الحَفَظةَ بأن يكتُبوا لذلك العامِلِ ما عَمِلَ مِن الخيرِ؛ لنُجازيَه به). ((البسيط)) (١٥/ ١٩١).
=

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ فيه حَثٌّ على الاجتِماعِ، وتجنُّبِ الاختِلافِ[١]، ولا شَكَّ أنَّ تحزُّبَ المُسلِمينَ إلى أحزابٍ مُتفرِّقةٍ مُتناحِرةٍ مُخالِفٌ لِما تقتَضيه الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ مِن الائتِلافِ والاتِّفاقِ، موافِقٌ لِما يريدُه الشَّيطانُ مِن التَّحريشِ بينَ المُسلِمينَ، وإيقاعِ العَداوةِ والبَغضاءِ، وصَدِّهم عن ذِكرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾، وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[٢] [آل عمران: ١٠٥].

٢- المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ ترغيبُ العبادِ في التمسُّكِ بطاعةِ الله تعالى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أنَّ مَن قذَف مريمَ -والعياذُ بالله- فإنَّه يُقتَلُ؛ لأنَّه حتى لو فرَضْنا أنَّه ليس مِن بابِ القَذفِ؛ فهو مِن بابِ تكذيبِ القرآنِ[٤].

= وقال السعدي: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ أي: مُثبِتونَ له في اللَّوحِ المحفوظِ، وفي الصُّحُفِ التي مع الحَفَظةِ. ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٠، ٥٣١).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٤/ ٢٨١).

٢- في قولِه تعالى: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: دينًا واحدًا -وهو الإسلامُ- غيرَ مختلفٍ؛ فأبطَل ما سِوَى الإسلامِ مِن الأديانِ[1].

٣- قول الله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾، لما كان المقصودُ تعيينَ المرادِ مِن غيرِ لبسٍ، عدَل عن صيغةِ العظمةِ، فقال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عبَّرَ عن مَريمَ عليها السَّلامُ بالموصولِ؛ دَلالةً على أنَّها قدِ اشتُهِرَتْ بمَضمونِ الصِّلةِ، وأيضًا لِمَا في الصِّلةِ مِن معنى تَسفيهِ اليهودِ الَّذين تَقوَّلوا عنها إفْكًا وزُورًا، ولِيُبْنَى على تلك الصِّلةِ ما تَفرَّعَ عليها مِن قولِه تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ الَّذي هو في حُكْمِ الصِّلةِ أيضًا، فكأنَّه قِيلَ: والَّتي نَفَخْنا فيها من رُوحِنا؛ لأنَّ كِلَا الأمْرينِ مُوجِبُ ثَناءٍ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال في سُورةِ (التَّحريمِ): ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، ففي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٣/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٨).

الأُولى ﴿فِيهَا﴾، وفي الثَّانيةِ ﴿فِيهِ﴾، فوقَعَ اختلافٌ في الضَّميرينِ مع اتِّحادِ المعنى؛ ووَجْهُه: أنَّه لمَّا كان القصْدُ في سُورةِ (الأنبياءِ) إلى الإخبارِ عن حالِ مَريمَ وابْنِها، وأنَّهما جُعِلَا آيةً للنَّاسِ، وكان النَّفخُ فيها ممَّا جعَلَها حامِلًا، والحامِلُ صِفَةٌ للجُملةِ؛ فلمَّا كان القصْدُ التَّعجُّبَ مِن حالَيْهما، وأنَّها بالنَّفخِ صارت حامِلًا، رُدَّ الضَّميرُ إلى جُمْلَتِها؛ إذ كان النَّفخُ في فَرْجِها نَفْخًا فيها، أوجَبَ القصْدُ إلى وَصْفِها بعْدَ النَّفخِ بصِفَةٍ تَرجِعُ إلى جُمْلَتِها دونَ بَعْضِها، كان قولُه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٩١] أَولى مِن قولِه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ [التحريم: ١٢]. وأمَّا قولُه في سُورةِ (التَّحريمِ): ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، فكان الكلامُ مقصورًا على ذكرِ إحصانِها، وتصديقِها بكلماتِ ربِّها، وكان النفخُ أَصاب فرجَها، وهو مذكَّر، فجاء اللَّفظُ على أصْلِه، والمعنى: نَفَخْنا في فَرْجِها، ولم يُسَقِ الكلامُ إلى ما سِيقَ إليه في سُورةِ (الأنبياءِ) مِن وَصْفِ حالِها بعْدَ النَّفخِ؛ فاخْتَلَفا لذلك[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- والظَّرفيَّةُ المُفادَةُ بـ (في) كَونُ مَريمَ ظَرْفًا لحُلولِ الرُّوحِ المنفوخِ فيها؛ إذ كانت وِعاءَهُ؛ ولذلك قيل: ﴿فِيهَا﴾ ولم يُقَلْ: (فِيهِ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحَمْلَ الَّذي كُوِّنَ في رَحِمِها حَمْلٌ مِن غيرِ الطَّريقِ المُعتادِ، كأنَّه قِيلَ: فنفَخْنا في بَطْنِها، وذلك أعرَقُ في مُخالَفةِ العادةِ؛ لأنَّ خَرْقَ العادةِ تَقْوى دَلالَتُه بمِقْدارِ ما يَضمحِلُّ فيه مِن الوسائلِ المُعتادةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩١٢، ٩١٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٩، ١٨٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٨).

- ومن المُناسَبةِ أيضًا: ذِكْرُ مَريمَ وابْنِها عليهما السَّلامُ في سُورةِ (الأنبياءِ)، وذِكْرُ مَريمَ فقطْ في سُورةِ (التَّحريمِ)؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ آيَةَ (الأنبياءِ) ورَدَت معطوفةً على آياتٍ تَضمَّنْت ذِكْرَ جُملةٍ من الرُّسلِ، فلمَّا ذُكِر هؤلاء الرُّسلُ عليهم السَّلامُ بخَصائصَ ومِنَحٍ، ناسَبَ ذلك ذِكْرُ مَريمَ وابْنِها بما مُنِحَا عليهما السَّلامُ. وأمَّا آيةُ (التَّحريمِ) فمَقصودٌ فيها ذِكْرُ عَظيمتينِ جَليلتينِ يُبيَّنُ بهما حُكْمُ سَبقيَّةِ القَدَرِ بالإيمانِ والكُفْرِ، وهما قَضيَّةُ امرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ، وأنَّ انضواءَهما إلى هذينِ النَّبيَّينِ الكَريمينِ عليهما السَّلامُ انضواءُ الزَّوجيَّةِ الَّتي لا أقرَبَ منها، ومع ذلك لم يُغْنِيا عنهما مِن اللهِ شَيئًا، وقِصَّةُ امرأةِ فِرْعونَ، وقدِ انضوتْ إلى أكفَرِ كافرٍ، فلم يَضُرَّها كُفْرُه، ثمَّ ذُكِرَت مَريمُ عليها السَّلامُ؛ لِلالتقاءِ في الاختصاصِ وسَبقيَّةِ السَّعادةِ، ولم يَدْعُ داعٍ إلى ذِكْرِ ابْنِها، فلا وَجْهَ لذِكْرِه هنا، وأمَّا آيةُ (الأنبياءِ) فلِذِكْرِه هناك أوضَحُ حاملٍ؛ فجاء كلٌّ على ما يَجِبُ، ولا يُمكِنُ فيه عَكْسُ الواردِ[1].

- قولُه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ إضافةُ الرُّوحِ إلى اللهِ تعالى إضافةُ تَشريفٍ، حيث أسنَدَ النَّفخَ إليه تعالى لمَّا كان ذلك مِن جِبْريلَ بأمْرِه تعالى تَشريفًا؛ فإنَّه رُوحٌ مَبعوثٌ مِن لَدُنِ اللهِ تعالى بدُونِ وَساطةِ التَّطوُّراتِ الحيوانيَّةِ للتَّكوينِ النَّسْليِّ[2].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قَدَّمَها على الابنِ لَمَّا كان السِّياقُ في ذكرِها في قولِه: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، ولذلك قَدَّمَ الابنَ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٨، ١٣٩).

في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ وحسَّنه تَقَدُّمُ موسَى في الآيةِ قبلَه(1).

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عبَّرَ عنهما بـ﴿ءَايَةً﴾ بالإفرادِ؛ لأنَّ حالَهما لمَجموعِهما آيةٌ واحدةٌ؛ وهي وِلادتُها إيَّاهُ مِن غيرِ فَحْلٍ. وقيل: أُرِيدَ بالآيةِ الجِنْسُ الشَّاملُ لِمَا لكلِّ واحدٍ منهما مِن الآياتِ المُستقلَّةِ. وقيل: المعنى: وجعَلْناها آيةً، وابْنَها آيةً، فحُذِفَتِ الأُولى؛ لدَلالةِ الثَّانيةِ عليها(2).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ ابتداءُ كلامٍ مَحْكِيٍّ بقَولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ، والخِطابُ للأنبياءِ المَذْكورينَ في الآياتِ السَّابقةِ -على قولٍ في التفسير-، والتَّقديرُ: قائلينَ لهم: إنَّ هذه أُمَّتُكم... إلى آخِرِه، والتَّأكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾ على هذا الوَجْهِ؛ لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبَرِ؛ لِيتلقَّاهُ الأنبياءُ بقُوَّةِ عَزْمٍ، أو رُوعِيَ فيه حالُ الأُمَمِ الَّذين يَبلُغُهم ذلك. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ استئنافًا، والخِطابُ لأُمَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: إنَّ هذه المِلَّةَ -وهي الإسلامُ- هي مِلَّةٌ واحدةٌ لسائرِ الرُّسلِ، والتَّأكيدُ على هذا لِرَدِّ إنْكارِ مَن يُنكِرُ ذلك مِثْلُ المُشرِكينَ(3).

- وتَعريفُ الإضافةِ في قولِه: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ لِلاختِصاصِ، أي: هذه المِلَّةُ

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٩).

قال ابنُ عاشورٍ: (ومِن لطائفِ هذا الإفرادِ أنَّ بينَ مريمَ وابنِها حالَةً مشتركَةً هي آيةٌ واحدَةٌ، ثُمَّ في كلٍّ منهما آيةٌ أُخرَى مُسْتَقِلَّةٌ باختلافِ حالِ النَّاظرِ المتأملِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٣٩، ١٤٠).

مُتعيِّنةٌ لكم؛ فلا مَجالَ للانحرافِ عنها[١].

- قولُه: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ، أفادتِ التَّمييزَ والتَّشخيصَ لحالِ الشَّرائعِ الَّتي عليها الرُّسلُ، أو الَّتي دعا إليها محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- وأفادَ قولُه: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ الحصْرَ، أي: أنا لا غَيري؛ بقَرينةِ السِّياقِ والعطْفِ على ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ إذ المعنى: وأنا ربُّكم ربًّا واحدًا، ولذلك فرَّعَ عليه الأمْرَ بعِبادتِه، أي: فاعْبُدونِ دونَ غَيري[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، وقال في سُورةِ (المُؤمِنون): ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]؛ فوقَعَ اختلافٌ بين قولِه: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾، وقولِه: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ في الآيتينِ؛ ووَجْهُه: أنَّ سُورةَ (الأنبياءِ) لم يَرِدْ فيها ذِكْرُ لفْظِ التَّقوى في أمْرٍ ولا خبَرٍ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها، وورَدَ الأمْرُ بالعبادةِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وأمَّا سُورةُ (المُؤمِنون) فتكرَّرَ فيها ذِكْرُ التَّقوى في ثَلاثةِ مَواضِعَ؛ أوَّلُها: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وفيما بعْدَ الآيةِ المُتكلَّمِ فيها: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧]؛ فرُوعِيَ في الأُولى ما تَقدَّمَها، ونُوسِبَ بالثَّانيةِ ما اكْتنَفَها. وأيضًا فإنَّ العِبادةَ مأْمورٌ بها ليَحصُلَ الاتِّقاءُ، فهي مُقدَّمةٌ في الطَّلبِ لتَحصيلِ ما يَتسبَّبُ عنها إذا كانت

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإجابةُ، وعلى ذلك ورَدَ دُعاءُ الخَلْقِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فالاتِّصافُ بالتَّقوى ثانٍ عن الاتِّصافِ بالعِبادةِ، فقيل في (الأنبياءِ): ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وفي سُورةِ (المُؤمِنون): ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٨٧]، وكِلَاهما ذُكِرَ على مُقْتضى التَّرتيبِ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ ضَمائرُ الغَيبةِ فيه عائدةٌ إلى مَفهومٍ مِن المَقامِ، وهم الَّذين مِن الشَّأْنِ التَّحدُّثُ عنهم في القُرآنِ المَكِّيِّ بمِثْلِ هذه المَذامِّ، وهم المُشرِكونَ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الضَّمائرُ عائدةً إلى أُمَمِ الرُّسلِ؛ فعلى أنَّ ضَمائرَ الخِطابِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] للرُّسلِ، يكونُ الكلامُ انتقالًا مِن الحِكايةِ عن الرُّسلِ إلى الحِكايةِ عن حالِ أُمَمِهم في حَياتِهم، أو الَّذين جاؤوا بعْدَهم مِثْلُ اليهودِ والنَّصارى؛ إذ نَقَضوا وَصايَا أنبيائِهم. وعلى أنَّ ضَمائرَ الخِطابِ لأُمَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، تكونُ ضَمائرُ الغَيبةِ الْتِفاتًا؛ لمَّا كان هذا الفِعْلُ من أقبَحِ المُرتكَباتِ، عُدِلَ عن الخِطابِ إلى لَفظِ الغَيبةِ؛ كأنَّ هذا الفِعْلَ ما صَدَرَ مِن المُخاطَبِ؛ لأنَّ في الإخبارِ عنهم بذلك نَعْيًا عليهم ما أفْسَدوهُ، وكأنَّه يُخبِرُ غيرَهم ما صَدَرَ مِن قَبيحِ فِعْلِهم، ويقولُ: ألَا تَرى إلى ما ارتكَبَ هؤلاء في دِينِ اللهِ؛ جَعَلوا أمْرَ دِينِهم قِطعًا كما يَتوزَّعُ الجَماعةُ الشَّيءَ، لهذا نَصيبٌ، ولهذا

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩١٤-٩٢٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٧، ٣٧٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢١، ٣٢٢).

نَصيبٌ؛ تَمثيلًا لاختِلافِهم(١).

- قولُه: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ فيه إسنادُ التَّقطُّعِ إليهم؛ لأنَّهم جَعَلوا أنفُسَهم فِرَقًا؛ فعَبَدوا آلِهةً مُتعدِّدةً، واتَّخذَت كلُّ قَبيلةٍ لنَفْسِها إلهًا مِن الأصنامِ مع اللهِ، فشَبَّه فِعْلَهم ذلك بالتَّقطُّعِ، وزِيادةُ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم تَعاونوا وتَظاهَروا على تَقطُّعِ أمْرِهم؛ فرُبَّ قَبيلةٍ اتَّخذَتْ صَنمًا لم تكُنْ تَعبُدُه قَبيلةٌ أُخْرى، ثمَّ سَوَّلوا لِجيرَتِهم وأحلافِهم أنْ يَعبُدوهُ، فألْحَقوه بآلِهَتِهم(٢)، وهذا على أنَّ المرادَ بهم المشركونَ.

- وجُملةُ: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لجَوابِ سُؤالٍ يَجيشُ في نَفْسِ سامِعِ قولِه تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾، وهو مَعرِفةُ عاقبةِ هذا التَّقطُّعِ. وفيه تَعريضٌ بالتَّهديدِ، ودَلَّ على ذلك التَّفريعُ في قولِه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى آخِرِه(٣).

- في قولِه: ﴿إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أورَدَ اسمَ الفاعلِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والتَّحقُّقِ(٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ تَفصيلٌ للجزاءِ(٥). وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ على الوعيدِ المُعرَّضِ به في قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٢، ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وهو تَفريعٌ بَديعٌ مِن بَيانِ صِفَةِ ما تُوعِّدوا به، وذلك من قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧] الآياتِ. وقَدَّمَ وَعْدَ المُؤمِنين بجَزاءِ أعمالِهم الصَّالحةِ؛ اهتمامًا به، ولوُقوعِه عَقِبَ الوعيدِ؛ تَعجيلًا لِمَسرَّةِ المُؤمِنين قبْلَ أنْ يَسمَعوا قَوارِعَ تَفصيلِ الوعيدِ؛ فليس هو مَقصودًا مِن التَّفريعِ، ولكنَّه يُشبِهُ الاستطرادَ تَنويهًا بالمُؤمِنين، كما سيُعْتَنى بهم عَقِبَ تَفصيلِ وَعيدِ الكافرينَ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ...﴾ [الأنبياء: ١٠١] إلى آخِرِ السُّورةِ[١].

- قولُه: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ عبَّرَ عن ذلك بالكُفرانِ الَّذي هو سَتْرُ النِّعمةِ وجُحودُها؛ لِبَيانِ كَمالِ نَزاهتِه تعالى عنه بتَصويرِه بصُورةِ ما يَستحيلُ صُدورُه عنه تعالى مِن القبائحِ، وإبرازِ الإثابةِ في مَعرِضِ الأُمورِ الواجبةِ عليه تعالى، ونَفَى نَفْيَ الجِنْسِ؛ للمُبالَغةِ في التَّنزيهِ، وعبَّرَ عن العمَلِ بالسَّعيِ؛ لإظهارِ الاعتدادِ به[٢].

- وأكَّدَ ذلك بـ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ مُؤكَّدًا بحَرْفِ التَّأكيدِ؛ للاهتمامِ به[٣].

- والكِتابةُ في ﴿كَاتِبُونَ﴾ كِنايةٌ عن تَحقُّقِه، وعدَمِ إضاعتِه؛ لأنَّ الاعتناءَ بإيقاعِ الشَّيءِ يَستلزِمُ الحِفْظَ عن إهمالِه وعن إنكارِه، وذلك مع كونِ الكِتابةِ مُستعمَلةً في مَعناها الأصليِّ، كما جاءت بذلك الظَّواهرُ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٣، ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٣، ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٤).

الآيات (٩٥-١٠٠)

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَدَبٍ﴾: أي: مَكانٍ مُرتَفِعٍ مِنَ الأرضِ، وأصلُ (حدب): يَدُلُّ على ارتِفاعِ الشَّيءِ(١).

﴿يَنسِلُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ؛ مِنَ النَّسَلانِ: وهو مُقارَبةُ الخَطْوِ مع الإسراعِ، وأصلُ (نسل): يَدُلُّ على انسِلالِ شَيءٍ بسُرعةٍ(٢).

﴿شَاخِصَةٌ﴾: أي: مُرتَفِعةُ الأجفانِ، لا تكادُ تَطرِفُ مِن هَولِ ما هم فيه، وأصلُ (شخص): يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥٤)، =

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: أي: حَطَبُها وما أُلقِيَ فيها، وكلُّ شَيءٍ أَلقيتَه في نارٍ فهو حصبٌ، وأصلُه مِن الحَصباءِ، وهي: الحَصى[1].

﴿وَارِدُونَ﴾: أي: داخِلونَ، وأصلُ (ورد): يَدُلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ[2].

﴿زَفِيرٌ﴾: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدلُّ على صَوتٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: ومُمتَنِعٌ على قريةٍ أهلَكْناها بسَبَبِ كُفرِهم وظُلمِهم، أن يَرجِع أهلُها، حتى إذا فُتِحَ سَدُّ يأجوجَ ومأجوجَ، وأقبلوا مِن مُرتَفِعاتِ الأرضِ وانتَشَروا في جَنَباتِها مُسرِعينَ؛ دنا يومُ القيامةِ وبدَتْ أهوالُه، فإذا أبصارُ الكُفَّارِ مِن شِدَّةِ الفَزَعِ مَفتوحةٌ لا تَطْرِفُ، يقولونَ: يا وَيلَنا! قد كُنَّا لاهينَ غافلينَ عن هذا اليَومِ وعنِ الإعدادِ له، بل كُنَّا ظالِمينَ بكُفرِنا برَبِّنا.

إنَّكم -أيُّها الكُفَّارُ- وما كُنتُم تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ وَقودُ جَهنَّمَ وحَطَبُها، أنتم

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥). ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٠)، ((تفسير الآلوسي)) (٤/ ١٨٨).

وهم فيها داخِلونَ. لو كان هؤلاءِ آلِهةً تَستَحِقُّ العبادةَ ما دخلوا نارَ جهنَّمَ معكم -أيُّها المُشرِكونَ. وكُلٌّ مِنَ الآلهةِ الباطِلةِ وعابِديها خالِدونَ في نارِ جَهنَّمَ. لهم فيها زَفيرٌ مِن شِدَّةِ عَذابِهم، وهم في النَّارِ لا يَسمَعونَ؛ مِن هَولِ عَذابِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: ومُمتَنِعٌ على قَريةٍ أهلَكْناها أن يَرجِعَ أهلُها[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٥ - ٣٩٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٥).

قيل: المعنى: ممتَنِعٌ على قريةٍ أهلَكْناها أن يَرجِعَ أهلُها بعد مَوتِهم إلى الدُّنيا. وممن اختار هذا المعنى: الواحدي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

وممن ذهب إلى هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وعكرمةُ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٢).

وذهب ابنُ جرير والنَّحَّاس إلى أن المعنى: ومُمتَنِعٌ على أهل قرية أهلكناهم بالطَّبعِ على قُلوبِهم أنَّهم يتوبونَ ويَرجِعونَ عن كُفرِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٥ - ٣٩٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٥٦، ٥٧).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢).

وإلى مِثلِ ذلك ذهب الزمخشريُّ، إلَّا أنه قدَّر المعنى: وممتَنِعٌ على قريةٍ عَزَمْنا على إهلاكِها أو قَدَّرْنا إهلاكَها أنَّهم يتوبون ويَرجِعونَ عن كُفرِهم إلى أن تقومَ القيامة، فحينئذٍ يتوبون حين لا تنفَعُ التوبة ويندَمونَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤).

وذهب الزجاجُ إلى أن المعنى: حرامٌ على قريةٍ أهلكناها أن نتقَبَّلَ منهم عملًا؛ لأنَّهم لا يَرجِعونَ، أي: لا يتوبونَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٠٥).

وقيل: المعنى: وممتَنِعٌ على الكَفَرةِ الـمُهلَكين في الدُّنيا بالموتِ أنَّهم لا يرجعونَ إلى الله، =

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٤].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾.

أي: حتى إذا فُتِحَ السَّدُّ الذي حُبِسَ وراءَه قَبيلَتا يأجوجَ ومأجوجَ، فخَرَجوا منه[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٤ - ٩٩].

وعن زَينَبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

= بل هم راجِعونَ ومَبعوثونَ يوم القيامةِ. وهذا المعنى: جَوَّزه ابن عطية، وذهب إليه البقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

قال الواحدي: (معنى فَتحِهما: إخراجُهما عن السَّدِّ الذي جُعِلا وراءَه، وكأنَّهما قُيِّدا بذلك السَّدِّ، فإذا ارتفَعَ السَّدُّ انفتَحا). ((الوسيط)) (٣/ ٢٥٢).

قال ابنُ كثير: (هم مِن نَسلِ نوحٍ مِن أولادِ يافثَ؛ أبي التُّركِ، والتُّركُ شِرذَمةٌ منهم، تُركوا مِن وراء السَّدِّ الذي بناه ذو القرنينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢).

((دخَلَ عليها فَزِعًا يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ للعَرَبِ مِن شَرٍّ قد اقترَب، فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ[1] يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وحَلَّقَ بإصبَعِه الإبهامِ والتي تليها- فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟! قال: نَعَم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ[2]))[3].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وعَقَد بيدَه تِسعينَ[4]))[5].

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

أي: ويأجوجُ ومأجوجُ عندَ خُروجِهم يُقْبِلونَ مِن كُلِّ مَكانٍ مُرتَفِعٍ، فيَمشُونَ مُسرِعينَ للإفسادِ في الأرضِ[6].

عن النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم

---

(١) الرَّدمُ: السَّدُّ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٢١).

(٢) الخَبَثُ: الفُسُوقُ والفُجورُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٣).

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٠).

(٤) عَقدُ التِّسعينَ: مِن مُواضَعاتِ الحِسابِ، وهو أن تجعَلَ رأسَ الإصبَعِ السَّبابةِ في أصلِ الإبهامِ، وتضُمَّها حتى لا يَبِينَ بينهما إلَّا خَلَلٌ يَسيرٌ. يُنظر: ((النهاية)) الأثير (٢/ ٢١٦).

(٥) رواه البخاري (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١) واللفظ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٥ - ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

قال الواحدي: (المعنى: وهم مِن كلِّ شيءٍ مِن الأرضِ يُسرِعونَ، يعني: أنَّهم يتفرَّقونَ في الأرضِ، فلا ترى أكَمةً إلَّا وقَومٌ منهم يَهبِطونَ منها مُسرِعينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٢٥٢).

وقال السَّعدي: (ينفَتِحُ السَّدُّ عنهم، فيَخرُجونَ إلى النَّاسِ في هذه الحالةِ والوَصفِ الذي ذكره اللهُ مِن كُلِّ مكانٍ مُرتَفِعٍ، وهو الحَدَبُ، ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي: يُسرِعونَ. وفي هذا دَلالةٌ على كَثرَتِهم الباهرةِ، وإسراعِهم في الأرضِ؛ إمَّا بذواتِهم، وإمَّا بما خلَقَ اللهُ لهم من الأسبابِ التي تقَرِّبُ لهم البعيدَ، وتُسَهِّلُ عليهم الصَّعبَ، وأنَّهم يَقهَرونَ النَّاسَ، ويَعلُونَ عليهم في الدُّنيا، وأنَّه لا يَدَ لأحَدٍ بقِتالِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

-في آخرِ حديثِ الدَّجّالِ الطويلِ: ((ويَبعَثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلونَ، فيمُرُّ أوائِلُهم على بُحَيرةِ طَبَرِيَّةَ، فيَشرَبونَ ما فيها، ويمُرُّ آخِرُهم فيَقولونَ: لقد كان بهذه مَرَّةً ماءٌ! ويُحصَرُ[1] نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، حتى يكونَ رأسُ الثَّورِ لأحَدِهم خَيرًا مِن مئةِ دينارٍ لأحَدِكم اليومَ! فيَرغَبُ[2] نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، فيُرسِلُ اللهُ عليهم النَّغَفَ[3] في رِقابِهم، فيُصبِحونَ فَرْسَى[4] كمَوتِ نَفْسٍ واحدةٍ، ثمَّ يَهبِطُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ، فلا يَجِدونَ في الأرضِ مَوضِعُ شِبرٍ إلّا ملأه زَهَمُهم[5] ونَتْنُهم، فيَرغَبُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى الله، فيُرسِلُ اللهُ طَيرًا كأعناقِ البُختِ[6] فتَحمِلُهم فتَطرَحُهم حيثُ شاء الله، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ مَطرًا لا يَكُنُّ منه بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[7]، فيَغسِلُ الأرضَ حتى يترُكَها كالزَّلَفةِ[8]، ثمَّ يُقالُ للأرضِ: أنبتي ثَمرتَك، ورُدِّي بركَتَك، فيَومَئذٍ تأكُلُ العِصابةُ

(١) يُحصَرُ: أي: يُحبَسُ في جبلِ الطورِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا القاري (٨/ ٣٤٦٣).

(٢) فيَرغَبُ -أي: إلى الله- أي: يدعو. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٣).

(٣) النَّغَفُ: دودٌ يكونُ في أنوفِ الإبِلِ والغَنَمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٤) فَرْسَى: أي: قَتْلَى. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٥) زَهَمُهم: أي: رائحتُهم الكريهةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٦٩).

(٦) البُختِ: نَوعٌ من الإبِلِ، أي: طيرًا أعناقُها في الطُّولِ والكِبَرِ كأعناقِ البُختِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٤).

(٧) بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمعُ مَدرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ مِن الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ؛ كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبِلِ، والمرادُ به هنا البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ؛ كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) محمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٨) كالزَّلَفةِ: أي: كالمِرْآةِ، شَبَّهَها بالمِرآةِ في صَفائِها ونَظافَتِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

مِن الرُّمَّانةِ، ويَستَظِلُّونَ بِقِحْفِها[١]، ويُبارَكُ في الرِّسْلِ[٢] حتى إنَّ اللِّقْحةَ[٣] مِن الإبِلِ لَتَكفي الفِئامَ[٤] مِن النَّاسِ! واللِّقْحةَ مِن البَقَرِ لَتكفي القبيلةَ مِن النَّاسِ! واللِّقْحةَ مِنَ الغَنَمِ لَتكفي الفَخْذَ مِن النَّاسِ! فبينما هم كذلك إذ بَعَث اللهُ ريحًا طَيِّبةً، فتأخُذُهم تحتَ آباطِهم، فتَقبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤمِنٍ وكُلِّ مُسلِمٍ، ويبقَى شِرارُ النَّاسِ، يَتَهارجونَ[٥] فيها تهارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقومُ السَّاعةُ))[٦].

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾.

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: حتى إذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوجُ اقتَرَبَ مَجيءُ يومِ القيامةِ الذي وعَدَ اللهُ بإتيانِه وأن يَبعَثَ فيه عِبادَه مِن قُبورِهم للحِسابِ والجَزاءِ[٧]؛ فإنَّه إذا وُجِدَت

---

(١) بِقِحْفِها: أي: بقِشْرِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٢) الرِّسْلِ: أي: اللَّبَنِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٣) اللِّقْحَةَ: أي: النَّاقةَ الحَلُوب. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٤) الفِئامَ: أي: الجماعةَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٥).

(٥) يَتهارَجونَ: أي: يُجامِعُ الرِّجالُ النِّساءَ عَلانِيَةً بحَضرةِ النَّاسِ، كما يفعَلُ الحَميرُ، ولا يكترِثونَ لذلك! وقيل: يَختَلِطونَ ويتخاصَمونَ ويتقاتَلونَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ١٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٦).

(٦) رواه مسلم (٢٩٣٧).

(٧) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالوعدِ الحَقِّ هنا: يومُ القيامة: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وابنُ زيد، والربيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٠٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٦٧٨).

تلك الأهوالُ والفِتَنُ والمحَنُ الواقِعةُ في آخِرِ الزَّمانِ، فقد اقتَرَبت السَّاعةُ(١).

﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: فإذا أبصارُ الكُفَّارِ مَفتوحةٌ لا تَطرِفُ؛ مِن شِدَّةِ ما يَرَونَه مِن أهوالٍ وأمورٍ عِظامٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢- ٤٣].

﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

قال ابنُ الجوزي: (فإن قيل: أين جوابُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾؟ ففيه قولان: أحدُهما: أنَّه قَولُه تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ والواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ﴾ زائدةٌ، قاله الفَرَّاءُ. قال: ومِثلُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٣- ١٠٤] المعنى: ناديناه... والثاني: أنَّه قَولٌ مَحذوفٌ في قَولِه: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ فالمعنى: حتى إذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوجُ واقتَرَب الوَعدُ، قالوا: يا ويلَنا. قال الزجَّاج: هذا قولُ البصريينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢١١)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٠٥).

وممن قال بالمعنى الأولِ: الفراءُ، وابنُ قتيبة، وابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢١١)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٤).

وذهب ابنُ عطية، وابن جزي إلى أنَّ جوابَ ﴿إِذَا﴾ قَولُه: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩). قال ابن عطية: (وهذا هو المعنى الذي قُصِد ذِكرُه؛ لأنَّه رُجوعُهم الذي كانوا يُكَذِّبونَ به وحَرُمَ عليهم امتِناعُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧).

أي: يَقولونَ: يا وَيلَنا[١] قد كُنَّا في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ[٢].

﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

أي: بلْ كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بكُفرِنا برَبِّنا، ومَعصِيَتِنا له، وإعراضِنا عن آياتِه، وعبادَتِنا غَيرَه[٣].

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

أي: يُقالُ لهم: إنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- وما تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ وَقودُ جهنَّمَ، يُرمى بكم جميعًا في النَّارِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقال سُبحانه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ

---

(١) قال البقاعي: (أي: حضَرنا الويلُ فهو نديمُنا، فلا مدعوَّ لنا غيرُه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٨٢).
وقال ابن عاشور: (و ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ دعاءٌ على أنفسِهم مِن شدةِ ما لحِقَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥١، ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١١ - ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧).
قال السعدي: (الحِكمةُ في دخولِ الأصنامِ النَّارَ -وهي جمادٌ لا تَعقِلُ، وليس عليها ذَنبٌ- بيانُ كَذِبِ مَن اتخَذَها آلِهةً، ولِيَزدادَ عَذابُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٦).

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾.

أي: أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- داخِلونَ جهنَّمَ مع آلِهَتِكم التي كُنتُم تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ[1].

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾.

أي: لو كانت تلك الآلِهةُ المَعبودةُ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً حَقًّا كما يَزعُمُ عابِدوها، لَمَا دخَلَ العابِدونَ والمَعبودونَ جهنَّمَ، ولَمَنَعت تلك الآلهةُ عابِديها مِن دُخولِها[2].

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: وكلٌّ مِنَ الآلهةِ الباطِلةِ وعابِديها في جهَنَّمَ ماكِثونَ[3].

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾.

أي: للمُشرِكينَ وآلِهَتِهم[4] ....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٤) قال ابن عطية: (الضَّميرُ في ﴿لَهُمْ﴾ عائدٌ على من يَعقِلُ مِمَّن تُوُعِّدَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠١). =

في جَهنَّمَ زَفيرٌ[1] مِن شِدَّةِ العَذابِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود: ١٠٦].

﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴾.

أي: وهم في جَهنَّمَ صُمٌّ لا يَسمَعونَ شَيئًا[3].

= وقال البقاعي: (﴿ لَهُمۡ ﴾ أي: لِمَن فيه الحياةُ مِن المذكورينَ: العابدينَ مُطلَقًا، والمعبودينَ الرَّاضينَ كفِرعَونَ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٨٣).

وقال الزمخشري: (إذا كانوا هم وأصنامُهم في قَرَنٍ واحدٍ، جاز أن يقال: لهم زَفيرٌ، وإن لم يكُنِ الزَّافرونَ إلَّا هم دونَ الأصنامِ؛ للتَّغليبِ، ولِعَدَمِ الإلباسِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٦).

(١) قال ابن عطية: («الزفيرُ» صَوتُ المعَذَّبِ، وهو كنهيقِ الحَميرِ وشِبهُه، إلَّا أنَّه مِنَ الصَّدرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢١).

ممن اختار أنَّ المرادَ: أنَّهم لا يسمعونَ، فهم يُسلبونَ حاسَّةَ السمعِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ -في ظاهرِ كلامِه-، والنسفي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨، ٢٤٧).

قيل: لأنَّ في سَماعِ الأشياءِ رَوحًا وأُنسًا، فمَنَع اللهُ الكفَّارَ ذلك في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٥).

وقيل: ليُمنَعوا راحةَ التَّأسِّي بالمُشارِكِ لهم في العذابِ؛ مُبالغةً في عذابِهم، ويكونُ هذا كقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩]؛ فإنَّهم حُرِموا هذا القَدْرَ مِن الرَّاحةِ، ولا شُبهةَ بأنَّ التأسِّيَ يُهوِّنُ المُصيبةَ ويُخفِّفُها. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٧٤).

ومَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّهم لا يسمعونَ ما يَسُرُّهم: النحَّاس، ومكي بن أبي طالب. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٥٨)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٨٢١). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ * وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾ فيه تحذيرٌ مِن اللهِ للنَّاسِ أن يُقيموا على الكُفرِ والمعاصي، وأنَّه قد قَرُب انفِتاحُ يأجوجَ ومأجوجَ[1]، وقد عدَّه المفسِّرونَ مِن الأشراطِ الصُّغرَى لقيامِ الساعةِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ينقسمُ التحريمُ إلى تحريمٍ كونيٍّ متعلِّقٍ بربوبيةِ الله وخَلقِه، وإلى تحريمٍ دينيٍّ متعلِّقٍ بإلهيته وشرعِه، أمَّا التحريمُ الكونيُّ فكقولِه تعالى: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾، وقولِه: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ [القصص: ١٢]، وأمَّا التحريمُ الدينيُّ فكقولِه تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، وقولِه: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾[3] [النساء: ٢٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ جَميعَ المَعبوداتِ مع عابِديها في النَّارِ، وقد أشارت آياتٌ أُخَرُ إلى أنَّ بَعضَ المَعبودينَ -كعيسى والملائكةِ- لَيسوا مِن أهلِ النَّارِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا ...﴾

= وقيل: المرادُ: لا يسمعُ بعضُهم زفيرَ بعضٍ؛ لشدةِ الهولِ، وفظاعةِ العذابِ. وممن اختاره: أبو السعودِ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٥٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠، ٢٨٢).

[الزخرف: ٥٧] وقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] وقَولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآيةَ [الإسراء: ٥٧]؟

الجوابُ مِن وَجهينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذه الآيةَ لم تتناوَلِ الملائكةَ ولا عيسى؛ لتعبيره بـ (ما) الدَّالَّةِ على غيرِ العاقِلِ، وقد أشار تعالى إلى هذا الجَوابِ بقَولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]؛ لأنَّهم لو أنصَفوا لَمَا ادَّعَوا دُخولَ العُقَلاءِ في لَفظٍ لا يَتناوَلُهم لُغةً!

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الملائكةَ وعيسى نَصَّ اللهُ على إخراجِهم مِن هذا؛ دَفعًا للتوهُّمِ ولهذه الحُجَّةِ الباطِلةِ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٠١].

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فإن قيل: لِمَ قُرِنوا بآلهَتِهم؟

فالجوابُ: لأنَّهم لا يَزالونَ لِمُقارَنتِهم في زيادةِ غَمٍّ وحَسرةٍ؛ حيث أصابَهم ما أصابَهم بسَبَبِهم، والنَّظَرُ إلى وَجهِ العَدُوِّ بابٌ مِن العَذابِ، ولأنَّهم قَدَّروا أنَّهم يَستَشفِعونَ بهم في الآخِرةِ، ويَستَنفِعونَ بشَفاعَتِهم، فإذا صادَفوا الأمرَ على عَكسِ ما قَدَّروا، لم يكُنْ شَيءٌ أبغَضَ إليهم مِنهم[2].

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٦).

﴿لَهَا وَارِدُونَ﴾ والحكمةُ في دخولِ الأصنامِ النارَ -وهي جمادٌ؛ لا تعقِلُ، وليس عليها ذنبٌ- بيانُ كذبِ مَن اتَّخذها آلهةً، وليزدادَ عذابُهم؛ فلهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، ذكَر -جلَّ وعلا- في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ أهلَ النارِ لا يسمعونَ فيها، وبيَّن في غيرِ هذا الموضعِ أنَّهم لا يتكلمونَ، ولا يبصرونَ؛ كقولِه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقولِه: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، وقولِه: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥] معَ أنَّه -جلَّ وعلا- ذكَر في آياتٍ أُخرَ ما يدلُّ على أنَّهم يسمعونَ ويبصرونَ ويتكلمونَ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقولِه: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]، وقولِه: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]؟

والجوابُ عن هذا مِنْ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: كونُ المرادِ مِمَّا ذُكِر -مِن العمَى، والصممِ، والبكمِ- حقيقتَه، ويكونُ ذلك في مبدَأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللَّهُ تعالَى إليهم أبصارَهم ونُطْقَهم وسَمْعَهم، فيرونَ النَّارَ، ويسمعونَ زَفيرَها، وينطِقُونَ بما حَكَى اللَّهُ تعالَى عنهم في غيرِ موضِعٍ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّهم لا يرونَ شيئًا يَسُرُّهم، ولا يسمعونَ كذلك، ولا يَنْطِقون بِحُجَّةٍ، كما أنَّهم كانوا في الدُّنْيا لا يَسْتَبْصِرونَ، ولا يَنْطِقونَ بالحقِّ، ولا يَسْمَعونَه، فنُزِّلَ ما يَقولونَه ويَسْمَعونَه ويُبْصِرونَه منزلةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتفاعِ به، والعربُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

في كلامِها تُطلِقُ الصممَ على السماعِ الذي لا فائدةَ فيه. وكذلك الكلامُ الذي لا فائدةَ فيه، والرُّؤيةُ التي لا فائدةَ فيها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللَّهَ إذا قال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وَقَع بهم ذاك العمَى والصَّممُ والبَكَمُ مِنْ شِدَّةِ الكربِ واليأسِ مِنَ الفرجِ، قال تعالَى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾(١) [النمل: ٨٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ إدْماجٌ للوعيدِ بعَذابِ الدُّنيا قبْلَ عَذابِ الآخرةِ(٢).

- قولُه: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ يحتمِلُ أنَّ المُرادَ رُجوعُهم عنِ الكُفْرِ، فيَتعيَّنُ أنَّ تكونَ (لا) في قولِه: ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾ زائدةً للتَّوكيدِ، والمعنى: مُنِعَ على قَريةٍ قَدَّرْنا هَلاكَها أنْ يَرجِعوا عن ضَلالِهم. وهذا إعلامٌ بسُنَّةِ اللهِ تعالى في تَصرُّفِه في الأُمَمِ الخاليةِ، مَقصودٌ منه التَّعريضُ بتأْييسِ فَريقٍ مِن المُشرِكين مِن المصيرِ إلى الإيمانِ، وتَهديدُهم بالهَلاكِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ رُجوعُهم إلى الآخرةِ بالبعْثِ، وهو المُناسِبُ لتَفريعِه على قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣]، فتكونَ (لا) نافيةً، والمعنى: مَمنوعٌ عدَمُ رُجوعِهم إلى الآخرةِ الَّذي يَزعُمونَه، أي: دَعْواهم باطِلةٌ، أي: فهمْ راجِعونَ إلينا، فمُجازَونَ على كُفْرِهم، فيكونُ إثباتًا للبَعْثِ بنَفْيِ ضِدِّه، وهو أبلَغُ مِن صَريحِ الإثباتِ؛ لأنَّه إثباتٌ بطَريقِ المُلازَمةِ، فكأنَّه إثباتُ الشَّيءِ بحُجَّةٍ،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨، ٢٤٧)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٥).

ويُفِيدُ تأْكيدًا لقولِه تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣]. ويحتملُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ تَعْليلًا، ويكونُ التَّقديرُ: وحَرامٌ على قَريةٍ أهْلَكناها العمَلُ الصَّالِحُ والسَّعيُ المَشكورُ غيرُ المَكفورِ؛ لأنَّهم لا يَرجِعونَ عن الكُفرِ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ، والجُملةُ بعْدَها: ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ...﴾ كَلامٌ مُستأْنفٌ[2]، والمُرادُ بفَتحِها: فَتْحُ سَدِّها، على حَذْفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَه[3].

٣- قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

- في قولِه: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مُثِّلَت حالةُ الكافرينَ في ذلك الحينِ بأبلَغِ تَمثيلٍ وأشَدِّه وَقْعًا في نَفْسِ السَّامعِ؛ إذ جُعِلَت مُفرَّعةً على فَتْحِ يأْجوجَ ومأْجوجَ واقترابِ الوعْدِ الحقِّ؛ للإشارةِ إلى سُرعةِ حُصولِ تلك الحالةِ لهم، ثمَّ بتَصديرِ الجُملةِ بحَرْفِ المُفاجأةِ والمُجازاةِ الَّذي يُفيدُ الحُصولَ دَفعةً بلا تَدرُّجٍ ولا مُهْلةٍ، ثمَّ بالإتيانِ بضَميرِ القِصَّةِ؛ لِيَحصُلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٤، ٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٤٩).

للسَّامعِ عِلْمٌ مُجمَلٌ يُفصِّلُه ما يُفسِّرُ ضَميرَ القِصَّةِ، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخِرِه[1].

- قولُه: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ، تَقديرُه: يقولونَ: يا وَيْلنا[2].

- قولُهم: ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ دَلَّت (في) الظَّرفيَّةُ على تَمكُّنِ الغَفلةِ منهم، حتَّى كأنَّها مُحيطةٌ بهم إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ، أي: كانت لنا غَفلةٌ عَظيمةٌ، وهي غَفلةُ الإعراضِ عن أدِلَّةِ الجزاءِ والبَعْثِ[3].

- قولُهم: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إضرابٌ إبطاليٌّ عمَّا قبْلَه مِن وَصْفِ أنفُسِهم بالغَفلةِ، أي: لم نكُنْ غافلينَ عنه؛ حيث نُبِّهنا عليه بالآياتِ والنُّذرِ، بل كنَّا ظالمينَ[4].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ جَوابٌ عن قولِهم: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ...﴾ [الأنبياء: ٩٧] إلى آخِرِه؛ فهي مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ على طَريقةِ المُحاوَراتِ، فالتَّقديرُ: يُقالُ لهم: إنَّكم وما تَعبُدون من دونِ اللهِ حَصَبُ جهنَّمَ...[5]. وقيل: هي خِطابٌ لكُفَّارِ مكَّةَ، وتَصريحٌ بمآلِ أمْرِهم، مع كونِه مَعلومًا ممَّا سبَقَ على وَجْهِ الإجمالِ؛ مُبالَغةً في الإنذارِ، وإزاحةِ الاعتذارِ[6].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٥).

- قولُه: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أكَّدَ الخَبَرَ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّهم كانوا بحيث يُنكِرونَ ذلك[1].

- قولُه: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ استِئنافٌ، واللَّامُ عِوَضٌ مِن (على)؛ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، وأنَّ وُرودَهم لأجْلِها. وقيل: بدَلٌ من ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[2]. وهذه الجُمْلةُ ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾، والمقصودُ منه: تَقريبُ الحصْبِ بهم في جهنَّمَ؛ لِمَا يدُلُّ عليه قولُه: ﴿وَارِدُونَ ﴾ من الاتِّصافِ بوُرودِ النَّارِ في الحالِ[3].

- وفي قولِه: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ الْتِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ[4].

٥- قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ اعتراضٌ؛ تَجهيلًا للكَفرةِ، واحتِجاجًا عليهم، وعُطِفَ قولُه: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ على قولِه: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾؛ تَوكيدًا لشُمولِ الأشخاصِ والأزمانِ على سَبيلِ الالْتِفاتِ[5].

- قولُه: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ زِيادةٌ في نِكايتِهم بإظهارِ خَطَئِهم في عِبادتِهم تلك الأصنامَ بأنْ أُشْهِدوا إيرادَها النَّارَ، وقِيلَ لهم: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾، وذُيِّلَ ذلك بقولِه تعالى: ﴿وَكُلٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٠٩).

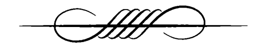
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾، أي: هم وأصنامُهم[١].

٦- قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾

- على القولِ بأنَّ المُرادَ بـ (مَا تَعْبُدُونَ) الأصنامُ؛ فيكونُ قولُه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ مع كونِه مِن أفْعالِ العَبَدةِ، أُضِيفَ إلى الكلِّ؛ للتَّغليبِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ للعَبَدةِ؛ لعدَمِ الإلباسِ[٢]. وقيل: لا تَغليبَ هاهنا، والمُرادُ مِن ضَميرِ ﴿وَهُمْ ﴾: المُخاطَبونَ في قولِه: ﴿ إِنَّكُمْ ﴾، فالالْتِفاتُ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ[٣].

- وعَطْفُ جُملةِ ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ اقتضاهُ قولُه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾؛ لأنَّ شَأْنَ الزَّفيرِ أنْ يُسمَعَ، فأخبَرَ اللهُ بأنَّهم مِن شِدَّةِ العذابِ يَفقِدونَ السَّمعَ بهذه المُناسَبةِ[٤]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.



---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٦، ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٣).

الآيات (١٠١-١٠٥)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾: أي: الجنَّةُ أو السَّعادةُ، تأنيثُ الأحسنِ، والحُسْنُ ضِدُّ القُبحِ، وهو عبارةٌ عن كلِّ مُبهجٍ مرغوبٍ فيه[1].

﴿حَسِيسَهَا﴾: أي: صَوْتَها وحَرَكَةَ تلَهُّبِها، والحَسيسُ والحسُّ: الحَرَكةُ والصَّوتُ تَسمَعُه مِنَ الشَّيءِ الذي يمُرُّ قريبًا منك، وأصلُه مِنَ الحِسِّ، وهو مُطلَقُ الصَّوتِ، أو الخَفِيُّ منه[2].

﴿نَطۡوِي﴾: الطَّيُّ: ضِدُّ النَّشرِ، وهو ثَنْيُ الشَّيءِ، أو ردُّ بَعضِه على بَعضٍ، وأصلُ (طوي): يَدُلُّ على إدراجِ شَيءٍ حتى يُدرَجَ بَعضُه في بَعضٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن =

﴿ٱلسِّجِلِّ﴾: أي: الصَّحيفةِ التي فيها الكِتابُ، يعني: المكتوبَ، والسِّجِلُّ: اسمٌ مُشتَقٌّ مِن المُساجَلةِ، وهي: المُكاتَبةُ[1].

﴿ٱلزَّبُورِ﴾: أي: الكُتُبِ المُنَزَّلةِ مِن السَّماءِ، ويُطلَقُ الزَّبورُ على الكِتابِ المنزَّلِ على داودَ عليه السَّلامُ، وأصلُ (زبر): يدُلُّ على قِراءةٍ وكتابةٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: إنَّ الذين سَبَق لهم في عِلْمِنا أنَّهم مِن أهلِ السَّعادةِ بدُخولِ الجَنَّةِ، أولئك عن النَّارِ مُبعَدونَ، فلا يَدخُلونَها ولا يَقرَبونَ منها، لا يَسمَعونَ صَوتَ لَهيبِها واحتراقِ الأجسادِ فيها؛ لِبُعدِهم عنها، وهم فيما تَشتَهيه نُفوسُهم مِن نَعيمِ الجنة ولَذَّاتِها مُقيمونَ إقامةً دائِمةً، لا يَحْزُنُهُمُ الفزعُ الأكبرُ والهَولُ العَظيمُ يومَ القيامةِ عِندَ النَّفخِ في الصُّورِ للحَشرِ، وتَستَقبِلُهم ملائِكةُ الرَّحمنِ تُبَشِّرُهم وتُهنِّئُهم، قائلينَ لهم: هذا يومُكم الذي وُعِدتُم فيه الكَرامةَ مِن اللهِ وجَزيلَ الثَّوابِ. يومَ نَطوي السَّماءَ كما تُطْوَى الصَّحيفةُ على ما كُتِبَ فيها، كما قدَرْنا على إيجادِ الخلقِ أوَّلَ مرةٍ، كذلك نقدرُ على إعادتِهم، فنبعثُهم أحياءً مِن قبورِهم، ونحشُرُهم على مِثلِ هَيئَتِهم حينَ خَرَجوا مِن بُطونِ أُمَّهاتِهم؛ حُفاةً، عُراةً، غَيرَ مَختونينَ، وَعَدْناكم ذلك وَعدًا لا يتخَلَّفُ، إنَّا كُنَّا فاعلينَ ما نَعِدُ به.

= عاشور)) (١٧/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٣).

ولقَدْ كتَبْنا في الكُتُبِ المنزَّلةِ بعدَ اللَّوحِ المحفوظِ الذي كتَب اللهُ فيه كلَّ ما هو كائنٌ: أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادُ اللهِ الصَّالِحونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ عادةَ اللهِ تعالى أنَّه متى شَرَح عِقابَ الكُفَّارِ، أردَفَه بشَرحِ ثوابِ الأبرارِ؛ فلهذا السَّبَبِ ذَكَر هذه الآيةَ عَقِيبَ تلك[1]، فلمَّا بيَّن سبحانَه حالَ هؤلاءِ الأشقياءِ؛ شَرَع في بيانِ حالِ السُّعداءِ[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ الكافرينَ وحالَ مَعبوديهم بغايةِ الوَيلِ، كان مَوضِعُ السُّؤالِ عَمَّن عَبَدوهم مِنَ الصَّالحينَ؛ مِن نَبيٍّ أو مَلَكٍ وغيرِهما مِن جَميعِ مَن عَبَدَه سُبحانَه لا يُشرِكُ به شَيئًا، فقال مُبَيِّنًا أنَّهم لَيسوا مُرادِينَ لِشَيءٍ مِن ذلك، على وَجهٍ يَعُمُّهم وغَيرَهم مِن الصَّالِحينَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾[3].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((آيةٌ في كِتابِ اللهِ لا يَسألُني النَّاسُ عنها، ولا أدري أعَرَفوها فلا يَسألوني عنها، أم جَهِلوها فلا يَسألوني عنها؟! قيل: وما هِيَ؟ قال: آيةٌ لَمَّا نَزَلَت: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٤).

جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] شَقَّ ذلك على أهلِ مَكَّةَ، وقالوا: شَتَمَ مُحمَّدٌ آلهَتَنا، فقام ابنُ الزِّبَعْرَى فقال: ما شأنُكم؟ قالوا: شَتَم مُحمَّدٌ آلهَتَنا، قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال: ادعُوه لي، فدُعِيَ مُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال ابنُ الزِّبَعْرَى: يا محمَّدُ، هذا شَيءٌ لآلهَتِنا خاصَّةً أم لكُلِّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ؟ قال: بل لكُلِّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فقال: خَصَمْناه ورَبِّ هذه البَنِيَّةِ! يا مُحمَّدُ، ألستَ تزعُمُ أنَّ عيسى عَبدٌ صالِحٌ، وعُزَيرًا عَبدٌ صالِحٌ، والملائِكةَ عِبادٌ صالِحونَ؟ قال: بلى، قال: فهذه النَّصارى يَعبُدونَ عيسى، وهذه اليَهودُ تَعبُدُ عُزَيرًا، وهذه بنو مُلَيحٍ تَعبُدُ المَلائِكةَ، قال: فضَجَّ أهلُ مَكَّةَ، فنزَلَت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ -عيسى وعُزَيرٌ والملائِكةُ- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾. قال: ونزَلت: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف: ٥٧]، وهو الضَّجيجُ))(١).

---

(١) أخرجه الطحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (٩٨٦)، والطبراني (١٢/ ١٥٣) (١٢٧٣٩).
حَسَّنَه ابن حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ١٧٢)، وصحَّح إسنادَه ابنُ القيمِ في ((شفاء العليل)) (١/ ١٢٣).
قال ابنُ القيم: (هذا الإيرادُ الذي أورده ابنُ الزِّبَعْرَى... إنَّما كان مِن جهةِ القياسِ والعمومِ المَعنويِّ الذي يعُمُّ الحُكمُ فيه بعمومِ عِلَّتِه، أي: إنْ كان كونُه مَعبودًا يُوجِبُ أن يكونَ حَصَبَ جَهنَّمَ، فهذا المعنى بعَينِه موجودٌ في الملائكةِ وعُزَيرٍ والمسيحِ! فأُجيبَ بالفارِقِ، وذلك مِن وُجوهٍ:
أحدُها: أنَّ الملائكةَ والمسيحَ وعُزَيرًا: ممَّن سبَقَت لهم مِن الله الحُسنى؛ فهم سُعداءُ لم يفعَلوا ما يَستوجِبونَ به النَّارَ، فلا يُعذَّبونَ بعبادةِ غيرِهم، مع بُغضِهم ومعاداتِهم لهم...
الفرقُ الثاني: أنَّ الأوثانَ حِجارةٌ غيرُ مُكَلَّفةٍ ولا ناطقةٍ، فإذا حُصِبَت بها جهنَّمُ إهانةً لها ولعابِدِيها، لم يكُنْ في ذلك [عذابُ] مَن لا يستَحِقُّ العذابَ، بخِلافِ الملائكةِ والمسيحِ وعُزَيرٍ؛ فإنَّهم أحياءٌ ناطِقونَ، فلو حُصِبَت بهم النَّارُ كان ذلك إيلامًا وتعذيبًا لهم. =

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾.

أي: إنَّ المُؤمِنينَ الذين سَبَق في عِلْمِنا منذُ الأزَلِ أنَّهم من أهلِ السَّعادةِ بدُخولِ الجَنَّةِ، مُبعَدونَ عن جَهَنَّمَ يومَ القيامةِ، فلا يَدخُلونَها، ولا يَقرَبونَ منها، وإنْ عَبَدَهم بَعضُ المُشرِكينَ بغَيرِ رِضاهم واختيارِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢)﴾.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

أي: لا يَسمَعُ المُؤمِنونَ وهم في الجَنَّةِ صَوتَ جَهنَّمَ وإحراقِها الأجسادَ؛ لِبُعدِهم الشَّديدِ عنها[2].

= الثَّالثُ: أنَّ مَن عَبَد هؤلاء بزَعمِه فإنَّه لم يَعبُدْهم في الحقيقةِ؛ فإنَّهم لم يَدْعُوا إلى عبادتِهم، وإنَّما عَبَد المُشركون الشَّياطينَ وتوهَّموا أنَّ العبادةَ لهؤلاء؛ فإنَّهم عَبَدوا بزَعمِهم مَن ادَّعى أنَّه معبودٌ مع الله، وأنَّه معه إلهٌ، وقد برَّأ اللهُ سُبحانَه ملائكتَه والمسيحَ وعُزيرًا من ذلك، وإنَّما ادَّعى ذلك الشَّياطينُ، وهم بزَعمِهم يعتقِدونَ أنَّهم يَرضَونَ بأن يكونوا معبودين مع اللهِ تعالى، ولا يرضى بذلك إلَّا الشَّياطينُ؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]. ((شفاء العليل)) (ص: ٢٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦). =

﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

أي: والمُؤمِنونَ فيما تَشتَهيه أنفُسُهم مِن نَعيمِ الجَنَّةِ ماكِثون، لا يخافونَ زَوالًا عنه، ولا انتِقالًا منه[1].

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾.

أي: لا يَحزُنُ المؤمنينَ الفزعُ الأكبَرُ يومَ القيامةِ عِندَ النَّفخِ في الصُّورِ للحَشرِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن

= قال ابنُ عاشور: (جُملةُ ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ بيانٌ لمعنى ﴿مُبْعَدُونَ﴾، أي: مُبعَدون عنها بُعدًا شَديدًا بحيثُ لا يَلفَحُهم حَرُّها، ولا يُرَوِّعهم مَنظَرُها، ولا يَسمَعونَ صَوتَها، والصَّوتُ يَبلُغُ إلى السَّمعِ مِن أبعَدِ ممَّا يبلُغُ منه المرئيُّ. والحسيسُ: الصَّوتُ الذي يبلُغُ الحِسَّ، أي: الصَّوتُ الذي يُسمَعُ مِن بَعيدٍ، أي: لا يَقرَبونَ مِنَ النَّارِ، ولا تَبلُغُ أسماعَهم أصواتُها، فهم سالِمونَ مِنَ الفَزَعِ مِن أصواتِها، فلا يَقرَعُ أسماعَهم ما يُؤلِمُها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

قال ابن عاشور: (الفَزَعُ: نُفرةُ النَّفسِ وانقِباضُها مِمَّا تتوقَّعُ أن يحصُلَ لها مِنَ الألم، وهو قريبٌ مِن الجَزَع. والمرادُ به هنا: فزَعُ الحَشرِ حين لا يَعرِفُ أحَدٌ ما سيؤولُ إليه أمرُه، فيكونونَ في أمنٍ مِن ذلك بطمأنةِ الملائكةِ إيَّاهم، وذلك مُفادُ قَولِه تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فهؤلاء الذين سبقت لهم الحُسنى هم المرادُ مِن الاستثناءِ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

أي: ويَستَقبِلُ الملائِكةُ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ، فيُهَنِّئونَهم ويُبَشِّرونَهم برَحمةِ اللهِ، ونَيْلِ كرامتِه؛ يقولونَ لهم: هذا اليومُ الحاضِرُ هو اليَومُ الذي كُنتُم في الدُّنيا تُوعَدونَ أن يُثيبَكم اللهُ فيه على قيامِكم بطاعتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٨).

قال الشِّنقيطي: (قيل: تَستَقبِلُهم على أبوابِ الجَنَّةِ بذلك. وقيل: عندَ الخروجِ مِن القبورِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤٨).

وممن قال بالقولِ الأوَّلِ: البغوي، والزمخشري، والقرطبي، والنسفي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٧).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ، وابنُ السائب، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٣). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٦٨٣).

وممن قال بالقولِ الثاني: مقاتلُ بنُ سليمان، والواحدي، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الحسن. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٤٩).

قال القنوجي: (ولا مانعَ أنَّها تستقبلُهم في الحالينِ). ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٣٧٦).

أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾.

أي: لا يَحزُنُهم الفَزَعُ الأكبَرُ في ذلك اليَومِ الذي نَطْوي فيه السَّمواتِ كما تُطوى الصَّحيفةُ على الكَلامِ المكتوبِ فيها(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾.

أي: كما قدَرْنا على إيجادِ الخلقِ أوَّلَ مرةٍ، كذلك نقدرُ على إعادتِهم، فنبعثُهم أحياءً مِن قبورِهم(٢)، ونحشرُهم على مِثلِ هَيئَتِهم حينَ خَرَجوا مِن بُطونِ أُمَّهاتِهم؛ حُفاةً، عُراةً، غَيرَ مَختونينَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٩).

(٢) ممن اختار هذا المعنى: الزجاجُ، والسمعاني، والرسعني، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(٣) ممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابن جرير، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٥)، ((تفسير =

= البغوي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٧)، ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٠٧).

قال ابنُ جرير: (فالكافُ التي في قَولِه: ﴿ كَمَا ﴾ مِن صِلةِ (نُعِيدُ) تقَدَّمت قبلَها، ومعنى الكلامِ: نُعيدُ الخَلْقَ عُراةً حُفاةً غُرْلًا يومَ القيامةِ كما بدَأْناهم أوَّلَ مرَّةٍ في حالِ خلَقْناهم في بُطونِ أمَّهاتهم. على اختلافٍ مِن أهلِ التَّأويلِ في تأويلِ ذلك. وبالذي قُلْنا في ذلك قال جماعةٌ مِن أهل التَّأويلِ، وبه الخبَرُ عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلذلك اختَرتُ القَولَ به على غَيرِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٧٠).

قال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ ما أفاده الكافُ مِن التَّشبيهِ في قَولِه تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ أنَّ إعادةَ خَلقِ الأجسامِ شُبِّهت بابتداءِ خَلقِها، ووَجهُ الشَّبَهِ هو إمكانُ كِلَيهما، والقُدرةُ عليهما، وهو الذي سِيقَ له الكلامُ، على أنَّ التَّشبيهَ صالحٌ للمُماثلةِ في غيرِ ذلك. روى مسلِمٌ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: «قام فينا رسولُ الله بمَوعظةٍ، فقال: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم تُحشَرونَ إلى اللهِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾» الحديثَ؛ فهذا تفسيرٌ لبَعضِ ما أفاده التَّشبيهُ، وهو مِن طريقِ الوَحيِ، واللَّفظُ لا يأباه؛ فيَجِبُ أن يُعتبَرَ معنًى للكافِ مع المعنى الذي دَلَّت عليه بظاهِرِ السِّياقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٠).

وقال أيضًا: (قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلم: «يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾» إنَّما هو تشبيهُ الخَلقِ الثَّاني بالخَلقِ الأوَّلِ؛ لِدَفعِ استِبعادِ البَعثِ، كقَولِه تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥]، وقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، فذلك مَورِدُ التَّشبيهِ، غيرَ أنَّ التَّشبيهَ لَمَّا كان صالحًا للحَملِ على تمامِ المُشابهةِ أعلَمَنا النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ ذلك مُرادٌ منه، بأن يكونَ التَّشبيهُ بالخَلقِ الأوَّلِ شامِلًا للتجَرُّدِ مِن الثِّيابِ والنِّعالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٩٥).

وقال الملَّا القاري: (قال الطِّيبي رحمه الله: فإنْ قُلتَ: سياقُ الآيةِ في إثباتِ الحَشرِ والنَّشرِ... فكيف يُستشهَدُ بها للمعنى المذكورِ؟ قلتُ: دَلَّ سِياقُ الآيةِ وعِبارتُها على إثباتِ الحَشرِ، وإشارتُها على المعنى المرادِ مِن الحديثِ؛ فهو من بابِ الإدماجِ. قُلتُ: الظَّاهِرُ أنَّ الآيةَ بعبارتِها تدُلُّ على المعنيَينِ وإن كان سياقُ الآيةِ مُختصًّا لأحَدِهما؛ فإنَّ العِبرةَ لعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ). ((مرقاة المفاتيح)) (٨/ ٣٥١٤). ويُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (١١/ ٣٤٩٨).=

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّكم مَحشورونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا[١]، ثمَّ قرأ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾))[٢].

﴿ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾.

أي: وَعَدْناكم ذلك وَعدًا حَقًّا علينا أنْ نَفِيَ به، فمِن شأنِنا أنَّنا نفعلُ ما نريدُ، وسنفعلُ ما وعَدْنا به لا محالةَ[٣].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾.

أي: ولقَدْ كتَبْنا في جميعِ الكُتُبِ المنزَّلةِ مِن السماءِ[٤] بعدَ اللوحِ المحفوظِ

= وقال البِقَاعي: (﴿ كَمَا ﴾ أي: مِثلَ ما ﴿ بَدَأْنَا ﴾ أي: بما عُلِمَ لنا من العَظَمةِ ﴿ أَوَّلَ خَلْقٍ ﴾ أي: تقديرَ أيِّ تقديرٍ كان؛ نكَّره لِيُفيدَ التَّفصيلَ واحِدًا واحِدًا، بمعنى: أنَّ كُلَّ خَلقٍ جَلَّ أو قَلَّ سواءٌ في هذا الحُكمِ، وهو أنَّا ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ أي: بتلك العَظَمةِ بعَينِها، غيرَ ناسِينَ له ولا غافِلينَ ولا عاجِزينَ عنه، فما كان مُتضامَّ الأجزاءِ فمدَدْناه نضُمُّه بعد امتدادِه، وما كان مَيتًا فأحيَيناه نُميتُه بعد حياتِه، وما كان حيًّا فأمَتْناه نُحييه بعد مَوتِه، ونعيدُ منهم مِن الترابِ مَن بدَأْناه منه. والحاصِلُ أنَّ مَن أوجدَ شَيئًا لا يَبعُدُ عليه التصَرُّفُ فيه كيفما كان. روى البخاري في التفسيرِ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: «خطَبَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: إنَّكم محشورونَ إلى الله عُراةً غُرْلًا ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ الآيةَ»). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٨).

(١) غُرْلًا: أي: غيرَ مَختونينَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٩) واللفظ له، ومسلم (٢٨٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٨).

(٤) ممن اختار القولَ المذكورَ، وهو أنَّ المرادَ بالزبورِ: جميعُ الكُتُبِ المنزَّلةِ من السَّماءِ، ولا تختَصُّ =

الذي كتَبَ اللهُ فيه كلَّ ما هو كائنٌ[1] ....

= بزَبورِ داودَ وحْدَه: ابنُ جريرٍ، والرسعني -ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ-، وابنُ القيم، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٧).

وقيل: المرادُ به: زَبورُ داود. وممَّن قال بذلك: ابنُ جزي، وأبو حيان، والبقاعي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٢).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: عامرٌ الشعبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٣).

قال ابنُ جُزي: (﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ في الزَّبورِ هنا قولان؛ أحدُهما: أنَّه كِتابُ داودَ، والذِّكرُ هنا على هذا: التَّوراةُ التي أنزل اللهُ على موسى، وما في الزَّبورِ مِن ذِكرِ الله تعالى. والقَولُ الثَّاني: أنَّ الزَّبورَ جِنسُ الكُتُبِ التي أنزلها اللهُ على جميع الأنبياء، والذِّكرُ على هذا: هو اللَّوحُ المحفوظُ، أي: كتَبَ اللهُ هذا في الكتابِ الذي أُفرِدَ له بعدما كتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ، حتى قضى الأمورَ كُلَّها. والأوَّلُ أرجَحُ؛ لأنَّ إطلاقَ الزَّبورِ على كِتابِ داودَ أظهَرُ وأكثَرُ استِعمالًا، ولأنَّ الزَّبورَ مُفرَدٌ؛ فدَلالتُه على الواحِدِ أرجَحُ مِن دلالتِه على الجَمعِ، ولأنَّ النَّصَّ قد ورد في زبورِ داودَ بأنَّ الأرضَ يَرِثُها الصَّالحونَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠).

وقال الشوكاني: (الزَّبْرُ في الأصلِ: الكَتْبُ، يقال زَبَرْتُ: أي: كتَبْتُ، وعلى هذا يَصِحُّ إطلاقُ الزَّبورِ على التَّوراةِ والإنجيلِ، وعلى كتابِ داودَ المسمَّى بالزَّبورِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٨).

(١) ممن اختار أنَّ المرادَ بالذكرِ: اللَّوحُ المحفوظُ، على معنى: كتَبْنا ذلك في اللَّوحِ المحفوظِ: ابنُ جريرٍ، وابنُ تيميَّة، وابنُ القيمِ، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢١١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وابنُ زيد. وهو معنى ما جاء عن ابنِ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٧). =

أنَّ الأرضَ[١] يَرِثُها عبادِيَ[٢] العامِلونَ بطاعَتي، الذين قاموا بالمأموراتِ، واجتَنَبوا

= وقيل: الذِّكرُ هو التوراة. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٧).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، وعامرٌ الشعبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٣).

(١) قيل: المرادُ بالأرضِ هنا: الجنةُ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، وهذا القولُ نسَبه الرسعني للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨١).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو العاليةِ، ومجاهدٌ، وابنُ زيدٍ، والشعبيُّ، وأبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ، والربيعُ بنُ أنسٍ، والثوريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٥).

وقيل: المرادُ بها: أرضُ الدُّنيا. وممن رجَّح ذلك: الزَّجَّاج، وابن جُزَي، وابن القيم. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٧).

وممن جمع بين المعنيينِ، وذهب إلى عمومِ الأرضِ في الدنيا والآخرةِ: ابنُ كثير، والبِقَاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٩١).

قال البِقَاعي: (﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جنسَها الشاملَ لبقاعِ أرضِ الدُّنيا كلِّها، ولأرضِ المحشرِ والجنةِ وغيرِ ذلك مما يعلمُه الله). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٤٩١).

وقيل: المراد بها: الأرضُ المقَدَّسة. وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ السائب. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٧).

(٢) قيل: المرادُ بهم: أمَّةُ مُحمَّدٍ صَلَّى الله عليه وسلَّم. وممن قال بذلك: ابن جزي، والخازن، وابنُ القيم، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٥).

ونسَب القرطبيُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٨). =

المَنهيَّاتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال سُبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥- ٥٦].

= قال ابن جزي: (﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الأرضُ هنا على الإطلاقِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها... والعبادُ الصالحونَ: أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم، ففي الآيةِ ثناءٌ عليهم، وإخبارٌ بظهورِ غيبٍ مِصداقُه في الوجودِ؛ إذ فتَح الله لهذه الأمةِ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١).

وقيل: المرادُ بهم: بنو إسرائيلَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٢).

قال البيضاوي: (﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ يعني عامَّةَ المؤمنينَ أو الذين كانوا يُستضعَفون مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، أو أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢).

قال السعدي: (يحتملُ أنَّ المرادَ: الاستخلافُ في الأرضِ، وأنَّ الصالحين يمكِّنُ الله لهم في الأرضِ، ويُولِّيهم عليها؛ كقولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٤، ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢١١)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٥٩٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٩، ٢٥٠).

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقال سُبحانه وتعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وعن ثَوبانَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوى[1] ليَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي مِنها))[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ أنَّ أرضَ الشامِ كُتِبتْ للصَّالحينَ، ورِثها بنو إسرائيلَ مِن الجبَّارينَ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ الحقِّ، ثم ورِثها النَّصارَى مِن اليهودِ؛ لأنهم أهلُ الحقِّ، ثم ورِثها المسلمون مِن النَّصارَى؛ لأنَّهم أهلُ الحقِّ. وعلى هذا فاليهودُ الآنَ لا حقَّ لهم في فلسطينَ ولا غيرِها مِن أرضِ الله، ليس لهم حقٌّ في الأرضِ أبدًا -لا هم، ولا أي كافرٍ-؛ لأنَّ الأرضَ إنَّما يستحقُّها عبادُ الله الصالحونَ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، لكن إن صلحَ المسلمونَ ورجَعوا إلى دينِهم الحقيقيِّ -الذي يُورثُهم الله به أرضَه- فإنَّنا نجزمُ جزمًا بأنَّهم سوف يَسترجِعون الأرضَ؛ قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥]، لكن ما دام المسلمونَ على هذا الوصفِ؛ فإنَّه حسَبَ القواعدِ الشرعيَّةِ والنُّصوصِ لا يستحقُّون النصرَ؛ لأنَّهم

---

(١) زَوَى: أي: جَمَعَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٩).

لم يقوموا بجهادِ أنفسِهم؛ فكيف يقومونَ بجهادِ غيرِهم ليُدخِلوه في الإسلامِ؟! الآنَ أقيموا الإسلامَ فيما بيْنَكم؛ أقيموا دينَ الله فيما بينَكم؛ ثم بعد ذلك سوف ينصرُ الله دينَه إذا قُمْتُم به؛ لأنَّ الله لا ينصرُ فلانًا لأنَّه فلانٌ! أو ينصرُ هذه الطائفةَ لأنَّهم عربٌ! أو ينصرُ هذه الطائفةَ لأنَّهم فُرسٌ! بل ينصرُ مَن قام بهذا الدينِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ مَن سَبَقَت له مِنَ اللهِ الحُسنى، فلا بُدَّ أن يَصيرَ مُؤمِنًا تَقِيًّا، فمَن لم يكُنْ مِنَ المُؤمِنينَ لمْ يَسبِقْ له مِنَ اللهِ حُسنى، ولكِنْ إذا سَبَقَت للعَبدِ مِن اللهِ سابِقةٌ استعمَلَه بالعَمَلِ الذي يَصِلُ به إلى تلك السَّابِقةِ، كمَن سَبَق له مِنَ اللهِ أن يُولَدَ له وَلَدٌ، فلا بُدَّ أن يَطَأَ امرأةً يُحبِلُها؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه قَدَّرَ الأسبابَ والمُسَبَّباتِ، فسَبَق منه هذا وهذا، فمَن ظَنَّ أنَّ أحدًا سَبَق له مِنَ اللهِ حُسنى بلا سَبَبٍ، فقد ضَلَّ، بل هو سُبحانَه مُيَسِّرُ الأسبابِ والمُسَبَّباتِ، وهو قد قَدَّرَ فيما مضى هذا وهذا[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ إن قيل: كيف يَكونونَ مُبعَدينَ عنها، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، ووُرودُها يقتَضي القُربَ منها؟!

الجوابُ: أنَّ معناه: مُبعَدونَ عن ألَمِها وعَناها، مع وُرودِهم لها. أو معناه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٦٦).

مُبعَدونَ عنها بعدَ وُرودِها، بالإنجاءِ المذكورِ بعد الوُرودِ[١].

٤- إنْ قيلَ: هل يَتنافى قَولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ مع قَولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [هود: ١٠٨]؟

فالجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ طوائِفَ مِن العُلَماءِ قالوا: إنَّ قَولَه: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أراد بها سماءَ الجنَّةِ وأرضَ الجنَّةِ، كما ثبَت عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إذا سألتُمُ اللهَ الجنَّةَ فاسْألوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أعلى الجنَّةِ وأوسَطُ الجنَّةِ، وسَقفُه عَرْشُ الرَّحمنِ))[٢]، وعلى هذا فلا مُنافاةَ بين انطِواءِ هذه السَّماءِ وبَقاءِ السَّماءِ التي هي سَقفُ الجنَّةِ؛ إذ كُلُّ ما علا فإنَّه يُسمَّى في اللُّغةِ سَماءً، كما يُسَمَّى السَّحابُ سَماءً، والسَّقفُ سَماءً.

الثاني: أنَّ السَّمَواتِ وإن طُوِيَت وكانت كالمُهلِ، واستحالَت عن صُورَتِها، فإنَّ ذلك لا يُوجِبُ عَدَمَها وفَسادَها، بل أصلُها باقٍ، بتَحويلِها مِن حالٍ إلى حالٍ، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وإذا بُدِّلَت فإنَّه لا يَزالُ سَماءٌ دائِمةً، وأرضٌ دائمةً، واللهُ أعلم[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ دَلالةٌ عَقليَّةٌ على إمكانيَّةِ إحياءِ الموتى منه سُبحانَه؛ فإنَّ القادِرَ على ابتداءِ الخَلْقِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة.

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٩، ١١٠).



لا يَعجِزُ عن إعادتِه[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ فيه سؤالٌ: ما بالُ ﴿خَلْقٍ﴾ مُنَكَّرًا؟ الجوابُ: هو كقَولِك: هو أوَّلُ رَجُلٍ جاءني، تريدُ أوَّلَ الرِّجالِ، ولكِنَّك وَحَّدْتَه ونكَّرْتَه؛ إرادةَ تَفصيلِهم رَجُلًا رجُلًا، فكذلك معنى ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ أي: أوَّلَ الخلائِقِ[٢]. فنكَّرَ ﴿خَلْقٍ﴾ لِيُفيدَ التَّفصيلَ واحِدًا واحِدًا، بمعنى: أنَّ كُلَّ خَلقٍ -جَلَّ أو قَلَّ- سواءٌ في هذا الحُكمِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ عَلَمٌ مِن أعلام نُبُوَّةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّه أخبرَ بذلك بمكَّةَ -وأهلُ الأرضِ كلُّهم كُفَّارٌ أعداءٌ له ولأصحابِه- والمُشرِكونَ قد أخرَجوهم مِن ديارِهم ومَساكِنِهم، وشَتَّتوهم في أطرافِ الأرضِ، فأخبَرَهم ربُّهم تبارك وتعالى أنَّه كَتَبَ في الذِّكْرِ الأوَّلِ أنَّهم يَرثونَ الأرضَ مِن الكُفَّارِ، ثم كَتَبَ ذلك في الكُتُبِ التي أنزَلَها على رُسُلِه[٤]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في تَفسيرِ الآيةِ.

٨- قال تعالى: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ وفي إطلاقِ اسمِ الأرضِ ما يصلُحُ لإرادةِ أنَّ سلطانَ العالمِ سيكونُ بيدِ المسلمينَ ما استقاموا على الإيمانِ والصلاحِ، وقد صدقَ الله وعدَه في الحالينِ وعلى الاحتمالينِ؛ في أنَّ الأرضَ هي أرضُ الجنَّةِ، أو أرضٌ مِن الدُّنيا[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ المُسلِمينَ أحقُّ النَّاسِ بأرضِ اللهِ[1].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الكِتابةُ هنا الكِتابةُ القَدَريَّةُ -التي لا بُدَّ أنْ تقَعَ- ويُقابِلُها الكِتابةُ الشَّرعيَّةُ -التي قد تقَعُ مِن بني آدَمَ، وقد لا تَقَعُ- كما في قَولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾[2] [البقرة: ٢١٦].

١١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ سؤالٌ؛ أنَّه قد يَعترضُ الذين يأسرُهم الزمانُ الذي يعيشونَ فيه، ولا تنفذُ بصائرُهم إلى ما وراءَه؛ بأنَّ المفسدينَ في الأرضِ ظاهرونَ، وهم الذين اتَّخذوا مِن العلمِ بالكونِ وسائلَ تخريبٍ في الأرضِ، وتمكينٍ للظُّلمِ، وأنَّ أهلَ الحقِّ الصالحينَ مغلوبٌ عليهم، مستضعفونَ؟!

الجواب: أنَّ ذلك حُكمُ حِقبةٍ مِن الزمانِ هي التي نعيشُ، ولكنَّ الله تعالى أخبَر أنَّ المآلَ للصالحينَ -والله أعلمُ بالمفسدينَ-، وإنَّ خبرَه صادقٌ، والمستقبلَ غيبٌ؛ لا يعلمُه إلَّا هو[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ استئنافٌ ابتِدائيٌّ، شرَعَ في بَيانِ حالِ المُؤمِنينَ إثْرَ شَرْحِ حالِ الكَفرةِ، حَسَبَما جَرَتْ به سُنَّةُ التَّنزيلِ مِن شَفْعِ الوعْدِ بالوعيدِ، وإيرادِ التَّرغيبِ مع التَّرهيبِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٩/ ٤٩٢٧).

فالجُملةُ مع ما بعْدَها تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، كما أنَّ ما قبْلَها مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ...﴾ إلخ، تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ في قولِه تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ...﴾ إلخ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ ذكَرَ الموصولَ في تَعريفِهم؛ لأنَّ الموصولَ للإيماءِ إلى أنَّ سبَبَ فَوزِهم هو سَبْقُ تَقديرِ الهِدايةِ لهم(٢).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ذكَرَ اسمَ الإشارةِ؛ لتَمييزِهم بتلك الحالةِ الحَسَنةِ، وما فيه من مَعنى البُعْدِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما يُذْكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ ما تَقدَّمَ على اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، وهو سَبْقُ الحُسْنى مِن اللهِ، وللإيماءِ إلى رِفْعةِ مَنزِلَتِهم(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ بيانٌ لِمَعنى ﴿مُبْعَدُونَ﴾؛ سِيقَ للمُبالَغةِ في إنقاذِهم منها(٤).

- قولُه: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ بيانٌ لفَوزِهم بالمَطالِبِ إثْرَ بَيانِ خَلاصِهم مِن المَهالِكِ والمَعاطِبِ، وتَقديمُ الظَّرفِ للقصْرِ والاهتمامِ به، وجِيءَ فيه بما يدُلُّ على العُمومِ، وهو ﴿فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾، وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

يدُلُّ على الدَّوامِ، وهو ﴿خَٰلِدُونَ﴾[١].

٣- قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ بيانٌ لِنَجاتِهم مِن الأفزاعِ بالكُلِّيَّةِ بعْدَ بَيانِ نَجاتِهم من النَّارِ؛ لأنَّهم إذا لم يَحْزُنْهم أكبَرُ الأفزاعِ لا يَحزُنُهم ما عداهُ بالضَّرورةِ[٢].

- وصِيغةُ ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾ تُشعِرُ بتكلُّفِ لِقائِه، وهو تكلُّفُ تَهيُّؤٍ واستعدادٍ[٣].

- قولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ، تَقديرُه: قائلينَ: هذا اليومُ يَومُكم[٤].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ باسمِ إشارةِ القريبِ ﴿هَٰذَا﴾؛ لتَعيينِ اليومِ وتَمييزِه بأنَّه اليومُ الحاضِرُ. وإضافةُ (يوم) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ؛ لإفادةِ اختصاصِه بهم، وكَونِ فائدتِهم حاصِلةً فيه[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٧).

- جُملةُ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ مُستأنَفةٌ؛ قُصِدَ منها إعادةُ ذِكْرِ البَعْثِ، والاستدلالِ على وُقوعِه وإمكانِه؛ إبطالًا لإحالةِ المُشرِكين وُقوعَه. وقد رُتِّبَ نَظْمُ الجُملةِ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ لأغراضٍ بَليغةٍ، وأصْلُ الجُملةِ: نُعِيدُ الخَلْقَ كما بدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ يومَ نَطْوي السَّماءَ كطَيِّ السِّجِلِّ للكِتابِ وعْدًا علينا؛ فحُوِّلَ النَّظْمُ، فقُدِّمَ الظَّرفُ بادِئَ ذِي بَدْءٍ؛ للتَّشويقِ إلى مُتعلَّقِه، ولِمَا في الجُملةِ الَّتي أُضِيفَ إليها الظَّرفُ مِن الغَرابةِ والطِّباقِ؛ إذ جُعِلَ ابتداءُ خَلْقٍ جَديدٍ -وهو البَعْثُ- مُؤَقَّتًا بوَقْتِ نَقْضِ خَلْقٍ قَديمٍ، وهو طَيُّ السَّماءِ، وقُدِّمَ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ -وهو حالٌ مِن الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾-؛ للتَّعجيلِ بإيرادِ الدَّليلِ قبْلَ الدَّعوى؛ لِتَتمكَّنَ في النَّفسِ فَضْلَ تمكُّنٍ، وكلُّ ذلك وُجوهٌ للاهتمامِ بتَحقيقِ وُقوعِ البَعْثِ، وعُقِّبَ ذلك بما يُفِيدُ تَحقُّقَ حُصولِ البَعْثِ مِن كَونِه وَعْدًا على اللهِ بتَضمينِ الوعْدِ مَعنى الإيجابِ، فعُدِّيَ بحَرْفِ (على) في قولِه تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾، أي: حَقًّا واجِبًا[1].

- قولُه: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ تَشبيهٌ لِطَيِّ السَّماءِ بِطَيِّ الكاتِبِ للصَّحيفةِ عندَ انتهاءِ كِتابَتِها. وتَعريفُ ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ وتَعريفُ (الكتاب) تَعريفُ الجِنْسِ؛ فاسْتوى في المُعرَّفِ الإفرادُ والجَمْعُ؛ فأمَّا قِراءةُ (الكُتب) بصِيغَةِ الجَمْعِ[2] مع كَونِ (السِّجِلِ) مُفْرَدًا، ففيها حُسْنُ التَّفنُّنِ

---

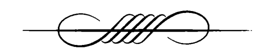
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٧، ١٥٨).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكسائيُّ، وحفصٌ. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٢).

بالتَّضادِّ، وأمَّا قِراءةُ (الكتاب) بصِيغَةِ الإفرادِ[١]، ففيها مُحسِّنُ مُراعاةِ النَّظيرِ في الصِّيغةِ[٢].

- قولُه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ تَشبيهٌ للإعادةِ بالإبداءِ في تناوُلِ القُدرةِ لهما على السَّواءِ[٣].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ مُؤكَّدةٌ بحَرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ قُدرةَ اللهِ؛ لأنَّهم لمَّا نَفَوُا البَعْثَ بعِلَّةِ تَعذُّرِ إعادةِ الأجسامِ بعْدَ فَنائِها، فقدْ لَزِمَهم إحالَتُهم ذلك في جانبِ قُدرةِ اللهِ. وفي ذِكْرِ فِعْلِ الكونِ ﴿كُنَّا﴾: إفادةُ أنَّ قُدرتَه قد تَحقَّقَت بما دَلَّ عليه دليلُ قولِه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[٤].



(١) قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٥٨).

الآيات (١٠٦-١١٢)

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَبَلَٰغًا﴾: أي: لكفايةً، يقال: في هذا الشيءِ بلاغٌ وبُلْغةٌ وتبلُّغٌ، أي: كفايةٌ، والبُلوغُ والبلاغُ: الانتهاءُ إلى أقصَى المقصدِ والمنتهَى، وربَّما يُعبَّرُ به عن المشارفةِ عليه، وإن لم ينتهِ إليه، وأصلُ (بلغ): هو الوصولُ إلى الشَّيءِ[1].

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: أي: على استواءٍ فِي العِلمِ مِنكَ ومِنهم؛ فلَا يَدَّعِي أحدٌ منهم أنَّه لم يبلُغْه الإنذارُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتدالٍ بينَ شَيئينِ[2].

﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾: أي: أعلَمْتُكم وأنذَرْتُكم، وأصلُ (أذن): يدُلُّ على العِلمِ والإعلامِ[3].

﴿تَصِفُونَ﴾: أي: تكذِبونَ وتقولونَ، والوصْفُ: ذِكْرُ الشَّيءِ بحِلْيتِه ونعْتِه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥، ٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٢).

وأصْلُ (وصف): تحْليةُ الشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: إنَّ في هذا القرآنِ لَكفايةً لِقَومٍ عابِدينَ اللهَ بما شَرَعه لهم ورَضِيَه منهم، يَتبلَّغونَ به في الوصولِ إلى بُغْيَتِهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ. وما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- إلَّا رَحمةً لجَميعِ الخَلقِ.

قُلْ: إنَّما يُوحَى إليَّ أنَّ إلهَكم الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له، هو اللهُ، فهل أنتم مُستَسلِمونَ له، مُنقادونَ لِطاعتِه؟

فإنْ أعرَضَ هؤلاء عن الإسلامِ فقُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: أعلَمْتُكم ببَراءَتي منكم وبراءَتِكم مِنِّي، وأنَّه لا صلحَ بينَنا، ولا سلمَ، فاستَوَينا جميعًا في العِلمِ بذلك، ولسْتُ أدري أقريبٌ ما وعَدَكم اللهُ به من العَذابِ، أم هو بَعيدٌ. إنَّ اللهَ يَعلمُ ما تَجهَرونَ به من أقوالِكم، وما تكتُمونَه في سَرائِرِكم، وسيُحاسِبُكم عليه، ولَسْتُ أدري لعَلَّ تأخيرَ العذابِ الذي استعْجلتُموه استدراجٌ لكم وابتِلاءٌ، فتزدادُ سَيِّئاتُكم، وتتمَتَّعونَ قَليلًا في حياتِكم إلى وَقتٍ مُعَيَّنٍ، ثمَّ يأتيكم العَذابُ.

قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ربِّ افصِلْ بيْنَنا وبيْنَ قَوْمِنا المكَذِّبينَ بالقَضاءِ الحَقّ، بأنْ تَنصُرَني عليهم وتَخذُلَهم. ورَبُّنا الرَّحمنُ نَستَعينُ به على ما تَصِفونَه -أيُّها الكُفَّارُ- مِن الشِّركِ والتَّكذيبِ، والافتِراءِ عليه وعلى رَسولِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٩٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ما ذُكِرَ في هذه السُّورةِ مِن الحِكَمِ والدَّلائِلِ والقَصَصِ، واعِظًا شافِيًا حَكيمًا، ومُرشِدًا هادِيًا عَليمًا؛ قال واصِلًا بما تقَدَّمَ؛ إشارةً إلى أنَّه نتيجتُه(١):

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾.

أي: إنَّ في هذا القرآنِ الذي أنزَلْناه على نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم(٢) لَكفايةً؛ يَتبلَّغونَ به في الوصولِ إلى بُغْيَتِهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ(٣) لِقَومٍ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥٠٨).

(٢) ممن اختار أنَّ الإشارةَ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ تعودُ إلى القرآنِ الكريمِ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٠).

وقيل: المرادُ: ما جرَى ذِكرُه في هذه السورةِ مِن الوَعظِ وغيرِه. وممن قال بذلك: القرطَبي، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢).

وقيل: المراد: ما ذُكِرَ في الآيةِ السَّابقةِ مِن الوَعدِ الموعودِ به في الزَّبورِ مِن أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبادُ اللهِ الصَّالِحونَ. وممن قال بذلك: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٤).

(٣) ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَبَلَٰغًا﴾ الكفايةُ، واقتَصر عليها: الرسعني، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٢٦).

وفسَّر الواحدي وابنُ الجوزي البلاغَ بأنَّه الكفايةُ، لكنَّهما قالا: (والمعنى: أنَّ مَن اتَّبَع القرآنَ وعمِل به، كان القرآنُ بلاغَه إلى الجنَّةِ). يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٤).

وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي: إلى رِضوانِ الله، أي: سببًا يبلغُهم إلى رِضوانِه، ويتبلَّغون به في الوصولِ إلى دارِ كرامتِه، وإلى ما يرجونَ مِن الثوابِ. ممن اختار ذلك في الجملةِ: مقاتِل بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٠)، =

دَيدَنُهم وشَأنُهم القيامُ بعِبادةِ اللهِ بما شَرَعَ[١].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾.

أي: وما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- إلَّا رَحمةً لِجَميعِ الخَلقِ[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قيل: يا رَسولَ اللهِ، ادْعُ على المُشرِكينَ،

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

وممن جمَع بينَ القولينِ السابقينِ، فاختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَبَلَٰغٗا﴾ أي: أنَّ فيه الكفايةَ للعابدينَ، وما يبلغونَ به بُغيتَهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ: الرازي، والنسفي، وأبو حيان، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣٩، ٤٤١)، ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

قال ابن جرير: (أولى القولينِ في ذلك بالصوابِ القولُ الذي رُوي عن ابنِ عباسٍ، وهو أنَّ الله أرسَل نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم رحمةً لجميعِ العالَمِ؛ مؤمنِهم، وكافرِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤١).

وقال مقاتلُ بنُ سليمان: (﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني: الجنَّ والإنسَ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٩٧).

وقال ابنُ جُزي: (المعنى...: أنَّ اللهَ رَحِمَ العالَمينَ بإرسالِ سَيدِنا محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم؛ لأنَّه جاءهم بالسَّعادةِ الكبرى، والنَّجاةِ مِن الشَّقاوة العظمى، ونالوا على يديه الخيراتِ الكثيرةَ في الآخرةِ والأولى، وعَلَّمَهم بعد الجَهالةِ، وهداهم بعد الضَّلالةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١).

قال ابنُ عاشور: (وتفصيلُ ذلك يظهَرُ في مَظهَرينِ: الأوَّلُ: تخَلُّقُ نَفْسِه الزكيَّةِ بخُلُقِ الرَّحمةِ، والثاني: إحاطةُ الرَّحمةِ بتَصاريفِ شَريعتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٦).

قال: إنِّي لم أُبعَثْ لعَّانًا، وإنما بُعِثْتُ رَحمةً))[١].

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ بيَّن سبحانَه أنَّ أصلَ تلك الرَّحمةِ هو التَّوحيدُ والبراءةُ مِن الشِّركِ[٢].

وأيضًا بعدَ أن أورَدَ سُبحانَه الحُجَجَ والبراهينَ، لإقناعِ الكافِرينَ بأنَّ رِسالةَ الرَّسولِ حَقٌّ، حتى لم يَبْقَ في القَوسِ مِنْزَعٌ[٣]، وبلغ الغايةَ التي ليس بَعدَها غايةٌ، وبيَّنَ أنَّ هذا الرَّسولَ رَحمةٌ للعالَمينَ، وهدايةٌ للنَّاسِ أجمعينَ، وأنَّ مَن اتَّبَعه سَلَك سبيلَ الرَّشادِ، ومَن نأى عنه ضَلَّ وسار في طريقِ الغَوايةِ والعِنادِ- أردَفَ ذلك ما يكونُ إعذارًا وإنذارًا في مُجاهَدتِهم، والإقدامِ على مُناوَأتِهم، بعد أن أعيَتْه الحِيَلُ، وضاقت به السُّبُلُ، ولم تُغنِهم الآياتُ والنُّذُر، فتَمادَوا في غَوايتِهم، ولجُّوا في عِنادِهم، وأصبَحَ مِنَ العَسيرِ إقناعُهم وهدايتُهم[٤].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى عقَّب الوَصفَ الجامِعَ لِرسالةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن حيثُ ما لها مِنَ الأثَرِ في أحوالِ البَشَرِ، بوَصفٍ جامِعٍ لأصلِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ في ذاتِها، الواجِبِ على كلِّ مُتَّبعٍ لها، وهو الإيمانُ بوحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وإبطالُ إلهيَّةِ ما سواه؛ لِنَبذِ الشِّركِ المَبثوثِ بين الأُمَمِ يَومَئذٍ؛ وللاهتِمامِ بذلك صُدِّرَت جُملتُه بالأمرِ بأن يقولَ لهم لاستِصغاءِ أسماعِهم[٥]:

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٩).

(٣) المِنْزَعُ: السَّهمُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٠).

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما يُوحي اللهُ إليَّ أنَّما معبودُكم مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له في العِبادةِ، فهل أنتم مُستَسلِمونَ لِتَوحيدِ اللهِ، مُنقادونَ لِطاعتِه وعِبادتِه وَحْدَه بعدَ هذا البَيانِ(١)؟

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ النَّاسُ عن الإسلامِ، فقُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: أعلَمْتُكم ببَراءتي منكم وبراءتِكم مِنِّي، وأنَّه لا صُلحَ بينَنا، ولا سِلْمَ، فاستَوَينا جميعُنا في العِلمِ بذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨).

ممن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ قُتَيْبةَ، وابن جرير، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥١).

وقيل: المعنى: أعلَمْتُكم بما يُوحَى إليَّ؛ لتستووا في الإيمانِ به. وممن اختاره: الزجَّاج. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٠٨).

قال ابن جزي: (أعلمتُكم بالحقِّ على استواءٍ في الإعلامِ، وتبليغٍ إلى جميعِكم، لم يختصَّ به واحدٌ دونَ آخَرَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١).

وقال ابن عطية: (معناه: عرَّفتُكم بنِذارتي، وأردتُ أن تُشارِكوني في معرفةِ ما عندي مِنَ الخَوفِ عليكم مِنَ الله تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٣). =

﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

أي: وما أدري أقريبٌ زَمَنُ وُقوعِ ما وعَدَكم اللهُ به من العَذابِ، أم هو بَعيدٌ(1)؟

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

أي: لكنَّ عَذابَكم واقعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يَجهَرُ به عِبادُه مِن أقوالِهم، ويَعلَمُ ما تُخفونَه -أيُّها المُشرِكونَ- وسيُجازيكم على ذلك عاجِلًا أو آجِلًا(2).

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: 99].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

= وقال السعدي: (﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي: أعلمْتُكم بالعقوبةِ ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: علمي وعلمُكم بذلك مستوٍ، فلا تقولوا -إذا أُنزِل بكم العذابُ: ما جاءنا مِن بشيرٍ ولا نذيرٍ، بل الآنَ استوَى علمي وعلمُكم، لما أنذَرْتُكم، وحذَّرْتُكم، وأعلمتُكم بمآلِ الكفرِ، ولم أكتُمْ عنكم شيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: 532).

(1) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/ 442)، ((تفسير القرطبي)) (11/ 350)، ((تفسير ابن كثير)) (5/ 388)، ((تفسير السعدي)) (ص: 532)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/ 174).

قال البقاعي: (... فقال: ﴿وَإِنْ﴾ أي: وما ﴿أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ﴾ جِدًّا بحيث يكونُ قُربُه على ما تتعارَفونَه ﴿أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مِن عذابِ اللهِ في الدُّنيا بأيدي المُسلِمينَ أو بغيرِه، أو في الآخرةِ، مع العلمِ بأنَّه كائِنٌ لا محالةَ، وأنَّه لا بدَّ أن يلحَقَ مَن أعرض عن اللهِ الذُّلُّ والصَّغارُ). ((نظم الدرر)) (12/ 512).

وقال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يَشمَلُ كُلَّ ما يُوعَدونَه مِن عِقابٍ في الدُّنيا والآخرةِ، إن عاشُوا أو ماتوا). ((تفسير ابن عاشور)) (17/ 174).

(2) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/ 442)، ((تفسير القرطبي)) (11/ 350)، ((تفسير البيضاوي)) (4/ 63)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (12/ 512، 513)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/ 252).

قال البيضاوي: (﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما تجاهِرونَ به من الطَّعنِ في الإسلامِ. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ مِنَ الإِحَنِ والأحقادِ للمُسلِمينَ، فيُجازيكم عليه). ((تفسير البيضاوي)) (4/ 63).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: فإنْ تأخَّرَ عذابُكم، فما أدري سَبَبَ ذلك وحِكمَتَه، لكنْ لعَلَّه[١] فِتنةٌ لكم، فتزدادُ سَيِّئاتُكم، وتتمَتَّعونَ قليلًا في حياتِكم إلى وَقتٍ مُعَيَّنٍ، ثمَّ يأتيكم العَذابُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿قَٰلَ﴾ بالمُضِيِّ، على أنَّه خَبَرٌ مِن الله تعالى عن نبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾[٣].

---

(١) ممن اختار أنَّ الهاءَ في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ ترجِعُ إلى تأخيرِ العذابِ عنهم: ابنُ جرير، والبغوي، والرسعني، وابن جزي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٧).
وقيل: الهاءُ ترجِعُ إلى قولِه: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني: إنَّ هذا الَّذي أقولُ: لعَلَّه فتنةٌ لكم. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٤، ١٧٥).

(٣) قرأ بها حفص عن عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٥). =

٢- قِراءةُ ﴿قُلْ﴾ على أنَّه أمرٌ مِن اللهِ تعالى لنبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يسألَه الحُكمَ بالحَقِّ[1].

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾.

أي: قال مُحمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ داعيًا رَبَّه: يا رَبِّ، افعَلْ ما تنصُرُ به عبادَك، وتَخذُلُ به أعداءَك.[2].

كما حكى اللهُ تعالى عن شُعَيبٍ عليه السَّلامُ قولَه: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧١).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).
قال الرازي: (﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ فِيهِ وجوهٌ: أحدُها: أي: رَبِّي اقْضِ بيْني وبيْنَ قومي بالحقِّ، أي: بالعذابِ. كأنَّه قال: اقضِ بيني وبينَ مَن كذَّبني بالعذابِ... وثانيها: افصِلْ بيني وبينَهم بما يُظهِرُ الحقَّ للجميعِ، وهو أنْ تنصرَني عليهم). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٥).
وقال الألوسي: (والحَقُّ: العَدْلُ، أي: رَبِّ اقْضِ بَيْنَنا وبيْن أهلِ مَكَّةَ بالعَدلِ المُقتَضي لتَعجيلِ العذابِ والتَّشديدِ عليهم؛ فهو دعاءٌ بالتَّعجيلِ والتَّشديدِ، وإلَّا فكُلُّ قَضائِه تعالى عَدلٌ وحَقٌّ، وقد استُجيبَ ذلك؛ حيثُ عُذِّبوا ببَدرٍ أيَّ تعذيبٍ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٠٢).
وقال السَّعدي: (فاستجاب اللهُ هذا الدُّعاءَ، وحكَمَ بينهم في الدُّنيا قبْلَ الآخرةِ بما عاقبَ اللهُ به الكافرينَ مِن وَقعةِ «بَدرٍ» وغَيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

أي: وربُّنا المتَّصِفُ بالرَّحمةِ الواسِعةِ هو وَحْدَه الذي نَطلُبُ منه العَونَ عليكم -أيُّها المُشرِكونَ- على ما تَفتَرونَه عليه وعلى رَسولِه مِن الوَصفِ الباطِلِ(١).

كما قال تعالى حكايةً عن يَعقوبَ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ فليس للعابِدينَ الذين هم أشرَفُ الخَلقِ وراءه غايةٌ؛ لأنَّه الكَفيلُ بمَعرفةِ رَبِّهم بأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، وبالإخبارِ بالغُيوبِ الصَّادِقةِ، وبالدَّعوةِ لحقائِقِ الإيمانِ، وشواهِدِ الإيقانِ؛ المُبَيِّنُ للمأموراتِ كُلِّها، والمَنهيَّاتِ جميعًا، المُعَرِّفُ بعُيوبِ النَّفسِ والعملِ، والطُّرُقِ التي ينبغي سلوكُها في دقيقِ الدِّينِ وجَليلِه، والتَّحذيرِ مِن طُرُقِ الشَّيطانِ، وبيانِ مَداخِلِه على الإنسانِ، فمَن لم يُغْنِه القرآنُ فلا أغناه اللهُ، ومَن لا يَكفيه فلا كفاه اللهُ(٢)!

٢- على الإنسانِ أن يكونَ مَقصودُه نَفعَ الخَلقِ، والإحسانَ إليهم مُطلَقًا، وهذا هو الرَّحمةُ التي بُعِثَ بها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، والرَّحمةُ يحصُلُ بها نَفعُ العِبادِ؛ فعلى العَبدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٦، ١٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٢).

ومِن افترائِهم ووَصْفِهم الباطِلِ قَولُهم في حَقِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقَولُهم: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقولُهم على اللهِ جَلَّ ثناؤُه: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

أن يَقصِدَ الرَّحمةَ والإحسانَ والنَّفعَ، لكِنْ للاحتياجِ إلى دَفعِ الظُّلمِ شُرِعَت العُقوباتُ، وعلى المُقيمِ لها أن يَقصِدَ بها النَّفعَ والإحسانَ، كما يَقصِدُ الوالِدُ بعُقوبةِ وَلَدِه، والطَّبيبُ بدواءِ المَريضِ، والمقصودُ بهذه النُّكتةِ أنَّ الدِّينَ والشَّرعَ لم يأمُرْ إلَّا بما هو نَفعٌ وإحسانٌ ورَحمةٌ للعبادِ، وأنَّ المُؤمِنَ عليه أن يَقصِدَ ذلك ويُريدَه، فيكونَ مَقصودُه الإحسانَ إلى الخَلقِ ونَفْعَهم، وإذا لم يَحصُلْ ذلك إلَّا بالإضرارِ ببَعضِهم، فعَلَه على نيَّةِ أن يدفَعَ به ما هو شَرٌّ منه، أو يحصُلَ به ما هو أنفَعُ مِن عَدَمِه[1].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا الاستِفهامُ يتضَمَّنُ الأمرَ بإخلاصِ التَّوحيدِ والانقيادِ إلى اللهِ تعالى[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ المقصودُ منه الأمرُ بالإخلاصِ، وتَركُ النِّفاقِ؛ لأنَّه تعالى إذا كان عالِمًا بالضَّمائرِ، وجَبَ على العاقِلِ أن يُبالِغَ في الإخلاصِ[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ في هذه الآيةِ أعظَمُ حَثٍّ على لُزومِ الإنسانِ بالحَقِّ؛ ليتأهَّلَ لهذه الدَّعوةِ[4]، فالمرادُ بقولِه تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: كُنْ أنت أيُّها القائلُ على الحقِّ؛ لِيُمْكِنَكَ أنْ تقول: احكمْ بالحقِّ، لأنَّ المُبْطِلَ لا يمكنُه أنْ يقولَ: احْكُمْ بالحق[5]!

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥١٤).

(٥) الفائدةُ لابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِمَّا يدُلُّ على أنَّ نبيَّ اللهِ مُحمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم آخِرُ الرُّسُلِ والأنبياءِ؛ قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقَولُه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وما أشبَهَ ذلك مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّه رَسولٌ إلى يَومِ القيامةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ النَّاسَ لا يَحتاجونَ بَعدَه إلى نبيٍّ ولا رَسولٍ؛ لأنَّ شَريعَتَه ستَبقَى[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ حِكمةُ تمييزِ شَريعةِ الإسلامِ بهذه المَزيَّةِ أنَّ أحوالَ النُّفوسِ البَشَريَّةِ مَضَت عليها عُصورٌ وأطوارٌ تهَيَّأَتْ بتَطوُّراتِها لِأنْ تُساسَ بالرَّحمةِ، وأن تُدفَعَ عنها المشَقَّةُ، إلَّا بمقاديرَ ضَروريَّةٍ لا تُقامُ المصالِحُ بدُونِها، فما في الشَّرائِعِ السَّالِفةِ مِن اختِلاطِ الرَّحمةِ بالشِّدَّةِ وما في شَريعةِ الإسلامِ مِن تمَحُّضِ الرَّحمةِ لم يجْرِ في زَمَنٍ مِن الأزمانِ إلَّا على مُقتضى الحِكمةِ، ولكِنَّ اللهَ أسعد هذه الشَّريعةَ والذي جاء بها والأمَّةَ المُتَّبِعةَ لها بمُصادَفتِها للزَّمَنِ والطَّورِ الذي اقتضَت حِكمةُ اللهِ في سياسةِ البَشَرِ أن يكونَ التَّشريعُ لهم تَشريعَ رَحمةٍ إلى انقِضاءِ العالَمِ، فأُقيمَت شَريعةُ الإسلامِ على دعائِمِ الرَّحمةِ والرِّفقِ واليُسرِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وما يُتخَيَّلُ مِن شِدَّةٍ في نحوِ القِصاصِ والحُدودِ فإنَّما هو لِمُراعاةِ تعارُضِ الرَّحمةِ والمشَقَّةِ، كما أشار إليه قَولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فالقِصاصُ والحُدودُ شِدَّةٌ على الجُناةِ، ورَحمةٌ

= لابن رجب الحنبلي (٢/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٤/ ٤١٩).

ببَقيَّةِ النَّاسِ[١].

٣- قد يُعارَضُ قولُه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ بأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يكُنْ رَحمةً للكافرينَ، بلْ نِقْمةٌ؛ إذْ لولا إرسالُه إليهم ما عُذِّبوا بكُفْرِهم؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [الإسراء: ١٥]؟

والجوابُ عن ذلك: أنَّه رَحمةٌ للكافرينَ مِن حيثُ إنَّ عذابَ الاستئصالِ أُخِّرَ عنهم بسبَبِه، أو كان رَحمةً عامَّةً، من حيثُ إنَّه جاء بما يُسْعِدُهم إنِ اتَّبَعوه، ومَن لم يَتَّبِعْه فهو المُقصِّرُ، أو المُرادُ بالرَّحمةِ الرَّحيمُ، وهو صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان رَحيمًا للكُفَّارِ أيضًا[٢].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ حَصرُ الوَحيِ في تَوحيدِ الأُلوهيَّةِ حَصرٌ له في أصلِه الأعظَمِ الذي يَرجِعُ إليه جميعُ الفُروعِ؛ لأنَّ شرائِعَ كُلِّ الأنبياءِ داخِلةٌ في ضِمنِ لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ لأنَّ مَعناها خَلعُ كُلِّ الأندادِ سِوى اللهِ في جميعِ أنواعِ العباداتِ، وإفرادُ اللهِ بجَميعِ أنواعِ العباداتِ، فيَدخُلُ في ذلك جميعُ الأوامِرِ والنَّواهي القَوليَّةِ والفِعليَّةِ والاعتقاديَّةِ[٣]، فالجُملةُ صِيغَت في صيغةِ حَصرِ الوَحيِ إليه في مَضمونِها؛ لأنَّ مَضمونَها هو أصلُ الشَّريعةِ الأعظَمُ، وكُلُّ ما تَشتَمِلُ عليه الشَّريعةُ مُتفَرِّعٌ عليه؛ فالدَّعوة إليه هي مَقادةُ الاجتِلابِ إلى الشَّريعةِ كُلِّها؛ إذ كان أصلُ الخِلافِ يومَئذٍ بينَ الرَّسولِ ومُعانِديه هو قَضيَّةَ الوحدانيَّةِ؛ ولذلك قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ [ص: ٥]، وما كان إنكارُهم البَعثَ إلَّا لأنَّهم لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٨، ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٧).

يَجِدوه في دِينِ شِرْكِهم؛ إذ كان الذين وَضَعوا لهم الشِّركَ لا يُحَدِّثونَهم إلَّا عن حالِهم في الدُّنيا، فما كان تصَلُّبُهم في إنكارِ البَعثِ إلَّا شُعبةً مِن شُعَبِ الشِّركِ؛ فلا جرَمَ كان الاهتِمامُ بتقريرِ الوَحدانيَّةِ تَضييقًا لِشُقَّةِ الخلافِ بينَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبينَ المُشرِكينَ المُعرِضينَ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَبنى الإسلامِ على توحيدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ نبَّه اللهُ تعالى على الجَهرِ؛ لأنَّ مِن أحوالِ الجَهرِ أن تَرتَفِعَ الأصواتُ جِدًّا بحيث تختَلِطُ ولا يُمَيَّزُ بينها، ولا يَعرِفُ كَثيرٌ مِن حاضِريها ما قاله أكثَرُ القائلينَ، فأَعلَمَ سُبحانَه أنَّه لا يَشغَلُه صَوتٌ عن آخَرَ، ولا يَفوتُه شَيءٌ عن ذلك، ولو كثُرَ(٣).

٧- الحُكمُ نَوعانِ: حُكمٌ كَونيٌّ، وحُكمٌ دِينيٌّ، ومِنَ الحُكمِ الكَونيِّ قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، ومعنى الآيةِ هنا: افعلْ ما تَنْصُرُ به عبادَك، وتخذُلُ به أعداءَك، وأمَّا الحُكْمُ الدِّينيُّ فكَقولِه سُبحانَه: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾(٤) [الممتحنة: ١٠].

٨- ختم اللهُ هذه السُّورةَ بقَولِه تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ على إحدى القراءتَينِ؛ لأنَّه عليه السَّلامُ كان قد بَلَغ في البيانِ الغايةَ لهم، وبَلَغوا النِّهايةَ في أذيَّتِه وتكذيبِه؛ فكان قُصارى أمرِه تعالى بذلك تسليةً له، وتعريفًا أنَّ المقصودَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٥١٢). ويُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٤، ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠).

مَصلحتُهم، فإذا أبَوْا إلَّا التماديَ في كُفرِهم فعليك بالانقِطاعِ إلى رَبِّك؛ لِيَحكُمَ بينك وبينهم بالحَقِّ؛ إمَّا بتعجيلِ العِقابِ بالجِهادِ أو بغَيرِه، وإمَّا بتأخيرِ ذلك؛ فإنَّ أمْرَهم وإن تأخَّرَ فما هو كائِنٌ قَريبٌ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ تَذييلٌ للوعْدِ، وإعلانٌ بأنْ قد آنَ أوانُه، وجاء إبَّانُه[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ صِيغَتْ هذه الآيةُ بأبلَغِ نَظْمٍ؛ إذ اشتملَتْ -بوَجازةِ ألْفاظِها- على مَدْحِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَدْحِ مُرْسِلِه تعالى، ومَدْحِ رِسالتِه بأنْ كانت مَظهَرَ رَحمةِ اللهِ تعالى للنَّاسِ كافَّةً، وبأنَّها رَحمةُ اللهِ تعالى بخَلْقِه، فهي تَشتمِلُ على أربعةٍ وعِشْرينَ حَرْفًا بدُونِ حَرْفِ العطْفِ الَّذي عُطِفَت به، ذُكِرَ فيه الرَّسولُ، ومُرْسِلُه، والمُرْسَلُ إليهم، والرِّسالةُ، وأوصافُ هؤلاء الأربعةِ، مع إفادةِ عُمومِ الأحوالِ، واسْتِغراقِ المُرسَلِ إليهم، وخُصوصيَّةِ الحَصْرِ. وتَنكيرُ ﴿رَحْمَةً﴾ للتَّعظيمِ؛ إذ لا مُقْتضَى لإيثارِ التَّنكيرِ في هذا المَقامِ غيرُ إرادةِ التَّعظيمِ، وإلَّا لقِيلَ: إلَّا لِنَرْحَمَ العالمينَ، أو إلَّا أنَّك الرَّحمةُ للعالمينَ؛ فهذه اثْنا عشَرَ معنًى خُصوصيًّا[3].

- وانتصابُ ﴿رَحْمَةً﴾ في قولِه: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ على أنَّه حالٌ من ضَميرِ المُخاطَبِ يَجعَلُه وَصْفًا مِن أوصافِه؛ فإذا انضَمَّ إلى ذلك انحصارُ الموصوفِ في هذه الصِّفَةِ، صار مِن قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفَةِ؛ ففيه إيماءٌ لَطيفٌ إلى أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٦٥، ١٦٦).

الرَّسولَ اتَّحَدَ بالرَّحمةِ، وانحصَرَ فيها، ومِن المعلومِ أنَّ عُنوانَ الرَّسوليَّةِ مُلازِمٌ له في سائرِ أحوالِه، فصار وُجودُه رَحمةً، وسائرُ أكوانِه رَحمةً. ووُقوعُ الوصْفِ مَصدرًا يُفِيدُ المُبالَغةَ في هذا الاتِّحادِ بحيث تكونُ الرَّحمةُ صِفةً مُتمكِّنةً مِن إرسالِه؛ ولهذا خَصَّ اللهُ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذه السُّورةِ بوَصْفِ الرَّحمةِ، ولم يَصِفْ به غيرَه مِن الأنبياءِ، وكذلك في القُرآنِ كلِّه[1].

- والتَّعريفُ في ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لاستغراقِ كلِّ ما يَصدُقُ عليه اسمُ العالَمِ، فإنْ أُريدَ بـ(العالمينَ) أصنافُ ذَوي العِلْمِ؛ فمعنى كونِ الشَّريعةِ المُحمَّديَّةِ مُنحصِرةً في الرَّحمةِ: أنَّها أوسَعُ الشَّرائعِ رَحمةً بالنَّاسِ. وإنْ أُريدَ بـ(العالَمينَ) النَّوعُ من أنواعِ المَخلوقاتِ ذاتِ الحياةِ؛ فإنَّ الشَّريعةَ تَتعلَّقُ بأحوالِ الحيوانِ في مُعامَلةِ الإنسانِ إيَّاه، وانتفاعِه به[2].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

- صُدِّرَت جُملةُ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ بالأمْرِ؛ للاهتمامِ بذلك[3].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (إنَّما) لقَصْرِ الحُكْمِ على شَيءٍ، أو لقَصْرِ الشَّيءِ على حُكْمٍ، كما يقالُ: إنَّما زيدٌ قائمٌ، وإنَّما يقومُ زيدٌ. وقدِ اجتمَعَ المِثالانِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ مع فاعِلِه بمَنزِلةِ: إنَّما يقومُ زيدٌ، و﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بمَنزِلةِ: إنَّما زيدٌ قائمٌ. وفائدةُ اجتماعِهما: الدَّلالةُ على أنَّ الوحْيَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٦٧ - ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٧٠).

اللهُ عليه وسلَّمَ مَقصورٌ على استئثارِ اللهِ بالوَحدانيَّةِ، وفي قولِه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: أنَّ الوحْيَ الوارِدَ على هذا السَّنَنِ مُوجِبٌ أنْ تُخْلِصوا التَّوحيدَ للهِ، وأنْ تَخْلَعوا الأندادَ؛ ففي الآيةِ قَصرانِ: الأوَّلُ: قَصْرُ الصِّفَةِ على الموصوفِ، وذلك في قَصْرِ الوحْيِ على الوَحدانيَّةِ، والمعنى: لا يُوحَى إليَّ إلَّا اختصاصُ الإلهِ بالوَحدانيَّةِ، لا لأنَّه لم يُوحَ إليه بشَيءٍ غيرِها، ولكنَّها الأصلُ الرَّئيسُ في كلِّ عِبادةٍ وعمَلٍ، وهي المطلوبةُ أوَّلًا وقبْلَ كلِّ شَيءٍ، حتَّى كأنَّ ما عداها غيرُ مَنظورٍ إليهِ، أو غيرُ جَديرٍ بالذِّكْرِ. والقَصْرُ الثَّاني: قَصْرُ الموصوفِ على الصِّفَةِ، وذلك في قَصْرِ اللهِ تعالى على الوَحدانيَّةِ، وهو ظاهِرٌ في قولِه: ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1].

- قولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الفاءُ للدَّلالةِ على أنَّ ما قبْلَها مُوجِبٌ لِمَا بعْدَها[2]، والاستفهامُ حَقيقيٌّ، أي: فهلْ تُسلِمونَ بعْدَ هذا البَيانِ؟ وهو مُستعمَلٌ أيضًا في معنًى كِنائيٍّ، وهو التَّحريضُ على نَبْذِ الإشراكِ، وعلى الدُّخولِ في دَعوةِ الإسلامِ[3].

- وصِيغَ قولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ في الجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ دونَ أنْ يُقالَ: (فهلْ تُسلِمون)؛ لإفادةِ أنَّ المطلوبَ منهم إسلامٌ ثابتٌ، وكأنَّ فيه تَعريضًا بهم بأنَّهم في رَيبٍ يَتردَّدونَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٠، ١٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٢).

٤- قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ فيه إيجازُ قَصْرٍ[1]؛ لأنَّه تَحدَّثَ بثَلاثِ كَلماتٍ، وهي (آذنْتُكم، على، سَواء) عن كَلامٍ طَويلٍ، أي: إنْ تَولَّوا بعْدَ هذه الآياتِ والشَّواهِدِ، وأعْرَضوا، فقُلْ لهم: لقد أعْلَمْناكم على بَيانٍ، أنَّا وإيَّاكم في حَرْبٍ لا مُهادَنةَ فيها، ولا صُلْحَ بيننا، ولكنَّني لا أدري متى يأْذَنُ اللهُ[2].

- و﴿ ءَاذَنتُكُمْ ﴾ تَتضمَّنُ معنى التَّحذيرِ والنِّذارةِ، وهذا الإيذانُ هو إعلامٌ بما يَحِلُّ بمَن تَولَّى مِن العِقابِ وغَلبةِ الإسلامِ[3].

---

(١) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عبارات مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأول: إيجازُ القصرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْف؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتال؛ فارتفع بالقتْلِ -الذي هو قصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ الناسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثاني: إيجاز الحَذْف، والحذف لُغةً: هو الإسقاطُ. والإيجازُ بالحذف: هو حذفُ ما يُعلمُ ويُفهم من سِياق الكلام بشرط وجودُ مُقدَّرٍ يدلُّ عليه؛ فقد يكون الإيجازُ بالحذف وغيره. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكونَ في الحذفِ مقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيين)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٣، ٤٧٤).

- قولُه: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ تأخَّرَ المُستفهَمُ عنه لِمُراعاةِ الفاصلةِ؛ إذ لو كان التَّركيبُ: (أقريبٌ ما توعَدون أمْ بعيدٌ) لم تكُنْ فاصِلةٌ[1].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بينَ الجُمَلِ المُتعاطفةِ، والمقصودُ مِن الجُملةِ: تَعليلُ الإنذارِ بتَحقيقِ حُلولِ الوعيدِ بهم، وتَعليلُ عدَمِ العلمِ بقُرْبِه أو بُعْدِه، علَّلَ ذلك بأنَّ اللهَ تعالى يعلمُ جهرَهم وسِرَّهم[2].

٦- قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، قُصِدَ مِن هذا الاستئنافِ التَّلويحُ إلى عاقبةِ أمْرِ هذا الدِّينِ المَرجُوَّةِ المُستقبَلةِ؛ لِتَكونَ قِصَّةُ هذا الدِّينِ وصاحبِه مُستوفاةَ المَبدأِ والعاقبةِ، على وِزانِ ما ذُكِرَ قبْلَها مِن قَصصِ الرُّسلِ السَّابقينَ[3].

- وحُذِفَ المُتعلِّقُ الثَّاني لِفِعْلِ ﴿ٱحْكُم﴾؛ لتَنبيهِهم إلى أنَّ النَّبيَّ على الحقِّ؛ فإنَّه ما سأَلَ الحُكْمَ بالحقِّ إلَّا لأنَّه يُريدُه، أي: احْكُم لَنا، أو فِيهِم، أو بيْنَنا[4].

- قولُه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ قولُه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ تأكيدٌ؛ لِمَا في التَّصريحِ بالصِّفةِ مِن المُبالَغةِ، وإنْ كانتْ لازِمَةً للفعلِ؛ لأنَّ اللهَ لا يَحكُمُ إلَّا بالحقِّ، ونَظيرُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٧٦).

في عَكْسِه مِن صِفَةِ الذَّمِّ قولُه تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢]؛ فقد جاء هذا القيدُ على سَبيلِ التَّشنيعِ لِقَتْلِهم والتَّقبيحِ(١). وقيل: الصفةُ هنا أُقيمَتْ مُقامَ الموصوفِ، والتقديرُ: ربِّ احكُمْ بحكمِك الحقِّ(٢). وقيل: الحقُّ هاهنا بمعنى العذابِ، كأنَّه استعجَل العذابَ لقومِه، فعُذِّبوا يومَ بدرٍ(٣).

- وجُملةُ: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه. وإضافةُ الرَّبِّ في قوله: ﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاصَّةً؛ لِمَا أنَّ الدُّعاءَ مِن الوظائفِ الخاصَّةِ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما أنَّ إضافتَه هاهنا إلى ضَميرِ الجَمْعِ المُنتظِمِ للمُؤمِنينَ أيضًا؛ لِمَا أنَّ الاستعانةَ مِنَ الوظائفِ العامَّةِ لهم(٤).

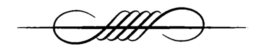
- وتَعريفُ المُسنَدِ إليه ﴿وَرَبُّنَا﴾ بالإضافةِ؛ لِتَضمُّنِها تَعظيمًا لشأْنِ المُسلِمينَ بالاعتزازِ بأنَّ اللهَ ربُّهم. وفيه تَعريضٌ بالمُشرِكينَ بأنَّهم لَيسوا مِن مَربوبيَّةِ اللهِ في شَيءٍ حسَبَ إعراضِهم عن عِبادتِه إلى عِبادةِ الأصنامِ(٥).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ فيه إفادةُ القَصْرِ، أي: لا أستعينُ بغَيرِه على ما تَصِفون(٦).

- وفي قولِه: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيث حُذِف مُضافٌ هو

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَجرورُ (على)، والتَّقديرُ: على إبطالِ ما تَصِفون بإظهارِ بُطلانِكم للنَّاسِ؛ حتَّى يُؤمِنوا ولا يَتَّبِعوكم، أو على إبطالِ ما يَترتَّبُ عليه مِن أذاهُم له وللمُؤمِنينَ[1].



تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السابعَ عَشَرَ

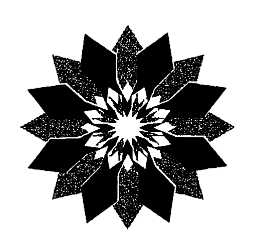
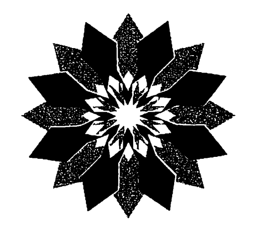
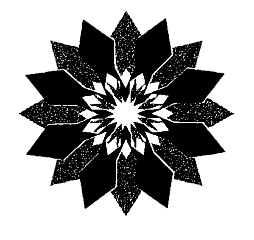
ويليه المجلدُ الثامنَ عَشَرَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الحَجِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٧).

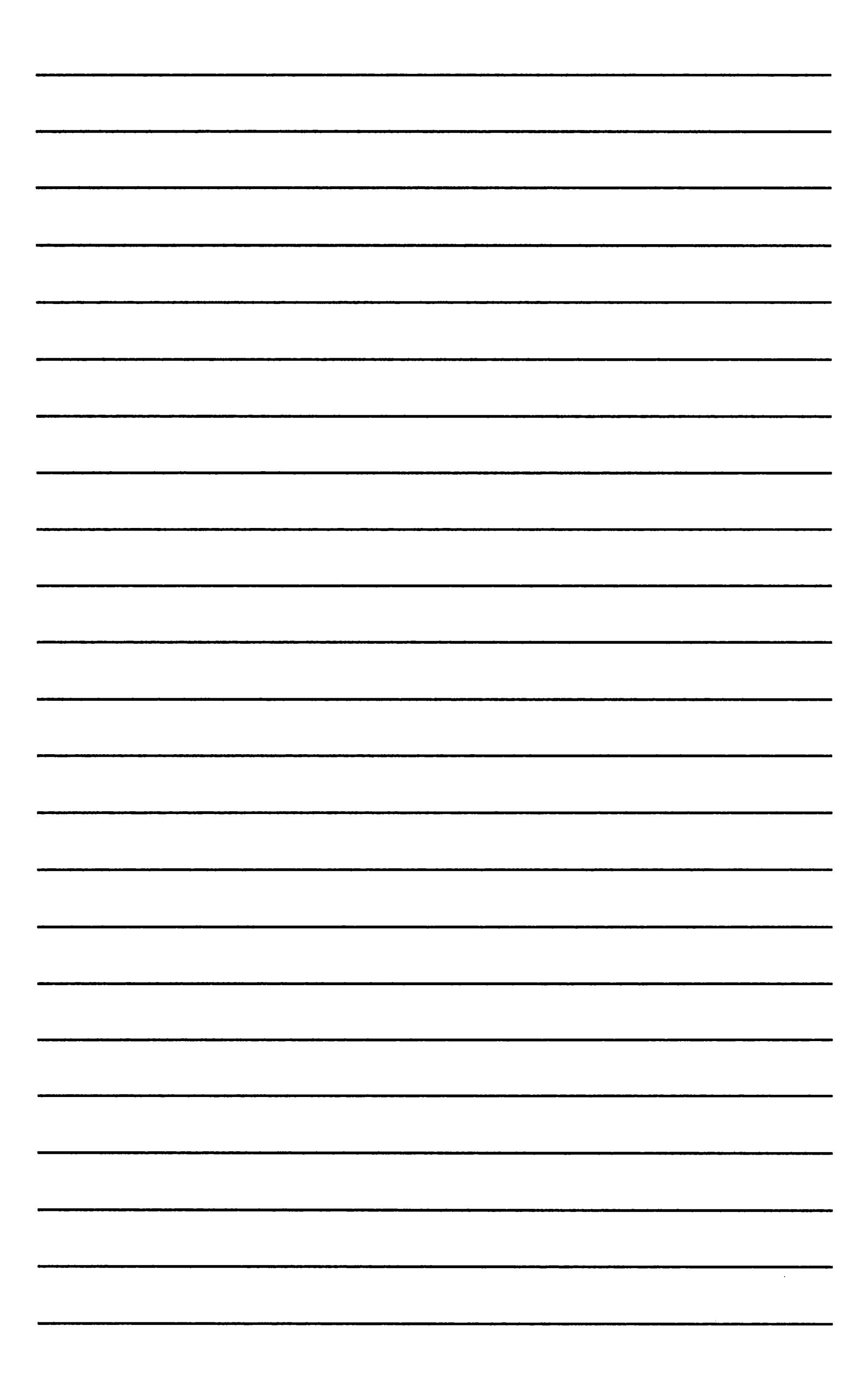


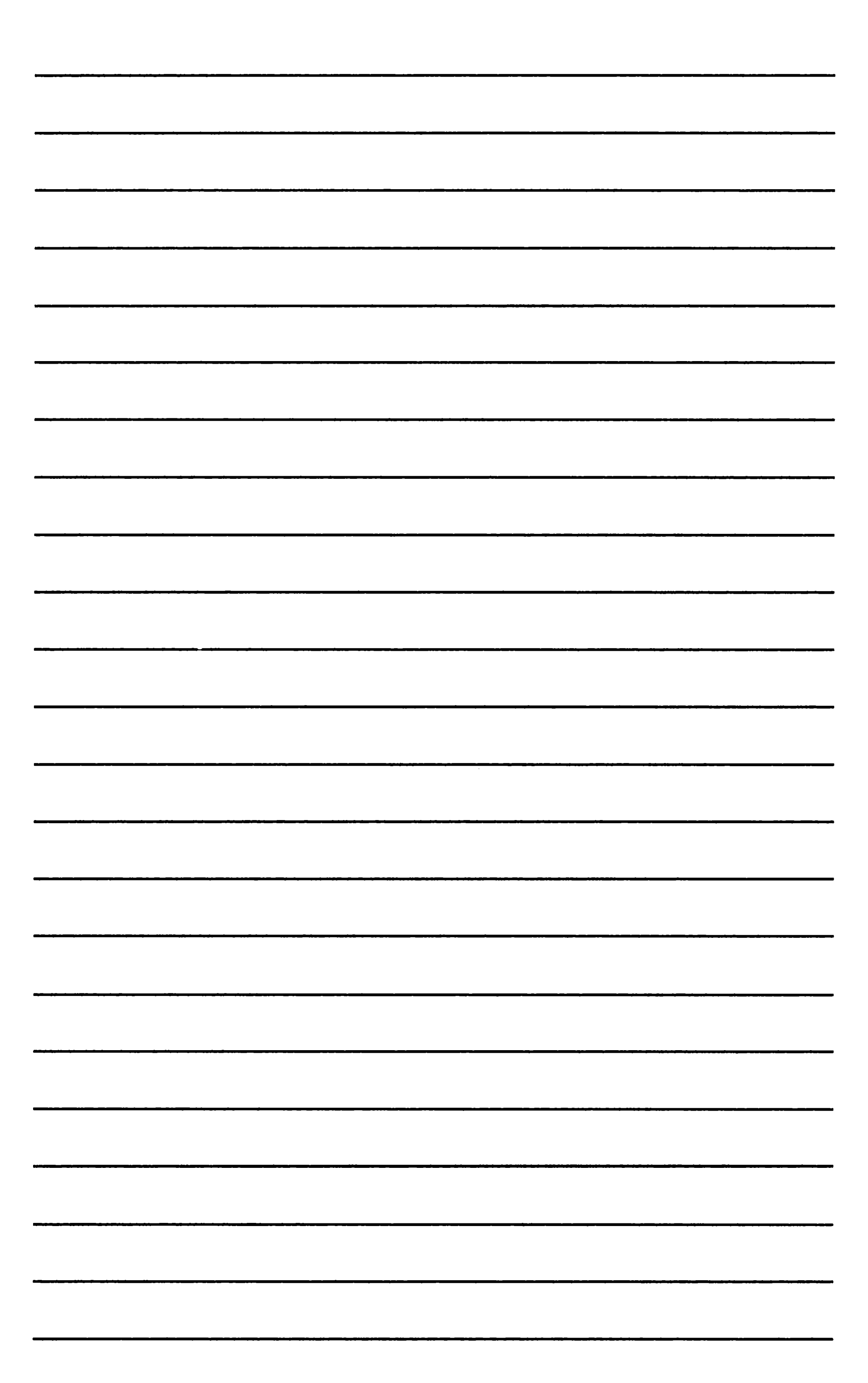
الفهرس

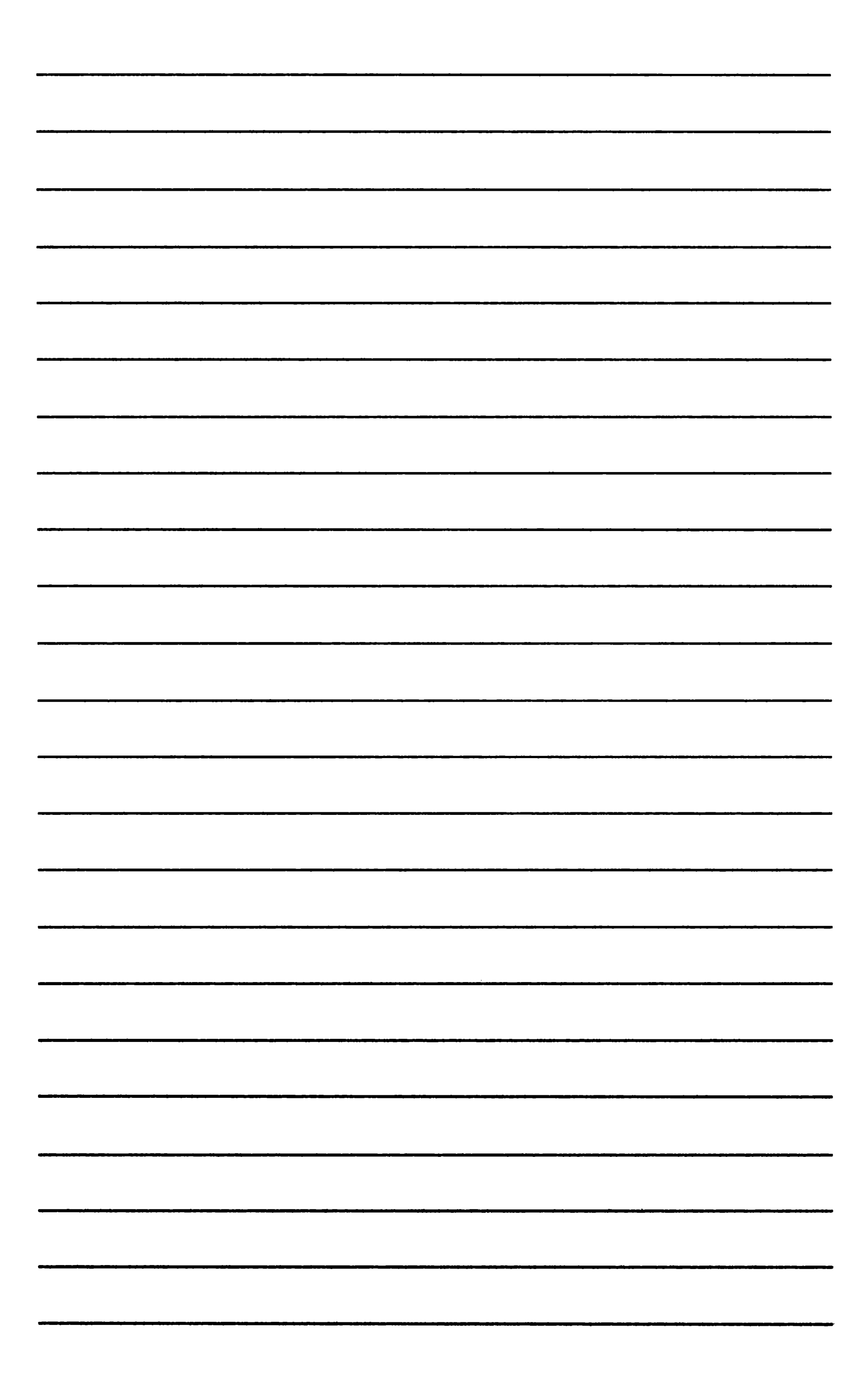




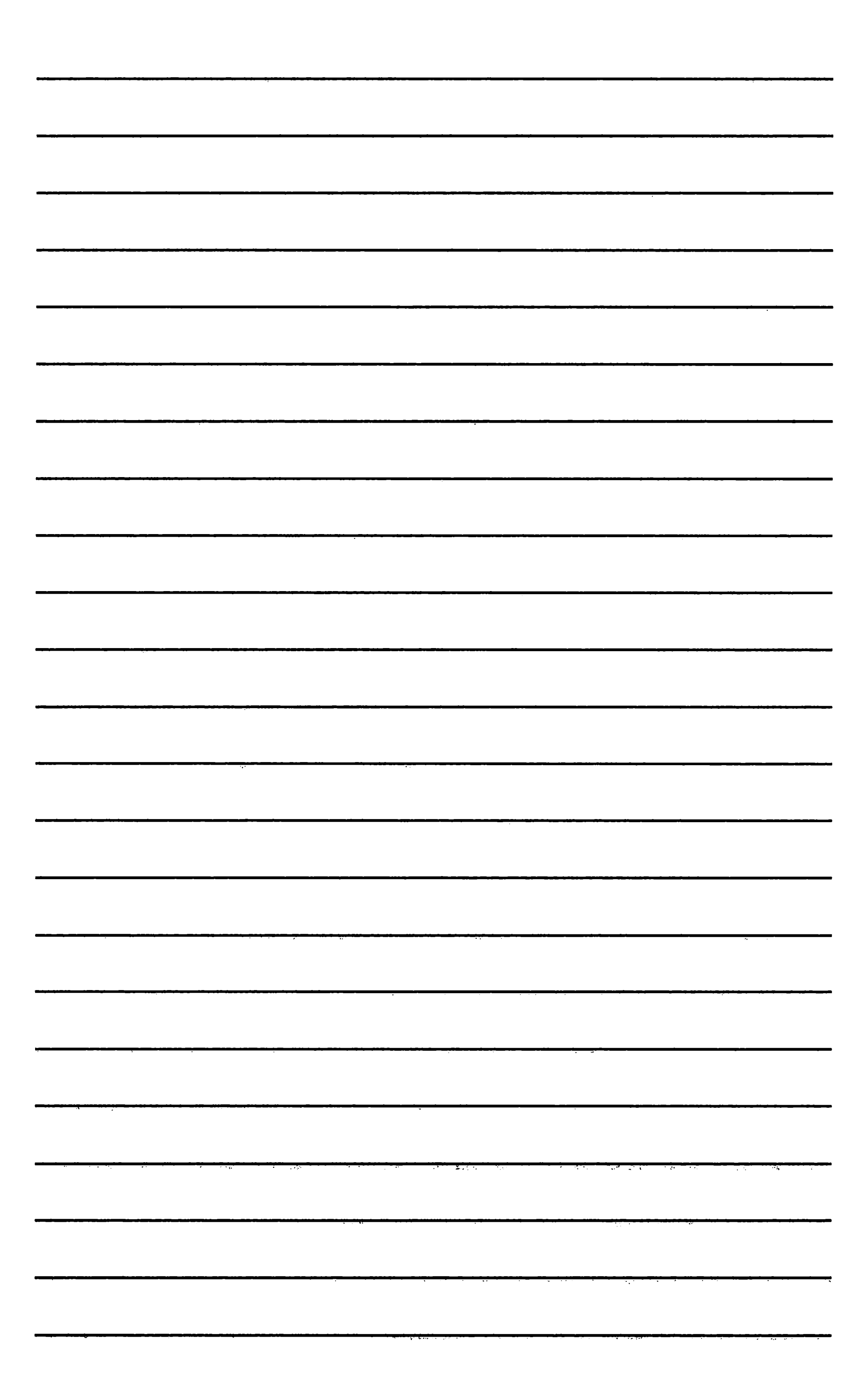
الفهرس

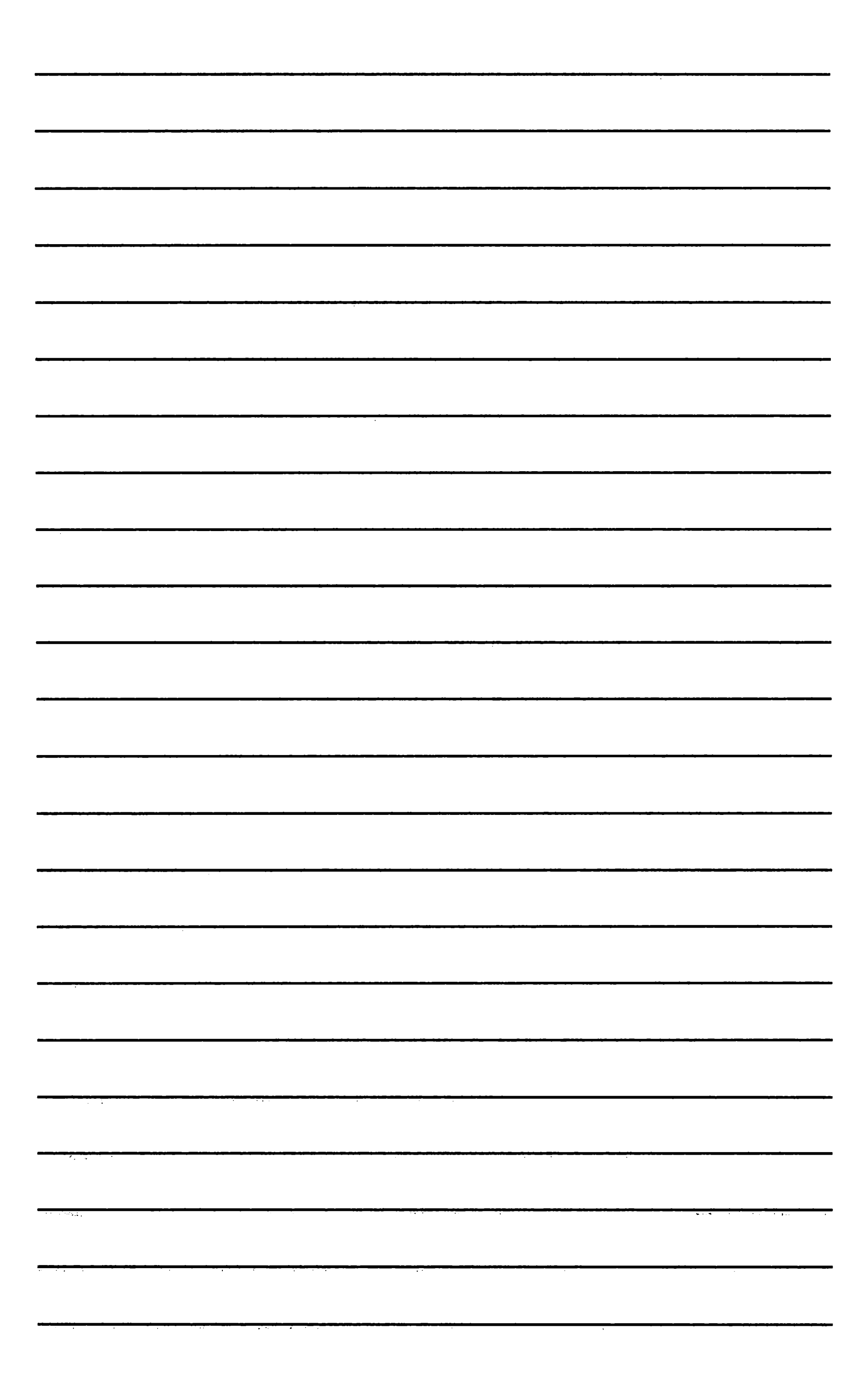


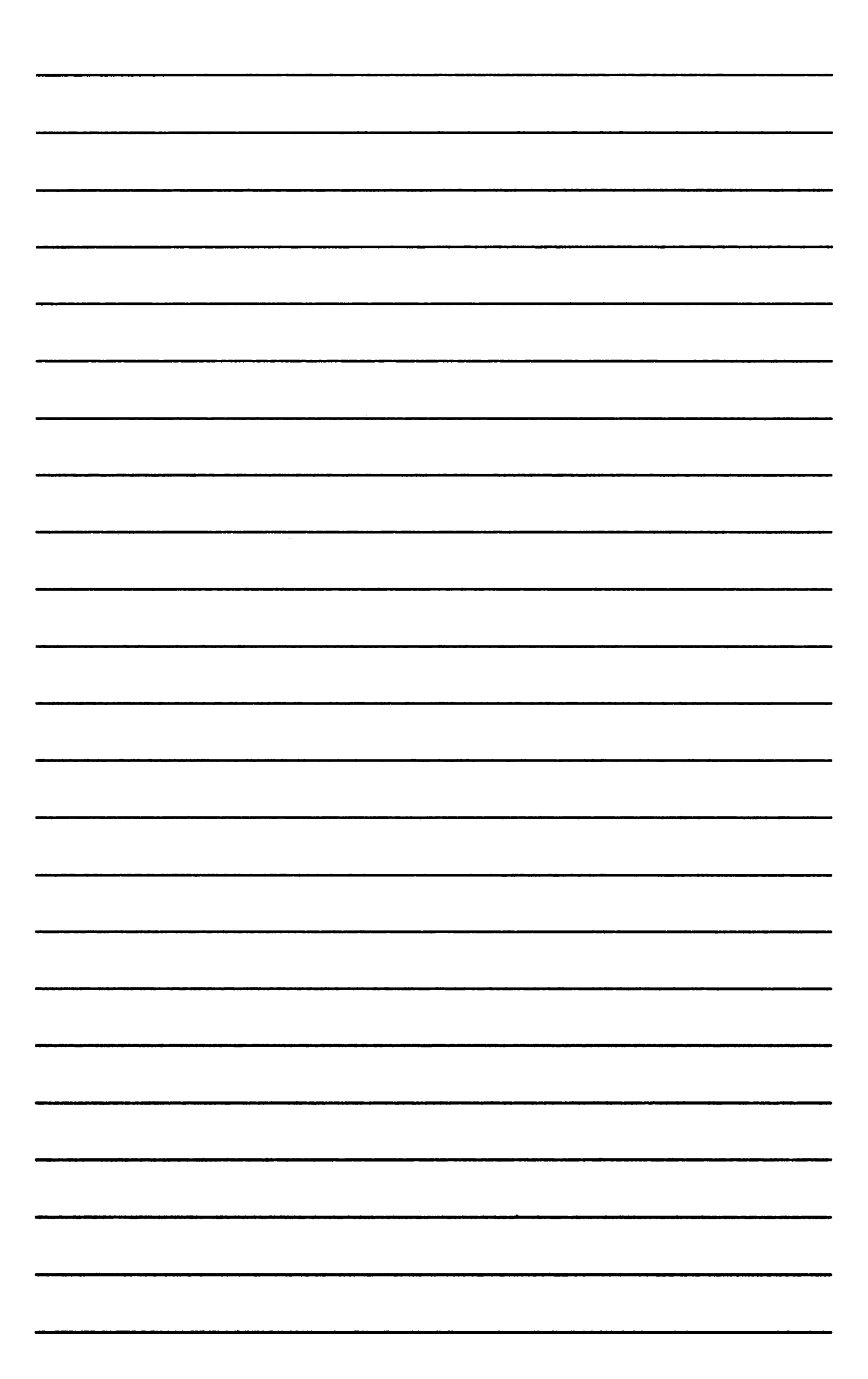


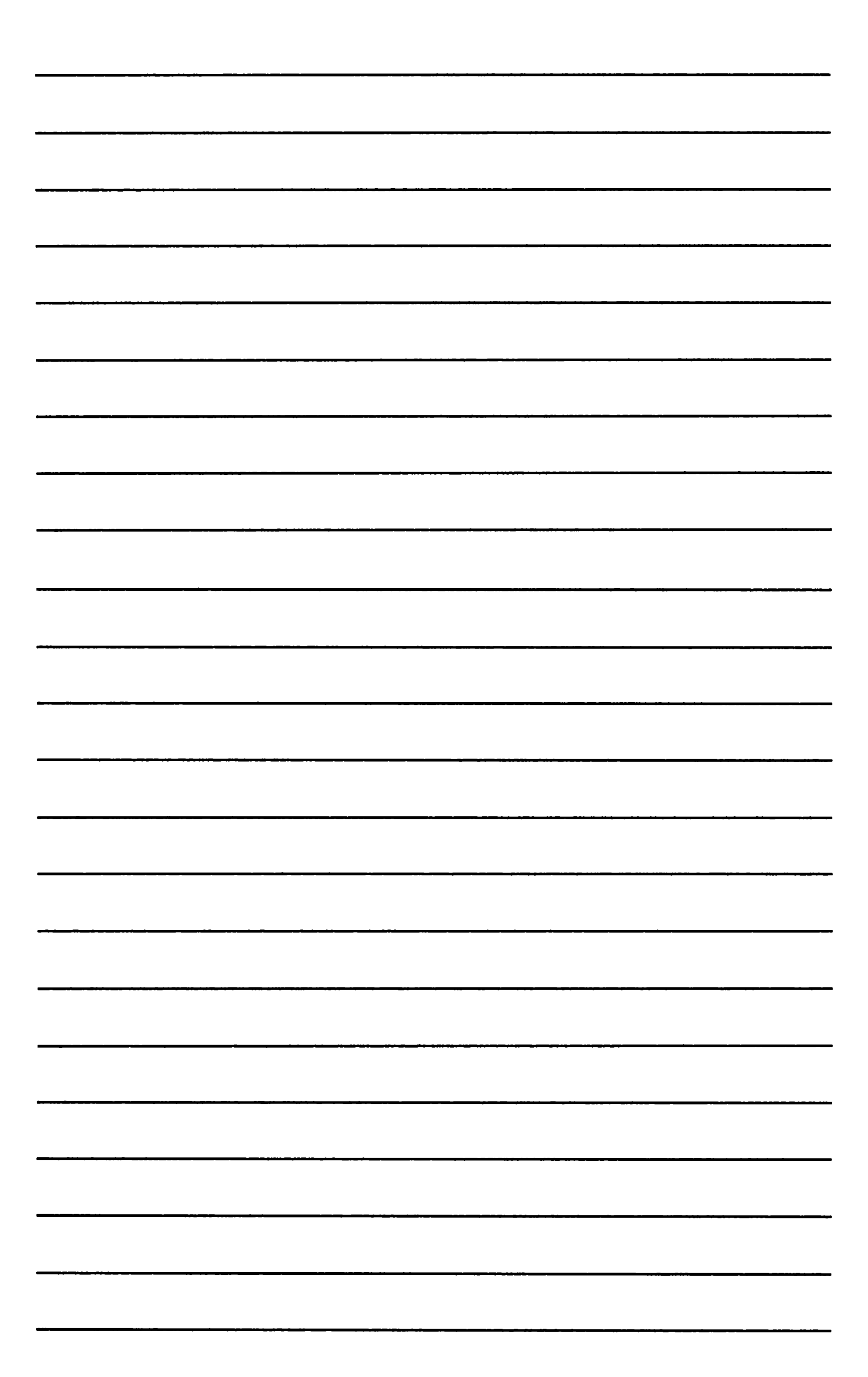












تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

